301



قطاع الثقافة

إحسان عبد القدوس



A.M.

وكر الوطاويط

الأعمال الكاملة

١٧

إحسان عبد القدوس

■ولد إحسان محمدعبدالقدوس أحمدرضوان فى أول يناير عام ١٩١٩ بالعباسية بالقاهرة. والده المهندس الفنان الممثل والشاعر/ محمد عبد القدوس. ووالدته السيدة فاطمة محيي الدين اليوسف، لبنانية الأصل. ممثلة مسرح وأسست دار روزاليوسف للصحافة والنشر عام١٩٢٥

■ تخرج فى كلية الحقوق عام١٩٤٢. عمل لمدة سنة كمحام ثم عمل بعدها كصحفى بمجلة روزاليوسف ثم عينته والدته رئيساً لتحرير المجلة، وظل بها رئيساً للتحرير حتى عام١٩٦٤

■ تولى رئاسة تحرير «أخبار اليوم» من عام١٩٦٦ حتى ١٩٧٤ ورئيساً لمجلس إدارتها من عام١٩٧١ حتى عام١٩٧٤.

■ عمل كاتباً بالأهرام من عام١٩٧٤ حتى وفاته وكان قد عين رئيساً لمجلس إدارة مؤسسة الأهرام خلال عامى١٩٧٥، ١٩٧٦

■تعرض للأغتيال والسجن عدة مرات بسبب كتاباته السياسية وخصوصاًعن قضية الأسلحة الفاسدة التى استخدمت فى حرب فلسطين وكان لهذه الكتابات أثر كبير لتهيئة الرأى العام لقيام ثورة٢٣ يوليو١٩٥٢

■ كتب مئات الروايات والقصص القصيرة نشرت فى جرائد ومجلات مصرية وعربية وجمعت فى ٦٠ كتاباً وترجم العديد منها إلى أكثر من لغة أجنبية وتم تحويل عشرات منها إلى أعمال سينمائية وتليفزيونية ومسرحية وإذاعية

■ كان يؤمن بشدة بأن الحب والصدق وحرية الرأى هى أسس العلاقات الأنسانية

■ أنعش الحركة الثقافية بدعوته لإنشاء المجلس الأعلى للفنون والأدب ومشاركته الأيجابية فى تأسيس نادى القصة وجمعية الأدباء

■ حاز على العديد من الجوائز والأوسمة المصرية والأجنبية من جمعيات ومهرجانات سينمائية تقديراً لقصص أفلامه منها جائزة الدولة التقديرية فى الأدب بعد وفاته

■ توفاه الله إلى رحمته فى ١١ يناير ١٩٩٠.





شرح العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية

رحمه الله تعالى

تأليف فضيلة الشيخ

د/ صالح بن فوزان الفوزان

طبع ونشر

الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء

الإدارة العامة لمراجعة المطبوعات الدينية

الرياض - المملكة العربية السعودية

وقف لله تعالى

الطبعة الثامنة

١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م

مجموعة قصص

وكر الوطاويط

إحسان عبد القدوس



وكر الوطاويط

وكر الوطاويط

إنه منذ أن كان طفلا وهو كلما أمسكت أصابعه بأى قلم يأخذ فى أن يخط به خطوطا لا يقصد بها التعبير عن أى شىء.. ولكنه فقط يلعب بالأقلام.. ثم وجد نفسه يفرح أكثر إذا وجد أقلاما ملونة وينهال بها يخط خطا باللون الأحمر ويشخبطه باللون الأزرق ثم باللون الأسود.. وهو لا يقصد التعبير عن أى شىء.. ولكنه فقط يلعب بالألوان.. وبعد أن شب وأصبح صبيا بدأ يحاول أن يرسم بالأقلام والألوان.. وينقل صورة منشورة فى إحدى المجلات.. أو يحاول أن يرسم أخته أو أمه.. ولم يحاول أبدا أن يرسم أباه..

وقبل أن يصل إلى العاشرة من عمره ظهر عليه التعلق بلعبة جديدة.. فقد كان كلما ذهب إلى القرية يقضى يومه جالسا على ضفة الترعة ويجمع بين يديه قطعا من الطين ويبدأ فى تشكيلها فى صور مختلفة.. قد يشكلها فى صورة جاموسة ، أو فى صورة شخص ، أو فى صورة بيت.. كأنه يشكل الطين فى تماثيل.. وقد تمكنت منه هذه اللعبة حتى أنه بذل كل إمكانيات طفولته فى إقناع أمه بأن تعطيه بضعة قروش يشترى بها قطعة من الصلصال الذى يحل محل الطين فى إمكان تشكيله فى تماثيل.

ومع الأيام عرف بين أصدقائه بأنه فنان.. رسام ونحات.. ولكن العائلة لم تعترف له أبدا بأنه موهوب بالفن.. أنه فقط يلعب بالقلم

فوق الورق.. أو يلعب بأصابعه فى الطين.. وهى لعبة يسكتون عليها لأنها تبعده عن الألعاب الأخرى العنيفة التى تضعف أخلاقه وتهدد مستقبله. بل بدأت العائلة على قدر ما يرزقها الله تستجيب لمطالب هذه اللعبة.. فاشترى له الأب فرشاة توفر له مجالاً أوسع فى اللعب فوق الورق.. كما استطاع أن يأتى له بلعبة من الألوان أخذها من أحد المتعاملين معه فى وظيفته.. أخذها كرشوة يصل بها إلى إرضاء ابنه بأن يوفر له مطالب لعبته حتى يشجعه على الاستمرار فى مذاكرة دروسه..كما استطاعت الأم أن توفر من مصروف البيت خفية عن الأب ما يكفى لأن يشترى ابنها أزميلاً يحفر به فى الحجر ، وكان يلح عليها حتى خشيت عليه بأن يؤدى به الإلحاح إلى الجنون.. قد يسرق ليحصل على هذا الأزميل..

واستطاع مصطفى بركات رغم سيطرة هوايته الفنية عليه أن يجتاز كل سنواته الدراسية حتى حصل على شهادة الثانوية العامة بدرجات عالية.. وأراد أن يلتحق بكلية الفنون.. وصرخ الأب فى وجهه.. مستحيل.. إنه منذ البداية لم يكن يتصور مستقبلا لابنه إلا كموظف محترم يحصل على مرتب مستقر يرتفع عاما عد عام حتى نهاية العمر.. والأب نفسه لم يحلم مذ طفولته إلا بأن يكون موظفا حكوميا.. لقد كان أول من نزح من أفراد عائلته من القرية إلى القاهرة.. واستطاع بمجهود شاق أتعب العائلة كلها أن يستكمل التعليم الابتدائى.. وقد كانت الشهادة الابتدائية كافية لأن تضعه فى وظيفة حكومية مستقرة رغم أنها صغيرة لا تعطيه إلا مرتبا زهيدا.. ولكنه على كل حال كان مرتبا أعلى مما كان يوفره بقاؤه فى القرية.. ولا يدرى لماذا لم يحاول أن يستمر فى تعليم نفسه والحصول على شهادات أعلى حتى يصل إلى وظائف أكبر.. ربما لأنه تزوج فورا وقفلت عليه العائلة التى أقامها كل الأبواب إلا باب مسئولية استمرار وجودها.. وقد كانت القرية هى التى فرضت عليه هذا الزواج المبكر

بمجرد أن أصبح موظفا.. إنها قرية تنبض بالأنانية لا تبيح أن يستولى أى غريب على أى شبر من أرضها كما لا تقبل أن يضيع منها أى مليم يكسبه أحد أفرادها.. كأنهم زوجوه ابنة عمه حتى لا يستولى غريب على مرتبه بعد أن أصبح موظفا حكوميا آمنا.. ولكن هذه القرية لن يكون لها أى سلطة فى تحديد مصير ابنه مصطفى.. وسيجعل منه موظفا كبيرا يحمل أرقى الشهادات التى يمكن أن تصل به إلى أضخم المرتبات.. ومجموع الدرجات التى حصل عليها فى الشهادة الثانوية يوفر له الحق فى الالتحاق بكلية الطب أو بكلية الهندسة.. وما أعظم الموظف الطبيب أو الموظف المهندس..

واضطر مصطفى أن يخضع لثورة أبيه ويلتحق بكلية الهندسة ولكنه لم يستطع أن يستوعب أى علم من العلوم التى تنثر عليه.. ثم لم يعد يستطيع أن يوجد بين الطلبة فى قاعات الدراسة.. بدأ يخرج من البيت كل صباح وفى يده أفرخ الورق وجيبه محشو بالأقلام ثم يختار شجرة فى أى حديقة يجلس تحتها.. ويرسم بالقلم فوق الورق.. ويرسم أى شىء.. وهو الذى يختار هذا الشىء بل كان أحيانا يرسم خواطر لا يراها بعينيه ولكنها قائمة فى خياله.. ثم بدأ يتعمد البحث عن أى معرض لأى فن تشكيلى يقيمه رسام أو مثال ويذهب إليه.. ويحاول أن يقدم نفسه للفنان الذى يقيم هذا المعرض.. ولم يكن أى منهم يهتم بلقائه.. ليس فى مظهره ما يدعو إلى الاهتمام.. إنه مظهر فقير والفقير لن يشترى فلماذا يهتم به أحد.. إلى أن التقى بالصدفة فى أحد هذه المعارض بشاب يكاد يكون مثله.. يبدو الفقر على مظهره ويبدو الضياع الفنى على ملامحه.. وبسرعة تم التآلف بينهما واتفقا على السخرية اللاذعة بكل ما يريانه من اللوحات المعروضة.. ثم وضع رءوف يده فى يد مصطفى قائلا :

– تعال معى إلى الوكر..

وقال مصطفى فى دهشة :

– أى وكر..

وقال رءوف ضاحكا :

– إنه وكر الوطاويط :

واستسلم مصطفى له كأنه يتطلع لاكتشاف سر.. وسار به رءوف إلى حارة من حوارى حى الحسين ودخل به فى بيت قديم تآكلت كل جدرانه ويستند على عدد كبير من الخشب يحميه من الانهيار.. ثم إلى حجرة ضيقة مظلمة تجمع بها ثلاثة شبان.. كل منهم أمامه لوحة يرسم عليها.. يحركون الفرشاة حتى فى هذا الظلام وكأن عينى كل منهم تطلق النور الذى يضىء له فنه.. وقال لهم رءوف فى بساطة :

– التقيت بهذا الوطواط.. وأحضرته معى..

ورفع الثلاثة عيونهم إلى مصطفى دون أن ينطق أحدهم بكلمة.. ثم عاد كل منهم إلى الرسم فى لوحته.. وبدأ مصطفى يحس كأنه هو نفسه يقف داخل لوحة غريبة.. ولكن غرابتها تنطلق من وراء قمة الفن.. ثم أخذ مع الصمت الذى يخيم على الجميع.. يطوف على اللوحات التى يرسمونها.. وقد أصبح يستطيع أن يستوعبها بعينيه رغم الظلام المخيم الثقيل.. كأنه عينه هى الأخرى أصبحت تحمل شموعا تطلق عليها النور.. وقد رأى على كل لوحة خطوطا غريبة وألوانا متداخلة فى غرابة.. حتى أنه لايستطيع أن يفهم منها شيئا تعبر عنه.. بل لايستطيع أن يرى فيها أى فن.. كأنها مجرد شخبطة.. وكان صديقه رءوف قد انزوى عنه وجلس على الأرض وأقام أمامه لوحة بدأ يرسم فيها هو الآخر.. فخطا إليه مصطفى وجلس على الأرض بجانبه وأطل فى اللوحة التى يرسمها.. إنها أيضا تجمع بين خطوط وألوان غريبة لا يفهم منها شيئا.. وهمس فى أذنه قائلا :

– إنى لا أفهم شيئا من كل اللوحات التى ترسمونها ولا أتذوق فيها أى تعبير فنى..

ورد عليه رءوف بصوت عال دون أن يحاول الهمس :

– ليس مهما أن تفهم أو تتذوق كمتفرج.. المهم أن يكون الفنان صادقا فى الانطلاق بكل ما يدفعه إليه فنه.. فالفنان يولد منطلقا مع طبيعته.. كالطفل الذى يولد وهو لايستطيع أن يعبر عن طبيعته وعن مطالبه وعن آرائه إلا بالصراخ.. والناس من حوله لا تستطيع أن تفهم أو تتذوق هذا الصراخ.. وقد يتطور الطفل مع العمر إلى أن يستطيع أن يقلب صراخه إلى كلمات يفهمها ويتذوقها الناس.. أو قد لا يتطور ويظل يعبر عن نفسه بالصراخ..

وقال مصطفى فى حيرة :

– كأنك تقول إنكم كلكم لا تزالون أطفالا تصرخون بالفن..

وقال رءوف ساخرا :

– إننا لا نحس بأنفسنا كأطفال أو شبان أو عواجيز فى الفن.. ولا يهمنا أن نحدد من نكون.. يكفينا أننا أحرار فى الانطلاق بما يوحى به الفن لكل منا..

وقال مصطفى وهو أشد حيرة :

– ولكن هذا الفن يسجل فى لوحات أو فى قطعة حجر تتحول إلى تمثال.. واللوحات والتماثيل يجب أن تنتقل إلى ملكية الجمهور حتى يتمتع بها.. ولا يمكن أن يجد أى فرد ما يتمتع به إلا فيما يفهمه ويتذوقه.

وقاطعه رءوف صارخا :

– إن الفنان الذى يضع نفسه فى خدمة الجمهور يخون فنه ويخون نفسه.. إن الفنان الصادق هو الذى يحتفظ بنفسه مستسلما لطبيعة فنه.. ونحن نعرف رساما معروفا كانت طبيعته الفنية لا تستكمل إلا وهو يرسم المناظر الطبيعية أو يرسم وجوها محطمة تعبر عن نهاية العواجيز.. ولكن لوحاته لم تكن تجذب الجماهير ولا يقبل عليها من يشتريها.. إلى أن استطاع أن يخون نفسه ويخون

طبيعة فنه فبدأ يرسم لوحات لجمال المرأة بكل تفاصيل الجمال.. يرسم المرأة عارية.. فأقبل عليه الجمهور.. واشتهر.. واغتنى.. ولكنه لم يعد يعبر عن قيمة فن كان يمكن أن يبهر العالم كله.. ونعرف فنانا آخر كان يشكل الطين والحجر ويقيم بهما تماثيل من أعمدة غريبة ودوائر أغرب.. كان انطلاقة غريبة رائعة فى فن النحت.. ولكن لا أحد من الجمهور العادى تجاوب مع هذا الفن.. ولم يشتر منه أحد أى تمثال.. أنها فى نظرهم مجرد قطع من الحجر.. وهم ليسوا فى حاجة إلى أحجار.. بل إنهم كانوا يعتبرون الفنان كأنه مجرد مجنون يلعب بالطين.. وانهار الفنان.. وأفلس.. وكاد يموت من الجوع.. وتحامل على نفسه وانضم إلى مجموعة من الفنانين الذين كانوا مثله ينحتون الحجر ولكنهم خصصوا فنهم للتجارة والثراء ولا يقدمون به إلا مايريده الجمهور الذى يدفع الثمن.. وخصصوا فنهم فى صناعة الشمعدانات وأوانى الزهور وطقاطيق السجائر.. و.. و.. وكل ما يغرى المشترى.. وقد بدأ يربح كثيرا من الاتجار بفنه.. ولكنه لم يعد يعيش فنه.. أصبح كأنه مجرد عامل ميكانيكى.. لذلك فنحن لا نسعى إلى الوصول للجمهور.. جمهور المشترين.. ولكننا نعيش الفن وحده إلى أن يسعى الجمهور إلينا..

وأحس مصطفى وهو يسمع هذا الكلام كأنه ارتفع إلى قمة الفن.. وفتح الورقة العريضة التى يحملها دائما معه وعلقها على الجدار المظلم ثم أخرج الأقلام من جيبه وأخذ يخط عليها رسما وهو يشعر كأنه أصبح فى منتهى الجرأة ، وأن خياله الفنى قد اتسع لعالم جديد أوسع بكثير من العالم الذى كان يعيش فيه..

وبعد قليل ألقى الوطاويط الفرشات من أيديهم كأنهم فى حاجة إلى استئذان الفن ليرتاحوا من عنف عصيره لهم. وبدأوا يتناقشون فى انطلاق يطلق آراء غريبة.. ويطلقون ضحكات عالية كأنها صرخات الأطفال.. ولم يحاول أى وطواط أن يسأل مصطفى أى

سؤال.. من هو.. ولماذا جاء.. لا يسألونه حتى عن اسمه.. إنهم لا يرونه إلا كمجرد وطواط جاء إلى الوكر..

وقد ظهر وطواط آخر داخل المركز وهو يحمل لفافة كبيرة ألقى بها على الأرض فتكشفت عن مجموعة من سندويتشات الفول والطعمية.. ومد كل واحد من الوطاويط يده والتقط سندويتشا يقضم فيه بنهم دون كلمة شكر واحدة.. وتردد مصطفى فى أن يمد يده هو الآخر ويلتقط سندويتشا.. إنه ليس مدعوا.. ولا يعرف هذا الوطواط الذى جاء به.. وظل جالسا ينظر إليهم كأنهم وهم يقضمون الساندويتش يقضمون فى بطنه الجائع.. ولم يحاول أحد منهم أن يدعوه إلى الأكل أو يمد له يده بسندويتش.. حتى صديقه رءوف لا يحس به وبأنه لا يأكل.. حتى قضى الوطاويط على كل مافى اللفافة ممايؤكل وعاد كل منهم إلى لوحته يستأنف الرسم عليها.. ووجد مصطفى نفسه يقوم خارجا من الوكر تحت إلحاح الجوع.. دون أن يأبه به أحد وحتى دون أن يرد أحد على التحية التى ألقاها وهو خارج..

وقد أدمن مصطفى بعد ذلك التردد على وكر الوطاويط.. واعترف بنفسه وطواطا.. أنه يحس كوطواط بانطلاق فنى لا نهاية له.. وأصبح لا يرسم ولا يشكل الصلصال والحجر إلا وهو داخل الوكر.. ويحتفظ بكل معداته مركونة على الحائط المظلم مع بقية معدات غيره من الوطاويط وقد عرف أن من التقاليد التى يعيش عليها الوطاويط أن كل من يريد أن يأكل داخل الوكر فيجب أن يحمل طعاما يكفى لتوزيعه عليهم كلهم.. أما إذا إراد وطواط أن يأكل وحده فليأكل خارج الوكر.. وتعود أن يتحايل على أمه بين يوم وآخر لتعد له كمية كبيرة من الطعام بحجة أنه سيأكلها مع زملائه من طلبة كلية الهندسة.. ثم يحمل ما تعده أمه إلى وكر الوطاويط..

ورغم أنه أصبح وطواطا كاملا إلا أنه لا تزال فيه خوالج تنبض

بالإحساس بأبيه وخشيته.. إن أباه لا يمكن أن يجد ابنه وقد أصبح وطواطا.. ولا يمكن أن يفهم أو يقدر ما يمكن أن تلهمه الوطاويط من فن.. ولذلك ظل مواظبا على التردد على كلية الهندسة حتى لا يرفت.. ولكنه لا يحاول أبدا أن يستوعب شيئا مما يدرسه.. لذلك رسب فى امتحان آخر العام.. وجن أبوه.. إنها أول مرة يرسب فيها ابنه خلال سنواته الدراسية.. وبلغ جنونه إلى حد أن انهال على ابنه بالضرب.. والابن يتحمل الضرب فى صمت إلى أن استطاع أن يقول لأبيه :

– لا أمل إلا إذا التحقت بكلية الفنون..

واستسلم الأب صاغرا.. على كل حال فقد عرف أن خريجى كلية الفنون يمكن أيضا أن يكونوا موظفين فى الحكومة.. وإن كان مجال وظائفهم دائما مبعدا كأن الحكومة لا تعترف بدراسة الفن إلا كنوع من التزين المظهرى دون الاعتراف له بأى قيمة مجدية فى بناء الدولة..

وفى العام التالى أصبح مصطفى بركات طالبا فى كلية الفنون.. وقد شعر كأنه وجد أخيرا دنياه.. ولكن هذه الدنيا فيها عناصر كثيرة لاتشده ولا تهمه.. عناصر لا يستطيع أن يتعامل معا إلا كمجرد تلميذ.. وهو ليس مجرد تلميذ.. حتى الأساتذة لا يريدون أن يعترفوا به كفنان.. إنه تلميذ.. وهم لا يعترفون بالفنان إلا بدرجة وظيفته الحكومية بعد أن يصبح موظفا.. وكان يعرض عليهم لوحاته وقطع الحجارة والصلصال التى يشكلها فينظرون إليها كأنهم يخففون عليه.. ويلقون عليه كلمات يخففون منها حتى لا تجرحه.. إنه لا يجد فى الكلية إلا أنه أصبح من السهل عليه أن يحصل على المعدات التى يحتاج إليها انطلاقة الفنى.. اللوحة والفرشاة والألوان.. والحجارة والأزميل.. إنه مصر على ألا يتخصص فى فن واحد سواء الرسم أو النحت.. وكان يترك الكلية ويجرى إلى وكر الوطاويط.. كأنه أصبح لا يجد فنه إلا هناك..

وقد تعمد أن ينجح فى امتحانات الكلية طوال سنوات الدراسة حتى تخرج.. وإن لم يتميز بين الخريجين وبدأ أبوه يلح ويسعى للبحث له عن وظيفة.. إن الحكومة مسئولة عن تعيين كل الخريجين فى وظائف.. ولكن لم تعد لديها وظائف للفنانين والرسامين.. إنها أحيانا تعين بعض الفنانين فى وظائف دون تشغيلهم فى أى فن.. ولكن لماذا يريد له أبوه أن يكون موظفا.. أن الدافع الواقعى هو أنه يريد لابنه أن يكسب وأن يبدأ فى إعالة نفسه والاشتراك فى إعالة العائلة.. فلم لا يحقق هذا الكسب ببيع ما ينتجه فنه.. أى بيع اللوحات والتماثيل.. ولكن كيف يبيع هذا الإنتاج ومن يشتريه.. إنه لا يعرف أن أحدا من شلة الوطاويط يبيع شيئا.. أحيانا يجد واحدا منهم يطمس اللوحة التى أتمها ويبدأ فى أن يرسم مكانها صورة أخرى.. وأحيانا يجد واحدا منهم يخرج لوحته ولا يعود بها ولا يدرى أين تركها.. ولا يحاول أحد أن يسأله عنها.. ان من تقاليد الوكر ألا يلقى أى وطواط أى سؤال على أى وطواط آخر.. إنما يترك كل منهم للآخر حرية قول ما يريد.. وقد رأى أحد الوطاويط يحمل لوحة انتهى من رسمها ويعطيها لأحد سكان الحارة من الغلابة الفقراء.. يلقيها إليه كأنه يلقى بها فى صفيحة زبالة.. وهو لايستطيع أن يلقى بلوحاته فى الزبالة.. إنه يفخر بها ومتأكد أنها يمكن أن تباع بثمن عال.. وقد تجرأ وسأل صديقه رءوف كيف يستطيع أن يبيع لوحاته رغم أنه يعلم أن رءوف نفسه لا يبيع شيئا من إنتاجه.. وأجابه رءوف ساخرا :

– ابحث عن أحد باعة الروبابيكيا ليبيعها لك.. إننا لا نبيع لوحاتنا ولكننا نعطيها لبائع متخصص يبيعها لنا.. وإذا أفلح أى واحد منا فى بيع لوحة فإنه يهجر الوكر.. لايعود يجد فيه ما يجمعه بنا..

وكان مصطفى يمر كثيرا أمام فترينة دكان فى شارع طلعت حرب تعرض بعض القطع التى تزين البيوت وبعض اللوحات

المرسومة.. أغلبها رسومات أجنبيـة.. إنها كلها تعبر عن مستوى فنى هابط.. وتجرأ وحمل لوحة من لوحاته ودخل بها إلى صاحب المحل.. إنه لا يبـدو أنه مصرى.. لعـله يونانى أو أرمنى من الذين لا يزالون يقيمون فى مصر.. ورفع اللوحة أمام عينيه.. ولكن الرجل لم يحاول أن ينظر إليـها وأشار بـأصبعـه إلى ركن من أركان الدكـان مكدس بلوحـات مركونة عـلى الجدار.. وقال وهـو مشغـول بالأوراق التى أمامه :

– ضعها هناك..

وقال مصطفى فى دهشة ساخطة :

– ولكنك لم ترها..

وقال الرجل فى تأفف :

– لا يهم أن أراها.. المهم أن يراها من يشتريها ويدفع ثمنها..

وقال مصطفى فى حدة :

– ولكنك تستطيع أن تقدر إذا ما كانت ستجد من يشتريها.. وقال الرجل ساخرا :

– مستحـيل.. إن أذواق المشترين متناقضـة.. وتتطور عكسيا فى كل يوم.. واللوحـة التى أقـدر أنها لا يمكن أن تـباع قـد تكون أغلى لوحة تباع.. لذلك فقد أصبحت أكتفى بالعرض على المشترين.. فضع لوحتك هناك ومـر على فإذا كـانت قد بيعت فـسأعطيك نصـيبك من الثمن الذى بيعت به..

وترك مصطفـى لوحته وخـرج وهو يشهق مسـتسلمـا.. ومرت أسابيـع وهو يتردد على هذا الدكـان ولا يجد أن لوحـته قد بـيعت.. وأخذ لوحته ووضع بدلها لوحة أخرى ربما كانت أقرب إلى التجاوب مع أحد المشترين.. ولكنها أيضا لا تباع..

وكان خـلال هذه الأيام يعانى العـجز عن الكسب يعـفى أباه من مسـئولية الإنفـاق عليه ويعـاونه فى الإنفاق على العـائلة.. وقرر أن

يتنازل عن عناده ويقبل أن يكون موظفا.. ولكن لا مساعيه ولا مساعى أبيه استطاعت أن تصل به إلى وظيفة حكومية.. فقبل وظيفة فى مدرسة ابتدائية خاصة ليكون مدرسا للرسم فيها.. وكانت مدرسة محترمة أقامتها جمعية أجنبية.. وبدأ يحس لأول مرة بالجنيهات التى تصل إليه فى أول كل شهر.. وتنتابه موجة من الغرور وهو يعطى مرتبه لأبيه وأمه.. ولكنه لا يطيق التدريس للأطفال.. إنه فنان موهوب رائع ولا يمكنه أن يجلس بين أطفال يعلمهم ألف باء الرسم.. إنه يريد أن يعطى كل دقيقة من عمره للابداع الفنى.. ثم إنه وهو طفل لم يتلق دروسا فى الرسم وكان يتطلع إلى الصور التى أمامه ويحاول تقليدها إلى أن أصبح فنانا مبدعا.. ووصل إلى اكتشاف طريقة جديدة لتعليم الأطفال.. فكان يدخل إليهم وهو يحمل لوحته ومعداته ويجلس أمامهم ويبدأ فى أن يرسم لوحته ويطلب من الأولاد أن يراقبوه ويحاولوا تقليده على الورق الذى أمامهم دون أن يوجهوا إليه أى سؤال.. ولم يستجب الأولاد لهذه الطريقة فكانوا يقضون ساعة حصة الرسم فى اللهو دون أن يحس أو يأبه بهم ويعيش كله فى اللوحة التى يرسمها.. وعلمت إدارة المدرسة بهذه الطريقة الغريبة التى يتبعها فى تدريس الرسم.. إنها لا يمكن أن تزود الطلبة بأى قدرة على خط أى خط فى أى رسم.. فاستغنت عن خدماته.. فطردته..

وعاد يعانى العجز عن الكسب.. وهو يصب سخطه على مصر كلها.. كيف لايستطيع مصرى أن يعيش بفنه فى مصر.. إن مصر كما يقال تجمع شعبا من الفنانين.. مصر هى التى بنت الأهرام.. فلماذا لا يجد طريقا يبنى بها أهراما.. حتى لو كان الفن فى بناء الأهرام هو فن معمارى فقد ترك الفراعنة أيضا لوحات رائعة مرسومة على الجدران فلماذا لا تعلق لوحاته اليوم على الجدران.. إن فيها فنا أعمق وأروع من لوحات عهد الفراعنة.. ولكن.. من الذى

أقام الهرم وعلق هذه اللوحات ليعيش الفن آلاف السنين.. إنهم الأغنياء والأثرياء.. سواء كان ثراء الدولة أو ثراء الأفراد أصحاب رؤوس الأموال.. إن الفن قد ينطلق من طبقة الفقراء ولكنه لا يعيش إلا بطبقة الأغنياء.. وسبب عجزه أنه ليس على علاقة بأى واحد من هؤلاء الأغنياء ولم يتقرب إلى أى وزير من الوزراء.. وبدأ يفكر فى أن يصنع تمثالا رائعا للسيد عثمان أحمد عثمان وهو أضخم من يسمع عنهم من أصحاب رؤوس الأموال ، ثم يعرضه عليه.. لاشك أنه سيشتريه بمبلغ ضخم وقد يعجب به إلى حد أن يكلفه بإقامة مجموعات من التماثيل لتوضع على مداخل الكبارى التى تقيمها شركاته.. حتى تكون كتماثيل الأسود المقامة على كوبرى قصر النيل.. أو يرسم لوحة زيتية لوزير الثقافة ولا شك أنه سيعطيه نظيرها مركزا عاليا ووظيفة رئيسية فى أحد المعاهد الفنية.. ولكنه لا يعرف وزير الثقافة ولا حتى اسمه.. ويخشى بعد أن يعرفه أن يبدأ فى رسمه فيخرج من الوزارة قبل أن يتمها..

ولكن.. لا.. إن أساس مصيبته أن الفن المصرى كله ضاع من الشعب المصرى بعد أيام الفراعنة.. لم يبق منه إلا خطوط بدائية ملونة يخطها على جدران المقاهى. وإن كان دخلها فن أوحى به الإسلام فهو مقصور على فن إقامة المساجد والمبانى.. إن الإسلام يحرم إقامة التماثيل حتى لا يفتح مجالا للعودة إلى عبادة الأصنام.. ويحرم أن يرسم الناس بعضهم بعضا على الورق حتى لا يتصورون أنهم يستطيعون تقليد القدرة الإلهية على تشكيل صور أفراد خلق الله.. ولعله قد يتهم بأنه كافر.. لأنه يقيم التماثيل ويرسم.. وإن كان فقهاء الإسلام قد اعترفوا بالصور الفوتوغرافية.. ثم لم يبدأ هذا الشعب الإحساس بالفن فى مصر إلا بعد آلاف السنين.. أى منذ خمسين أو ستين سنة عندما بدأ يعترف بالمثال محمود مختار والرسام يوسف كامل.. ورغم ذلك لم يستطع مختار

أو يوسف كامل أن يعيشا بفنهم إلا اعتمادا على الحكومة. وبعد أن ذهبا إلى أوربا ليتعلما أسرار الفن.. وكأن مصر لا تحمل فى باطنها كل هذه الأسرار..

وكان مصطفى قد التقى خلال هذه الأيام بشلة من الفنانين الرسامين يختلفون عن شلة وكر الوطاويط.. يبدو كأنهم من طبقة أخرى.. وكانت هذه الشلة قد اتفقت مع أحد المطاعم الراقية على أن يخصص مدخل المطعم لإقامة معرض صغير للوحاتهم يمر بها زبائنه ولا يمكن أن يكون لهذا المطعم زبون إلا من الأثرياء.. واستطاع مصطفى أن يقنعهم بعرض لوحاته مع لوحاتهم لعله يبيع منها شيئا.. وكان يقضى معظم يومه وهو جالس فى مدخل المطعم وعيناه مركزتان على لوحاته ويقارن بينها وبين بقية اللوحات المعروضة.. ولا شك أنه أروع فى انطلاقه الفنى عن بقية الرسامين.. ثم يتطلع إلى كل زبون يدخل المعرض كأنه يتوسل إليه أن يقف ويتفرج على إبداعه..

وفى يوم دخلت إلى المطعم سيدة التقت عيناها بعينيه دون تعمد.. ووجدها تتأنى فى الفرجة على كل لوحة من اللوحات.. وكانت بين كل لوحة وأخرى تعود وتتطلع إليه ولا تكاد عيناها تلتقى بعينيه حتى تعود وتدير وجهها عنه.. إلى أن وقفت أمام لوحاته طويلا.. ثم التفتت إليه تسأله :

- من الذى رسم هذه اللوحة..

وأجاب وقلبه يضج بالفرحة :

- أنا..

وقالت فورا وهى تبتسم ابتسامة مهذبة :

- سآخذها.. كم تريد..

وقال بفرحته بأول من يشترى منه فى حياته :

- لا أريد أكثر مما تريدين.. حتى لو أردتها هدية..

قالت من خلال ابتسامتها :

- سأدفع مائة.. هل تكفى..

قال وهو يحنى رأسه مبهورا :

- إن ما تريدينه يكفى..

وفتحت حقيبتها تخرج منها الجنيهات.. قال وقد تذكر أنه من كبار الفنانين :

- ولكنى لن أستطيع أن أتركها لك إلا بعد انتهاء المعرض..

وقالت فى بساطة :

- بعدأن ينتهى المعرض تستطيع أن تأتى بها إلى البيت.. وسأترك لك العنوان.. وطبعا ستعرف اسمى.. ثم بسرعة ناولته المائة جنيه وكتبت له اسمها وعنوانها ثم تركته مهرولة كأنها تخشى أن يراها أحد بجانبه ودخلت المطعم.. وطار بفرحته وعلق على اللوحة ورقة صغيرة مكتوب عليها كلمة « بيعت » لأول مرة فى حياته يكتب على إحدى لوحاته هذه الكلمة.. وقبض بيده على أوراق المائة جنيه.. إنه أكبر مبلغ يصل إلى يده منذ أحس بالدنيا..

وظل مبحلقا منتظرا أن تخرج بعد تناول غذائها فى المطعم.. حتى يرى أول حلم من أحلامه تحقق فعلا.. وخرجت مع فريق من الصديقات كن فى انتظارها داخل المطعم.. ولم تعطه إلا ابتسامة من بعيد.. وظل يتتبعها بعينيه.. إنها ليست سيدة شابة.. كأنها خطت لتكون عجوزا.. وهى ليست جميلة جدا ولكنها لا شك جذابة وأكثر ما يجذب فيها ابتسامتها.. ثم أنها سمينة متهدلة القوام ولكنها حتى رغم ذلك تعتبر رشيقة فى خطواتها.. ولكن ماذا يهمه من كل ذلك.. يكفى أنها غنية.. لا شك غنية جدا حتى تدفع فى لحظات مائة جنيه ثمنا للوحة.. لم يكن يتصور أن المائة جنيه يمكن أن توضع فى يده بهذه البساطة.. وأطل فى الورقة التى تركتها تحمل اسمها وعنوانها كأنه يطل على أول وسام علق على صدره.. اسمها منيرة

المرجوشى.. وقد تركت له مع اسمها وعنوانها رقم تليفونها.. إنه يستطيع هذا المساء أن يتصل بها بالتليفون.. على الأقل يشكرها.. ولكن لا.. إن كبار الفنانين لا يعطون الشكر ولكنهم يتلقونه.. وسيتركها تحس بأنه من كبار الفنانين.. وأنها ليست سوى مجرد معجبة بفنه بين مئات المعجبات..

وبدأ مصطفى بركات يحس بالضيق من استمرار هذا المعرض الذى يعرض فيه لوحاته على مدخل المطعم الراقى.. خصوصا أنه لم يجد أى مشتر آخر لأى لوحة رغم أنه مواظب على الوقوف فى مكانه وقفة إغراء كأنه يستجدى بها الداخلين والخارجين.. لقد مضت الآن عشرة أيام منذ أن اشترت السيدة منيرة المرجوشى إحدى اللوحات دون أن يتقدم أحد آخر لشراء لوحة أخرى.. هل منيرة هى المعجبة الوحيدة بفنه التى تطرأ على حياته.

وخطر له أن ينزع هذه اللوحة من المعرض قبل انتهائه ويحملها إلى منيرة هانم.. على الأقل ليلتقى بها وقد يدفعها إلى شراء لوحة أخرى.. ولكن لا.. يجب أن يبدو بين زملائه كفنان متعال لا يكسر تقاليد المعارض منهارا أمام زبون واحد اشترى لوحة..

وفى اليوم الذى كان مقررا لإنهاء المعرض انطلق بكل آماله واتصل بمنيرة هانم تليفونيا وحددت له الساعة الثامنة مساء ليحمل لها اللوحة التى اشترتها.. وقد تعمد أن يصل إليها دون أن يختار أن يلبس ثيابا مميزة كأنه ذاهب إلى لقاء تعود عليه.. لقد اكتفى بالقميص والبنطلون المبهدلين فوقه.. وشعره منكوش فوق رأسه. أنه يذهب إليها كفنان لا يترك له فنه مجالا للاهتمام بمظهره ومن حقه حرية اختيار مايبدو به..

واستقبلته منيرة وحدها.. وقد عرف فيما بعد أنها أرملة توفى زوجها منذ سنوات.. وقد استقبلته بابتسامتها الحلوة.. ولم تنظر فى اللوحة التى يحملها إليها سوى نظرة عابرة وألقتها على أحد المقاعد..

وظلت عيناها متعلقتين بوجهه كأنها تستعيد كل الخطوط التى سبق أن رأتها.. ثم جذبته من يده إلى غرفة الاستقبال.. وفوجىء بأنها معدة بمائدة عريضة تحمل كثيرا من الأطباق والزجاجات.. ثم بدأ يحس بأنه لم يأت لتسليم لوحة ولكنه جاء إلى حفل معد له.. وجلس بجانبها وهو فرح بنفسه.. وينظر إليها وهو يقنع نفسه بأنها ليست عجوزا كما تصورها عندما رآها أول مرة.. إن وجهها ينبض بحيوية دافقة كأنها فى قمة شبابها.. وهى ليست مفرطة السمنة ولكن جسدها ممتلىء كأنها تحتفظ فيه بالكثير مما يمكن أن تعطيه.. وبدأ الحديث بينهما كأنه لن ينتهى.. ومصطفى يحدثها عن الفن والفنانين.. ومنيرة تستمع وتقول كلمات عائمة لا يستفيد منها شيئا ولكنها تشغل نفسها بإطعامه.. وهى تقدم له أصنافا من فوق المائدة لا يعرفها ولم يسبق له تذوقها وكأن منيرة تعرف أنه يفاجأ بهذه الأطعمة.. تعرف أنه من طبقة لها أصناف أخرى من الأطعمة.. فكانت تفسر له كل صنف تقدمه له.. هذا كافيار روسى.. والكافيار الروسى له أثر آخر عن الكافيار الأوربى.. إنه يرفع من قوة إقبال الرجال.. وهذا سومون فيميه.. تستطيع أن تأكل منه طوال ساعات النهار والليل دون أن تحس بالشبع.. وهذا مارون جلاسيه.. انه ما نسميه عين الجمل.. ولكننا لم نستطع أن نصل أبدا بعين الجمل إلى حلاوة المارون جلاسيه.. وهو يتذوق كل هذه الأصناف وتذوقه يفيض بالدهشة.. لقد كان يسمع عن هذه الأصناف ولكنه لم يتذوقها قبل اليوم.. ولكنه يحاول جاهدا أن يخفى انبهاره ودهشته.. إنه لا يريد أن يبدو أمامها من الطبقة الفقيرة التى لا تأكل هذه الأصناف.. أو على الأقل يريد أن يحتفظ بشخصية الفنان الذى لا يتأثر بما يأكله.. أو سواء أكل أو لم يأكل.. وكانت تدفع إليه أيضا بالكئوس.. وهو يشرب كل كأس.. وبعد الويسكى سألته.. كونياك.. أم بيرمنت.. أم كوانترو.. وهو لا يعرف أى نوع من هذه الخمور.. ويقول لها

اختارى لى.. وهو فى الواقع لم يتعود أن يشرب الخمر.. إنما يشرب اليوم ليثبت أنه من الطبقة التى تملك ثمن شراء كل الخمور.. إنه فنان والفنانون معروف عنهم أنهم يشربون الخمر.. ولكن الخمر بدأت تطلق لسانه فى نعى حاله.. ويشكو متاعبه منذ كان طفلا يحاول أن يرسم ويشكل الطين فى تماثيل.. إلى أن التحق بكلية الفنون وتخرج فيها.. ولا يستطيع حتى اليوم أن يجد مكانا يتفرغ فيه لفنه وحده.. ولا يستطيع أن يبيع من إنتاجه الفنى ما يكسب به ثمن ما تفرضه مطالب الحياة.. وروى لها أنه وصل إلى عرض إحدى لوحاته فى دكان فى شارع طلعت حرب ولم تبع حتى الآن رغم أنه قد مرت شهور على وجودها فى الدكان.. ثم انطلق لسانه أكثر وصارحها بأنها كانت الوحيدة التى اشترت لوحة من لوحاته التى عرضها فى المطعم..

وقالت ضاحكة :

– هذا يطمئننى إلى أنك ستبقى لى وحدى..

وكان من كثرة ما أكل وما شرب قد بدأ يحس بالارتخاء وكل ما فيه يهمد كأنه على وشك أن ينام.. وقالت له منيرة هانم فى لهجة حاسمة كأنها تفرض عليه أمرا :

– من الأفضل أن تنصرف الآن.. وتأتى إلىَّ غدا فى نفس الموعد الثامنة مساء..

وقام من جلسته دون أن ينطق بكلمة.. حتى ولو بكلمة شكر على الحفل الذى فوجىء به.. وخطا يترنح وهى بجانبه حتى وصل إلى الباب فقالت له وهى تحيطه بابتسامة سخية :

– إنى فى انتظارك..

ثم شبت على قدميها وقبلته قبلة أم تحنو على ابنها..

ولم يحس بقبلتها وهَم أن ينزل فعادت إليه قائلة :

– هل تستطيع أن تجد سيارة أجرة..

ورفع رأسه الثقيل إليها وقال كأنه اكتشف شيئا جديدا فى نفسه :

– نعم أستطيع..

إنه لم يستأجر سيارة « تاكسى » أبدا فى حياته.. حتى بعد أن أصبح يحمل فى جيبه ما يكفى لدفع أجرها.. إن التعود على ما عاش فيه غلبه أن يتذكر ركوب سيارة أجرة وكأنه لا يدرى بعد وجودها..

ورغم ذلك فهو حتى فى هذه الليلة لم يحاول أن يركب سيارة أجرة وسار على قدميه مترنحا حتى وصل إلى بيت العائلة وألقى نفسه على فراشه مخمورا..

وقد استيقظ فى صباح اليوم التالى وهو يعيش فى انتظار لقاء منيرة.. ويقضى فراغه وهو يحاول أن يرسم لها لوحة ينقلها من خياله.. إلى أن دخل إليها فى الساعة الثامنة تماما.. وجذبته من يده وسارت به تحمل سمنتها وثقل خطواتها ولو أنه ثقل رشيق وأوقفته أمام لوحته معلقة على حائط غرفة استقبال جانبية.. وتقول ضاحكة :

– هل تعرف من رسم هذه اللوحة.. إنه فنان عظيم..

وأحس بفرحة وكأنه هو نفسه قد علق على حائط أحد القصور.. لقد وصل إلى أن أصبحت لوحاته كرسومات الفراعنة المعلقة على حوائط القبور.. ولكن القبور تكشف روعة الفن للأحياء.. ولا شك أن روائع فنه ستبقى دائما مقدمة للأحياء ما دامت معلقة فى قصر من قصور الأغنياء.. وطاف بعينيه على بقية حوائط البيت الزاهى زهوة القصور فلم يجد إلا لوحتين أخريين معلقتين على الحائط.. وهما مستوردتان من الخارج.. إن منيرة هانم لا تزال تعيش أيام أن كان الأغنياء لا يتباهون إلا بتعليق لوحات لرسامين أجانب.. وهو يعرف أن الأغنياء تطوروا وأصبحوا يعلقون لوحات لرسامين مصريين. ولكن منيرة لم تتطور إلا بعد أن التقت بلوحاته.. أو بعد أن سقطت عيناها عليه هو شخصيا..

واتسعت ابتسامة منيرة وقالت وهى تنهشه بعينيها :

– وقد أعددت لك مفاجأة..

ثم تركته واختفت داخل البيت وعادت تحمل لوحة أخرى وهى تصيح ضاحكة :

– حذر من رسم هذه اللوحة..

وأدارتها أمام عينيه.. إنها لوحته التى كان يعرضها فى دكان شارع طلعت حرب ولا تباع.. وقالت منيرة :

– إنك بعد أن حدثتنى عن هذه اللوحة ذهبت هذا الصباح إلى الدكان واشتريتها.. لا أريد أن تعرض نفسك على أحد غيرى..

وقال من خلال فرحته :

– كم دفعت ثمنا لها..

قالت بلا اهتمام :

– خمسين جنيها..

قال كأنه يعترض :

– ولكنك اشتريت اللوحة الأخرى بمائة.. وهذه اللوحة أكبر منها..

قالت كأنها تلومه لأنه يتحدث كأنه يتاجر معها :

– صاحب الدكان هو الذى حدد الثمن.. لعله لا يقدرك كما أقدرك أنا.. ولم أكن أستطيع أن أسمعه يطلب خمسين وأعطيه مائة.. رغم أن اللوحة تساوى عندى أكثر من ذلك بكثير..

وسكت.. المهم أن اللوحة قد بيعت.. يكفى أنها أصبحت تثير اهتمام شخصيه غنية فى منتهى الثراء.. ويجب أن يشكر منيرة.. أنها تطلق الحياة فى إنتاجه الفنى.. واقترب منها ومد ذراعيه ووضع كفيه على كتفيها قائلا :

– إن أغلى ما اكتسبته من هذه اللوحة أنها أصبحت لك.. وقالت منيرة وصوتها انتشى بالحيوية كأنه صوت فتاة مراهقة فى حالة حب :

– أنت الذى أصبحت لى..

ثم التصقت وشبت على قدميها.. وأخذت شفتيه بين شفتيها فى قبلة ليس فيها شىء من حنو الأم كما كانت قبلة الليلة السابقة.. وقد طالت القبلة حتى وجد نفسه راقدا فوقها على الأرض.. وجسده يعيش مع جسدها.. وهو لا يحس بشىء فيها كأنها عجوز.. ولا يحس من تحته بجسد سمين مفرط فى السمنة.. إنما يحس كأنه استولى على كنز غال.. فتنطلق متعته إلى آخرها.. وكلاهما مغمض العينين كأنهما يعيشان متعة الأحلام.. إلى أن فتحت عينيها.. وهدأت أنفاسها.. فجذبته إلى مائدة عريضة زاخرة بالأطباق والزجاجات.. كمائدة ليلة أمس.. كأنها كانت قد قررت ألا تشده إلى هذه المائدة إلا بعد أن يوفر لها متعتها حتى لا يتخمه الطعام وتهبط حيويته وتعجز عنه كما عجزت ليلة أمس.. حتى قبل أن يكف عن الأكل وجد شفتيها بين شفتيه ثم وجد جسده فوق جسدها ممدين على الأريكة.. وأغمضا العيون إلى أن عادا وفتحاها وعادت به إلى الأكل والشرب.. لعلها مصابة بالإفراط فى المتعة.. وشبابه قادر على إشباع إفراط العجوز..

وقال لها وهو منصرف عنها.. وفى لهجته رنة الرجل السيد :

– على أى حائط ستعلقين اللوحة الأخرى..

وقالت بسرعة :

– لن أعلقها الآن.. حتى لا يثير إعجابى بك أقاويل الناس..

وابتلع ريقه دون تعليق وقال وهو خارج :

– غدا.. فى الثامنة مساء..

وعاجلته قائلة :

– لا.. إنى فى الغد مرتبطة بدعوة فريق من الأصدقاء والصديقات.. ليكن لقاؤنا بعد غد.. فى الثامنة..

وسكت.. إنه يفاجأ بأوامر تقيد إرادته.. إنه لم يصل بعد إلى أن

يكون الرجل السيد.. ونزل السلم وهى تودعه بابتسامتها الحلوة الزاهية.

وقد قضى يومين لا يرى منيرة ويحاول أن يتفرغ لرسم لوحات جديدة.. ولكنه أحس كأنه يرسم لمنيرة لا انطلاقا مع ما يوحيه إليه فنه.. إن خطوطه تبدو كأنها خطوط معمارية يبنى بها قصرا.. وألوانه فى منتهى التنظيم تبدو كأنها ألوان عاقلة محترمة ليس فيها شىء من الجنون الذى يسجل عالما جديدا من الإبداع الفنى.. ولذلك وجد نفسه ينزع اللوحة التى رسمها ويمزقها.. وقضى ساعات يطوف فى الشوارع وذهب إلى دكان طلعت حرب ليأخذ الثمن الذى اشترت به منيرة لوحته..

وعندما التقى بها قال لها فى عصبية.

- إن الرجل صاحب الدكان لم يعطنى سوى ثلاثين جنيها من الخمسين التى اشتريت بها لوحتى.. واحتجز لنفسه عشرين جنيها.. إنه أكثر جشعا من أصحاب المطعم الذى اشتريت منه لوحتى التى كانت تعرض فيه.. إنهم لم يأخذوا من المائة جنيه سوى عشرة..

وقالت منيرة وهى تمسح على خده بكفها تخفف عنه سخطه :

- عندى فكرة.. اجمع لوحاتك وسلمها لى وسأتولى أنا بيعها..

وقال فى فرحة :

- متى ستقيمين معرضا للوحاتى..

وقالت برفق :

- لا.. إنى لو أقمت معرضا فيجب أن أعرض فيه لوحات لرسامين آخرين.. وأنا لم يعد يهمنى أى رسام وليس فى حياتى إلا أنت.. ثم إن الناس لن يلبثوا أن يعلموا أنى أنا التى أقمت المعرض فتبدأ الأقاويل.. وأنا حريصة على أن يبقى ارتباطى بك سرا بيننا.. وأؤكد لك أن المعارض ليست أوسع الأسواق لبيع اللوحات.. إن الاتصالات الشخصية يمكن أن تحقق أكثر.. وأنا لى طريقتى الخاصة

التى أضمن بها بيع كل لوحاتك..

ووافق بسرعة.. إنه يعرف أن بعض نساء الطبقة العالية أصبحن يجمعن الفنانين حولهن وافتتحن محال لبيع القطع الفنية والتحف واللوحات.. وستبيع منيرة له وحده.. ومد شفتيه تنطلقان بالشكر إلى شفتيها النهمتين..

وحمل لها فى الليلة التالية كل لوحاته.. كل ما رسمه خلال سنتين.. ولا يدرى أين خبأتها.. والليالى مستمرة بينهما سواء ليلة بعد ليلة أو ليلة بعد ليال.. إلى أن قالت له بعد أسبوعين إنها باعت لوحة من لوحاته.. وباعتها بمائة جنيه.. إنه نفس الثمن الذى اشترت به لوحته التى كانت أول لوحة يبيعها.. وقال لها :

– لعلى كنت أجاملك بقبول هذا المبلغ.. فلوحاتى تستحق ثمنا أكبر..

وقالت وهى تنظر إليه نظرة ساخرة :

– سأراعى هذا عندما أبيع اللوحة التالية..

وقد جاءت له بمائة وخمسين جنيها ثمنا لما باعت به اللوحة التالية وكل بضعة أسابيع تبيع وتدفع له.. ولكن المهم أنها لم تقدمه هو شخصيا إلى أى مشتر لأى لوحة.. وتقول له أسماء قد يكون قد سمع عن بعضها ولكنه لا يعرف صاحب أى اسم منها.. إن كل صورة تبيعها يحس كأنه فقدها إلى الأبد.. وليست هذه طبيعة الفنان المعتز بإنتاجه.. إنه يصمم على أن يعرف أين وضع كل قطعة من إنتاجه حتى لو كان قد باعها.. ثم أن منيرة لم تحاول أبدا أن تقدمه إلى أى واحد من أصدقائها وصديقاتها.. ولا تدعوه إلى أى حفل تقيمه وهو يعلم أنها تقيم كثيرا من الدعوات.. وإن كان أحيانا يذهب إلى موعد تحدده له فيفاجأ بوجود صديقة لها جاءت صدفة.. وتستقبله منيرة فى برود وتجاهل كأنه جاء كمجرد شحاذ وتجلسه بعيدا حتى لا يشترك فى أى حديث بينه وبين صديقتها.. وهذه الصديقة نفسها لا تلبث أن تنصرف بعد دخوله.. كأن هناك اتفاقا

بين كل النساء على أن يكون الرجل الواحد لامرأة واحدة.. وهو يعيش كأنه لم يعد يعيش إلا فى عالم ليس فيه إلا منيرة وحدها.. ولكن المهم أين تذهب لوحاته..

وقالت له فى إحدى الليالى إنها باعت لوحة.. وسألها وهو يطوى أصابعه على الثمن الذى باعت به :

– من اشتراها.. ؟

واهتزت شفتها ترددا ثم قالت :

– اشترتها صديقتى ثريا هانم..

وسكت.. وتذكر أنه سبق أن التقى بهذه الثريا هانم فى أحد لقاءات الصدفة.. وعرف اسم زوجها ولكنه لم يعلق بشىء.. وقضى الليلة يقوم بمسئوليته عن إشباع نهم منيرة.. وفى اليوم التالى بحث عن عنوان ثريا وذهب إليها.. وقال وهى تستقبله فى دهشة :

– أنا مصطفى بركات.. الرسام.. وقد عرفت أنك اشتريت إحدى لوحاتى من السيدة منيرة هانم.. وأريد أن أرى هذه اللوحة وأقترضها بضعة أيام فقد أقمت معرضا أريد أن أعرضها فيه..

وقالت ثريا من خلال دهشة المفاجأة :

– أنا لم أشتر اللوحة ولكن منيرة هانم أهدتها إلى.. إنها معروفة بكرمها على الجميع..

وابتلع مصطفى ريقه وكأنه يبتلع سكينا يمزق حلقه.. وقال كأنه يزهق أنفاسه :

– أريد أن تجودى علىّ بها بضعة أيام..

وقالت ثريا فى ضيق كأن لا ذنب لها فى أن تكلف بأداء خدمة :

– لا أدرى أين وضعتها منذ جاءتنى منذ أيام.. انتظر سأبحث عنها..

ولم تدعه إلى داخل الشقة ليجلس على أحد المقاعد بل تركته واقفا بجوار الباب ودخلت تبحث عن اللوحة.. ومصطفى يقول

لنفسه فى مرارة.. لعلها تجدها فى صفيحة الزبالة.. وعادت إليه بعد فترة كأنها استمرت تبحث طويلا.. وهى تحمل اللوحة فى منتهى الإهمال.. وناولتها له دون أن تنظر فيها.. قائلة :

– أهذه الصورة هى ما تريد..

وألقى مصطفى لمحة على الصورة وقال :

– شكرا..

ولم تسأله ثريا متى يعيدها إليها أو أين يقيم معرضه بل وضعت يدها على ضلفة الباب لتغلقه وهى تقول له :

– مع السلامة :

ولم تكن تهمه السلامة.. لقد خرج إلى الشارع وثورته تشعل النار فى كل أحاسيسه.. إن منيرة لم تكن تبيع لوحاته.. إنها تفرقها بلا ثمن على صديقاتها.. ولعلها لا تزال محتفظة بمعظمها فى المخبأ الذى أقامته لها.. وعندما تدعى بيعها وتدفع له الثمن فهى تدفعه من أموالها هى.. وهى لاتدفع ثمنا للوحته بل تدفع ثمنا لليال يقضيها معها ثمنا لاستنزاف قواه فى تحقيق متعة امرأة.. أى أنه هو الذى يبيع لوحاته.. ولا يبيعها بقيمتها الفنية بل يبيعها فى سوق الدعارة بقيمة قدرة شبابه على إشباع عهر امرأة.. ولم يكن له فى هذه السوق إلا امرأة واحدة.. منيرة.. ليس له جمهور حتى فى سوق الدعارة.. وربما لن يجد للوحاته جمهورا لو خرج بها عن هذه السوق.. لن يجد مليما واحدا يبيع به لوحة.. وخيل إليه وهو يخطو بثورته أن كل خطوط وألوان لوحاته مرسومة بلعاب شبابه الذى كانت تستنزفه منيرة.. وقد أفرطت فى استنزافه حتى كأنها أنهكته وأضعفته وكان قد بدأ يعجز فعلا عن إشباعها ويهرب من جسدها فى كثير من ليالى اللقاء. وكلما طالت فترة عجزه تباعدت الفترات التى تعطيه فيها الجنيهات مدعية أنها باعت لوحة.. إنها لا تبيع أو لا تشترى منه إلا إذا أشبع جسدها..

ووجد خطواته الثائرة تقوده إلى بيتها..

واستقبلته منيرة فى دهشة غاضبة وصاحت فى وجهه :

– لماذا جئت.. ليس بيننا موعد..

وصاح وهو يقترب منها كأنه يهم بأن يضربها :

– لن يكون بيننا موعد بعد اليوم.. لقد اكتشفت أنك لا تبيعين شيئا من لوحاتى..

وقالت وهى تنظر فى عينيه كأنها أقوى منه :

– لماذا تحاول أن تكتشف ما دمت تقبض الثمن..

وصاح :

– إنك لم تدفعى لى ثمنا للوحة.. ولكنك كنت تدفعين رشوة نظير استنزاف شبابى..

وقالت كأنها تنهره :

– لقد كنت أعطيك كما تعطينى..

وقال كأنه يبصق كلماته :

– لم أكن أريد إلا أن تعطينى جمهورا يتعلق بفنى.. بل إنك أنت نفسك لم تكونى بالنسبة لى إلا بداية لأصل إلى هذا الجمهور.. فإلى أين وصلت بى.. وصلت إلى جسدك ووصلت بلوحاتى إلى صناديق الزبالة..

ورفع اللوحة التى عاد بها من عند ثريا هانم وألقى بها فى وجه منيرة هانم.. قائلا :

– هذه لوحة قمت بإهدائها إلى أحد صناديق الزبالة..

وتنحت منيرة عن أن تصيبها اللوحة التى يقذف بها.. وقالت وهى تبتعد عنه أكثر :

– من الأفضل أن أعيد إليك كل لوحاتك حتى تختار أنت صندوق الزبالة الذى تستحقه..

واتجهت مسرعة إلى داخل البيت وعادت والخادم وراءها يحمل

كل لوحـاته.. وفـتحت الـباب وأشـارت للخـادم أن يلقى باللوحـات خارجه والتفتت إلى مصطفى وقالت فى صوت جاف :

– كما قلت.. لم يعد بيننا موعد لقاء وأنا لا أستقبل أحدا فى بيتى بلا موعد.. حتى أنت..

وقال وهو ينظر إليها فى ازدراء :

– إنى على موعد للبحث عن جمـهور يعترف ويصب إعجابه على فنى لا على جسدى.. لقد قررت أن أتحرر من امرأة ابتلعتنى وربطت جسدى فوق جسدها حتى أنطلق إلى الجمهور..

وقـذفت بضلفة البـاب وراءه فأغـلق فى عنف.. وأخذ يجـمع فى لوحاته.. إنها كلها كاملة العـدد وكأن منيرة لم تتخلص إلا من لوحة واحدة.. وجمع هذه اللوحات فى سيارة أجرة وعاد بها إلى البيت..

وطوال الطريق يقلب فى لوحة بعد لوحـة.. كلها انطلاقات جديدة عجـيبة فى فن الرسم.. حـتى يذهل الناس بهذا العـجب ويتهافـتون عليه..

وقضى يومين فى البـيت وهو تائه مع أفكاره.. وفكره يحمله إلى ذكريات أيامـه مع منيرة ثم تعـود وتنطلق بحثا عـن الطريق الجديد الذى يبدأه.. وكلما أمـسك بالفرشاة ليرسم ارتعـشت الفرشاة فى يده.. وكلمـا غمس أصـابعه فى قطعـة من الطين ليـصنع تمثالا ارتعـشت أصابعه.. وفى اليوم الثالث وجد نفسه يذهب إلى حى الحسين لاجئا إلى وكـر الوطاويط.. وكانت قـد مضت عـليه أيام طويلة لم يحـاول فيها أن يذهب إلى الوكر.. لعله كان قد نساه.. وقد اشترى فى طريقه كمية كبيرة من الكباب والكفتة.. لقد تركت أيام منيرة فى جيبه نقودا تكفى لشراء كل هذه الكمـية من الكباب والكفتة.. وهو يعلم التـقاليد المفروضة على الوكر.. من يريد أن يأكل داخل الوكر فلـيحمل معه ما يكفى من طعام لكل الجالسين فيه.. وإلا فليأكل وحده خارج الوكر..

ودخل مصطفى الحجرة باهتـة الضوء فى البيت المهدوم.. ووجد

بعض أفراد الشلة القديمة ولم يجد منهم البعض الآخر.. كما وجد بعض الوطاويط الذين لم يسبق أن رآهم فى الوكر.. ولم يحاول أن يلقى تحية ولكن الذين يعرفونه رفعوا إليه عيونهم فى دهشة.. إنهم يرونه مرتديا بنطلونا أنيقا منسقا فوق ساقيه.. وقميصا زاهيا.. وحذاء لامعا.. لم يروه من قبل بهذه الأبهة والشياكة.. لقد كان مثلهم يرتدى البهدلة.. وكان الباقون كلهم منطلقين أمام لوحاتهم يخطون الفن.. ولم يشعروا به.. ولكنه عندما ألقى بلفافات الكباب والكفتة وأرغفة العيش وعلب الطحينة على الأرض كما هى العادة.. تسبب فى ضجة كأنه ألقى بقنبلة.. والتفت الجميع إلى الكباب والكفتة فى ذهول.. وصاح أحدهم :

هذا منظر طبيعى لم نمر به من قبل :

وامتدت الأصابع فورا لاختطاف الكباب والكفتة والتهامها.. وقال أحدهم ضاحكا :

مرة واحد أدمن أكل الكباب حتى ظهرت الكفتة فى دماغه..

وعلق آخر وهو يضحك :

وأسموه الأستاذ كبافتا.. بعد أن أصبح يحمل شعار الكباب والكفتة..

وتوالت النكات حتى أتوا على ما أمامهم مما يؤكل وعادوا إلى لوحاتهم.. ولم يهتم مصطفى بكل هذا الضجيج الذى أثاره بالكباب والكفتة.. وانزوى فى ركن من الحجرة الباهتة وهو يحس كأنه يستعيد القدرة على الحلم بالفن.. ثم وجد نفسه يفتح الورقة العريضة التى يحملها ويخرج فرشاته من جيبه ويفتح صندوق الألوان ويبدأ فى الرسم.. إنه فعلا يحس بانطلاق لا حدود له..

وأصبح يعيش كل أيامه فى وكر الوطاويط.. ويحمل إليه كل يوم لفافة من الكباب والكفتة.. إنه يعلم أنه طعام لطبقة يشترط فيها الثراء وكل الوطاويط لا يعيشون هذه الطبقة.. ومن يصل إليهم منها

يهجر الوكر إلى دنيا الطبقة الأخرى.. طبقة الكباب والكفتة.. وهو قد مرت به فترة وصل خلالها إلى هذه الطبقة بالثراء الذى وفرته له منيرة.. وأيامها ابتعد هو الآخر عن وكر الوطاويط.. ولكنه لا يزال فى جيبه بقايا من الثراء.. ويجب أن يشرك الوطاويط فى الثراء وينعمون بأكل الكباب والكفتة.. إنه فنان وهم فنانون.. إنه لا يجود عليهم ولكنه يجود على الفن..

إلى أن بدأ يعانى من فراغ جيوبه.. وبدأ يذهب إلى الوكر وهو لا يحمل إلا لفافات صغيرة تحمل الجبن أو الكشرى أو أعواد الفجل.. وقد تمر أيام وهو لا يحمل إليهم شيئا.. يعيش هو الآخر على جود القادمين لو كان بينهم من يحمل شيئا.. ولا أحد يسأله شيئا.. كل شىء يمر بهم كأنه من طبيعة الحياة.. وكأنهم يفهمونه ويقدرونه دون سؤال..

إلى أن بدأ يحس بحاجته إلى الكسب.. لقد عاد يعيش اعتمادا على ما ينفقه أبوه.. وهو ينفق عليه ويزدريه ويسخط على حظه فى ابنه.. وقد حاول أن يبيع إحدى لوحاته أو أحد التماثيل الصغيرة التى يشكلها.. ولكنه لا يبيع.. وسمع أن الفنان المعروف مجيب شكرى قد افتتح مصنعا كبيرا لتشكيل الأدوات والتحف المنزلية.. كالطقاطيق.. والمزاهير.. والأباجورات.. لقد كان مجيب فنانا رائعا فى رسم اللوحات وإقامة التماثيل ولكنه ترك كل ذلك وتفرغ لهذا المصنع الذى أقامه.. لقد أراد أن يكسب أكثر فتغلبت عليه الواقعية.. أى الواقعية التى تفرض عليه أن يستسلم لما يريده الجمهور ولا يحاول أن يفرض عليه ما يريده..

ورحب به الفنان مجيب شكرى فى مصنعه.. وحدد له فورا مرتبا يغريه.. ليس مرتبا كبيرا لكنه يسد حاجته.. ومنذ اليوم الأول بدأ يحس بالضيق.. إن كل عمله منحصر فى صب قوالب مرسومة لا تحمل أى شىء يعبر عن صفته وانطلاقاته الفنية.. كأنه مجرد آلة

ميكانيكية ليس لها عقل ولا روح.. ورغم ذلك تحمل العمل فى المصنع شهرا أو شهرين إلى أن فاض به الضيق ولم يعد يذهب إلى المصنع.. لم يقدم استقالته ولكنه فقط لم يعد يذهب.. ويقضى أيامه يرسم وينحت..

وأحيانا كانت تراوده ذكرى منيرة.. لعله لو عاد إليها لاستطاع أن يقنعها بأن تسير به فى طريق جديد يصل به إلى معرفة أهل الثراء بأشخاصهم حتى يقنعهم بفنه.. ولكنه لا يريد أن يلقى بنفسه على منيرة حتى لا تحس به كمجرد شحاذ.. أين يستطيع أن يلتقى بها لقاء صدفة.. إنه يعرف أنها تتناول الغداء عادة فى هذا المطعم الراقى الذى التقى بها فيه لأول مرة.. وفى مدخل هذا المطعم الآن معرض آخر للوحات بعض الفنانين ليس هو من بينهم.. وذهب إلى المطعم كأنه مجرد مشاهد للمعرض.. ذهب مرة.. ومرتين.. وثلاثا.. وفى المرة الرابعة رآها داخلة إلى المطعم.. وقد رأته.. لا شك أنها رأته.. عيناه التقت بعينيها.. ولكنها لم تتوقف حتى لتشاهد بعض اللوحات المعروضة.. ودخلت مع من تصحبهم من صديقات إلى المطعم.. ألح على نفسه أن ينتظرها حتى يلتقى بها وهى خارجة بعد أن تنتهى من تناول الغداء.. وانتظر طويلا.. وخرجت.. ولم تحاول حتى أن تدير رأسها إليه لتراه.. هل يجرى وراءها ويجبرها على أن تبادله ولو كلمة واحدة.. إنها بوقاحتها قد تدعى أنها لاتعرفه.. وقد تنهره أو تصفعه.. إن وقاحتها بلا حدود.. ولعلها الآن قد قررت طرده من حياتها.. ولا تقبله حتى كمجرد صديق.. ولم تعد تحس أنه كان له أى وجود فى حياتها وأن من حقه الاستمرار بهذا الوجود.. لعل الوجود قد أصبح لفنان آخر.. لا يهم أن يكون فنانا ولكن لا شك أنه شاب له القدرة على إمتاعها بلياليها..

وابتعد عن المطعم مستسلما لهزيمته..

واستمر يبحث عن كسبه.. لابد أن هناك طريقا لتحقيق كسب

الفنان.. إن كثيرا من الفنانين يكسبون من الاتجار بفنهم.. وهو يريد أن يتاجر لا بالاستسلام لفن مفروض عليه.. بل يتاجر بالفن الذى ينطلق من عبقريته كفنان..

ولكن أين صديقه الفنان رؤوف.. لقد كان أقرب أصدقائه.. وكان هو الذى أخذه إلى وكر الوطاويط.. ولكن رؤوف لم يعد يظهر فى الوكر.. وقد سمع أنه أصبح يمارس فنه فى إحدى المجلات الأسبوعية.. وذهب إليه.. ودار الحديث كأن كلا منهما يبكى للآخر.. ومن خلال البكاء بدأ رؤوف يشده إلى عالم آخر ويشده إلى مرحلة جديدة من مراحل عمر الفنان مصطفى بركات.

وقال مصطفى بركات لصديقه رؤوف وهما يتبادلان النواح كل منهما على نفسه :

– لماذا ابتعدت عن وكر الوطاويط ؟

وقال رؤوف ساخرا من نفسه :

– لأنى تزوجت..

واتسعت عينا مصطفى من الدهشة وعاد يسأله :

– ولماذا قبلت أن تكون موظفا فى هذه المجلة الأسبوعية.. وهو عكس ما كنت تؤمن به من أن الفنان يجب أن يكون حرا.. لا يسعى إلى الجمهور ولكنه يفرض على الجمهور أن يسعى إليه..

وعاد رؤوف يقول بنفس اللهجة الساخرة :

– لأنى تزوجت..

وصاح مصطفى فى وجهه :

– ما دخل الزواج فى تغيير حالك.. إن المرأة التى تزوجتها كانت تعلم أنك فنان وكان يجب أن تفرض عليها حالك كفنان.. وأن تقبل أن تعيش معك هذه الحالة..

وقال رؤوف كأنه ينوح :

– لا.. إنك عندما تتزوج فكأنك تقيم لنفسك مستشفى خاصا بك..

وقد كنت أحس كأنى مريض بمرض عاطفى يسمونه الحب.. وكان مرضا أقوى من قدرتى على الاحتفاظ بحريتى فقررت أن أقيم مستشفى لنفسى.. وتزوجت.. والمستشفى فى حاجة إلى دخل مستقر ثابت يوفر له القدرة على علاج المرضى.. لذلك سعيت حتى أصبحت موظفا فى هذه المجلة لأضمن مرتبا ثابتا.. ولم أحس أنى أعطى فنى فى هذه الوظيفة.. بل أصبحت أحس كأنى أعطى حريتى كفنان.. حتى أنه لم يعد من حقى أن أعيش فى وكر الوطاويط الذى كان يلهمنى الانطلاق الفنى.. وأنا مازلت مريضا بالحب.. ولا أستطيع أن أغلق المستشفى وأهرب منه.. وكل ما أتمناه لك هو ألا تصاب أنت الآخر بمرض يفرض عليك إقامة مستشفى تعيش فيه بدل أن تعيش فنك وحده..

وقال مصطفى كأنه يعانى ذكرياته :

– لقد عشت أنا الآخر فترة من حياتى فى مستشفى لم أقمه أنا ولكن أقامته لى امرأة.. كانت تعالج نفسها ولا تعالجنى.. وقد عشت فيه دون أن أفقد إلحاح حريتى الفنية.. لذلك استطعت أن أهرب من هذه المرأة وهذا المستشفى الذى أقامته لى..

وقال رؤوف فى إشفاق على صديقه :

– ولكنك مريض مرضا آخر لا يدفعك إلى الزواج.. إنك مريض بالفقر.. مريض بعجزك عن امداد نفسك بمتطلبات الحياة وإمداد فنك بما يوفر له القدرة على أن يعيش.. وهو أيضا مرض فى حاجة إلى نوع آخر من المستشفيات..

وقال مصطفى كأنه لا يصدق :

– أى نوع هذا..

وقال رؤوف :

– إنه مستشفى الوظائف الحكومية.. وأنا موظف فى مجلة حكومية.. أى أنى موظف حكومى.. وسأبدأ فى السعى حتى تدخل

معى هذا المستشفى وتصبح موظفا فيه مثلى..

وصاح مصطفى :

– مستحيل.. إنى أصاب بمرض أخطر وأشنع إذا دخلت أحد هذه المستشفيات.. أصاب بمرض فقدان حريتى.. حرية الفنان..

وقال رؤوف فى هدوء المشفق :

– كن واقعيا.. إنك لو قبلت أن تكون موظفا فى إحدى المؤسسات الخاصة فإنك تكون مكلفا بأن تحصر نفسك داخل وظيفتك.. وصاحب المؤسسة الخاصة يحاسبك على كل ما تعطيه له من حريتك قبل أن يدفع لك أجرك.. أما إذا كانت وظيفة حكومية فإن الحكومة لا تحاسبك على ما تعطيه.. ولا تتدخل فى حريتك مهما ابتعدت بها عن الوظيفة.. يكفى أن توقع أوراقا روتينية تثبت أنك موظف حتى تقبض مرتبا كل شهر.. إنها وظيفة لا تكلفك إلا ساعة واحدة من يومك توقع فيها أوراق حضورك ثم تتفرغ بقية الساعات لإنتاجك الفنى الحر.. وهذا ما أعيشه أنا.. وإن كنت أعترف بأنى أصبحت فنانا هزيلا.. وهو هزال لن يصيبك لأنك لا تعيش فى مستشفى كالذى أعيش فيه.. مستشفى الزواج..

وسكت مصطفى برهة ويبدو كأنه بدأ يقتنع وقال وكأنه لا يزال مترددا :

– ربما كنت على حق.. كيف نبدأ..

وقال رؤوف فى حماس :

– سأقدمك إلى رئيس التحرير وهو أيضا رئيس مجلس الإدارة.. وهو معروف أنه يقدر ويهوى فن الرسم.. ويتعمد أن يرفع الكلفة بينه وبين الرسامين.. ولو أنه يقدر مسؤلياته كموظف حكومى كبير قبل أن يترك لنفسه تقدير الفن والفنانين.. وعليك أن تعد بعض الرسومات لتعرضها عليه حتى يعرفك كفنان..

وقضى مصطفى أياما يعد مجموعة من الرسومات على لوحات

صغيرة.. إلى أن صحبه رؤوف إلى رئيس التحرير وهو فرح.. لقد قال له رئيس التحرير إن المجلة فى حاجة فعلا إلى رسام جديد.. وهى تفخر بأنها قدمت إلى الشعب الكثيرين من الأسماء التى أصبحت لامعة فى فن الرسم..

وأخذ رئيس التحرير يقلب فى الرسومات التى قدمها إليه مصطفى إلى أن قال :

– لن يفهم القراء من هذه الرسومات شيئا.. إنها خطوط متداخلة بلا معنى..

وقال مصطفى فى حدة كأنه يطلق شعارا يؤمن به ويدافع عن نفسه :

– لا يهم ما يفهمه القارىء أو المتفرج.. إن مهمة الرسام هى أن يرفع المتفرج إلى الإحساس بالمعاناة حتى يفهم.. وكل الرسامين العالميين لم يفهم العالم رسوماتهم وأهملوا الفرجة عليها إلى أن انقضت سنوات طويلة حتى تطور المتفرج بعقليته وإحساسه الفنى وارتفع إلى مستوى الفنان وبدأ يفهمه ويجرى وراءه ليتذوق فنه كأنه يشبع نفسه فنيا.. إن الفن دعوة إلى عالم جديد ليس مجرد محاولة لتسلية المتفرج بما يريد أن يتسلى به أو تسجيل الواقع الذى يحيط به..

ورئيس التحرير ينظر إليه بدهشة من جرأته على الرد عليه.. ومع دهشته ابتسامة روتينية مرة كأنه يشفق على هذا الرسام الغلبان ثم قاطعه قائلا :

– هل عرضت رسوماتك فى أى جريدة أخرى..

وقال مصطفى كأنه يتأفف :

– لا..

وقال رئيس التحرير وهو يضحك ضحكة مفتعلة :

– هل سبق أن اعتقلت..

وقال مصطفى كأنه يدافع عن نفسه :

- لا.. ولم يكن لى فى أى يوم من أيامى أى نشاط سياسى.. إنى لا أعيش إلا لفنى..

وقال رئيس التحرير وهو يقف كأنه يهم بطرده هو ورؤوف :

- تستطيع أن ترسم لنا وسنبدأ فى النشر لك.. ونعطيك ما يسمى مكافأة بالقطعة.. إلى أن نتمكن من تعيينك..

وشده رؤوف خارجا وهو يردد كلمات الشكر نيابة عن مصطفى وبدأ مصطفى فعلا فى تقديم رسوماته إلى المجلة ولا ينشرون منها إلا نادرا.. ورئيس التحرير لا يعينه كموظف بمرتب.. لعله لا يزال يستأذن وزارة الداخلية أو الجهات المسئولة.. إلى أن مرت أربعة شهور عين بعدها بمرتب أربعين جنيها فى الشهر.. لقد كان مرتبه وهو موظف عند منيرة هانم أكبر..

وبدأ مصطفى يضيق بمجرد انتمائه إلى هذه المجلة الأسبوعية.. إنه محروم من الانطلاق كأنه يعيش مخنوقا.. وسكرتير التحرير يناوله أوراق قصة كتبها أحد الأدباء ويطلب منه أن يرسم لها صورة تعبر عن موضوعها وتنشر معها.. وقد لا يقتنع بهذه القصة بعد قراءتها.. لا يجد فيها ما يدفعه ليحرك أصابعه بأى رسم.. ويحس أنه يشخبط أى خطوط ليقدمها إلى سكرتير التحرير.. ولكن سكرتير التحرير ينظر إلى رسمه متأففا ولا ينشره ثم يعطى القصة لرسام آخر ليرسم موضوعها.. وكذلك بالنسبة لبقية المواد المكتوبة التى يقدمونها له ليرسم لها ما يعبر عنها.. لاشىء يحرك حاسته الفنية ويدفعه إلى أن يرسم حتى أصبح هو نفسه يعتذر عن نشر أغلب ما يقدم له ليرسمه.. إنه لايستطيع أن يعبر عن خيال شخص آخر من كتاب القصص والموضوعات الصحفية.. يريد أن يتفرغ للتعبير عن انطلاق خياله هو.. التعبير عن نفسه.. ولكنهم يرفضون منحه أى صفحة ينشر عليها فنه وخلال عام كامل لم تنشر له المجلة إلا

رسمين لموضوعين كلف برسمهما.. ورغم ذلك فقد فوجىء فى نهاية العام بمنحه علاوة على مرتبه.. إنها علاوة شملت مرتبات كل العاملين فى الصحيفة الحكومية.. والحكومة لا تحاسب أحدا على عمله وهى صادقة فى حرصها على تطبيق روتين العلاوات..

وطوال هذا العام كانت تنتابه نوبات تلح عليه أن يترك العمل فى هذه الصحيفة ويعود متفرغا لبناء الفنان الكامن فيه.. ويحاول فرض إنتاجه على الجمهور.. بل إنه حاول أن يعيش كما صور له صديقه رؤوف حياة العمل فى هذه الصحيفة.. أى أن يتردد على مقر العمل لمجرد إثبات وجوده ويقضى هناك ساعة ثم يتفرغ بقية ساعات يومه للانطلاق بفنه الخاص بعيدا عن مسئوليته كموظف.. ولكن هناك ما يشده إلى هذه الصحيفة ويربطه بها ولا يستطيع أن يتفرغ لنفسه.. إنه مثل المجتمع الذى يعيش فيه داخل الصحيفة.. إنه مجتمع يضم كل الألوان وكل الاتجاهات وكل الانطلاقات.. كلهم ساخطون على كل شىء.. والفرق بينهم أن بعضهم يستطيع أن يخضع انطلاقه لمطالب الدوائر الحكومية التى تحقق مصالحه.. والبعض الآخر يتشبث بانطلاقه حتى لو ثار على التقاليد الحكومية.. وقد أحس وهو فى داخل هذا المجتمع أنه يكتشف عالما جديدا لم يعش منذ ولد.. عالم يعيش معركة بين القذارة والنظافة.. والقذارة تنتصر دائما ولكن النظافة لا تزال مستمرة فى الحرب.. وهو يحاول أن يكتشف سر القوة القذرة.. وسر القوة النظيفة.. إنه لا يكفى أن تكون قذرا أو نظيفا ولكن لا بد أن تعتمد على ما يفرضك قذرا أو نظيفا.. وهو يتعمد فى البحث عن الأسرار دون أن يتعمد أن يكون قذرا أو نظيفا.. ولكنه يستوعب الفرجة على الحياة فى صور لم يرها من قبل.. وهذا التعمق فى البحث أخذه بعيدا عن فنه.. لم يعد يوالى الرسم والنحت.. ولم يعد يلجأ إلى وكر الوطاويط ليلتقى هناك بذاته الفنية.. إنه يقضى كل ساعاته فى هذا المجتمع الجديد عليه ليستمع إلى

مناقشات لا تكف ولا تنتهى أبدا.. إنها مناقشات تعبر عن اتجاهات متناقضة.. اتجاهات سياسية واجتماعية وحتى اتجاهات أخلاقية.. وأفراد كل اتجاه عرفوا عنه أنه لا يزال بكرا فيحاولون شده إلي اتجاههم .. ولكنه لا يريد إلا الفرجة والاستماع.. لا يجد فى نفسه حافزا ليتحيز يساريا أو يمينيا.. ولا يجد ما يدفعه لأن يتطرف دينيا أو ينطلق انحلاليا.. إنه كما هو.. يكفيه أن يسمع ويرى.. كأنه تلميذ فى مدرسة.. أو مجرد متفرج جالس فى مسرح من مسارح الحياة.. يتفرج دون أن يمثل أى دور..

وكان أكثر ما يريحه فى هذا المجتمع أن يلتقى بهدى.. إنها رسامة أيضا وخريجة كلية الفنون مثله وإن كانت تصغره بحوالى عشر سنوات.. وهى ضاحكة غالبا وإن كانت تثور أحيانا ثورات عنيفة تقلص خطوط وجهها كأنها أصبحت خطوطا تطلق النار.. وكانت تتردد على الصحيفة وتلح على أن تعين فيها كرسامة.. وقد عرفها مصطفى فى الصالة الواسعة المخصصة لمكاتب الرسامين حيث كانت تنتهى جولتها بين المكاتب كل يوم.. وقد أحس كل منهما بالراحة إلى الآخر.. وتجلس بجانبه وهى تلهث كأن محاولتها لتحقيق أحلامها قد أنهكتها.. وتطلق لهثاتها من خلال ابتسامتها الساذجة ويقضيان ساعات فى كلام هادىء كأنه دموع تقطر بها شفاهما.. كل منهما يزفر متاعبه وأحلامه الضائعة.. وكان يسمع الكثير عنها من أفراد المجتمع الذى يحيط به.. ولكن هدى نفسها لم تكن تخفى عنه شيئا.. لقد قالت له إنها أصبحت تقابل رئيس التحرير.. ولكنه يصر على أن يغلق الباب وراءها بالمفتاح كلما دخلت عليه.. وسكرتير التحرير دعاها مرتين على العشاء فى أحد مطاعم الهرم.. ومندوب المجلة لدى الرئاسة دعاها مرة لتصحبه إلى الاسكندرية.. و..و.. كانت تروى له أحداث حياتها وتتركه يستنتج تفاصيل هذه الأحداث.. ولم يكن يهمه أو يؤثر فى إحساسه بهدى ما يمكن أن يستنتجه من تفاصيل.. إنها تفاصيل أصبحت طبيعية فى هذا المجتمع الذى يعيشه.. وهدى لا

تحاول أن تشده إلى أى من هذه التفاصيل.. وهو نفسه لا يطالبها بشىء.. ربما لأنه ليس فى مركز القادر على تعيينها كموظفة فى المجلة.. وهدى تقول وتكرر ساخطة.. إنهم كلهم كذابون.. يعدون ولا يحققون شيئا من وعودهم..

ووجد نفسه يعيش كله فى حلم جديد.. لقد عرف أن بعض الرسامين من موظفى المجلة قد سافروا إلى باريس.. بحجة استكمال الدراسة أو استيعاب التطورات الحديثة فى فن الرسم الذى ينشر فى الصحف.. سافروا على حساب المؤسسة الصحفية.. وبعضهم عاد إلى عمله وبعضهم لم يعد حتى اليوم.. إنه يريد أن يسافر هو الآخر إلى باريس ولم يكن يخطر له ما يمكن أن يفيد به المجلة التى يعمل فيها بسفره.. إنه يريد أن ينتقل إلى مجتمع آخر وشعب آخر قد يقدر فنه.. ويرفعه إلى مستوى الاعتراف به كفنان.. إنه هناك واثق من أنه يستطيع أن يعيش بفرض فنه.. إن فى باريس شعبا فنيا أصيلا.. يعيش الفن منذ القدم.. حتى أصبح فى حاجة إلى أن يشبع إحساسه بالفن كما يشبع جوعه بالأكل..

واستطاع أن يدخل إلى رئيس التحرير الذى هو رئيس مجلس الإدارة.. وقال له إنه فى حاجة إلى السفر إلى باريس ليستكمل وجوده كفنان..

وصاح رئيس التحرير ساخطا :

– يجب أن تثبت وجودك فى مصر قبل أن تستكمله فى باريس.. إنكم لا تسافرون إلى باريس إلا لتحقيق متعة اللهو والسياحة على حساب المؤسسة.. وأنا أرفض أن أعطى أى شىء للفاشلين.. يكفى أنكم تعيشون على حساب المؤسسة كأنها تكية تجمع الغلابة..

إنه يعلم أن رئيس التحرير لم يعترف به حتى اليوم كفنان.. ولم يشعره أبدا بالاعتماد عليه ولو بخط واحد ينشره له.. ورغم ذلك فمعظم الرسامين الذين سافروا إلى باريس على حساب المؤسسة لم

يكن واحد منهم قد أثبت وجوده الفني في مصر ولا أثبت هذا الوجود بعد أن عاد.. لقد سافر غيره إلى باريس لأن الرئيس كان راضيا عنه.. فكيف يصل إلى رضاء الرئيس حتى يسافر هو الآخر..

وحاول أن يكتسب رضاء الرئيس بتسليط زملائه الرسامين عليه.. ولكن لا أمل.. إنه حتى لا يستطيع أن يسافر على حسابه لا على حساب المؤسسة.. فإنه لكي يخرج من مصر يجب أن يقدم ورقة من المؤسسة بموافقتها على خروجه.. وهذا الرئيس لا يمكن أن يعطيه هذه الورقة.. لم يعد أمامه إلا أن يستقيل ويفر من هذه المؤسسة حتى يجد نفسه في باريس..

وقال له صديقه رؤوف كأنه يخفف عنه :

– إني أعرف مدير مكتب الوزير.. وقد يوفر لك السفر..

وقال مصطفى بدهشة :

– وما دخل الوزير في هذا الموضوع..

وقال رؤوف ساخرا منه :

– إنك ساذج.. لا تعلم شيئا عن الواقع.. إن مهمة رئيس مجلس الإدارة الأولى هي أن يخضع لأوامر الوزير.. كما أن مهمة الوزير هي أن يخضع لأوامر رئيس الدولة.. هذا هو الواقع الحكومي في مصر.. وسأقنع مدير مكتب الوزير بأنك مؤمن بما حققه الوزير من نهضة فنية شملت مصر كلها حتى أنك رسمت له لوحة رائعة تريد أن تعرضها عليه.. هل يمكن أن ترسم لوحة بورتريه للوزير..

وقضى مصطفى يومين وهو يرسم لوحة تبرز للوزير شخصية منتهى القوة ومنتهى الفن.. بل إن رؤوف نفسه عاونه في هذا الرسم.. وانضم إليهما صديقه وزميله الآخر الرسام سمير وأضاف ألوانا وخطوطا تبرز الروعة.. ثلاثة رسامين رسموا صورة الوزير..

واستطاع رؤوف أن يقنع مدير مكتب الوزير بتحديد موعد له يستطيع أن يقدم فيه لوحته.. وذهب مصطفى يحمل اللوحة.. وتقدم

اثنان من الحرس فى مكتب المدير وكشفا اللوحة وأخذا يقلبان فيها حتى تأكدا من أنها لا تحمل قنبلة.. ثم دخل مصطفى يحمل اللوحة إلى الوزير وهو يحس كأنه مقبوض عليه.. وبرقت عينا الوزير وهو يرى نفسه على اللوحة والألوان تنفخ فيه كل هذه العظمة.. وأصبح كأنه أصيب بالانتفاخ وهو فى جلسته على مقعده.. مقعد الوزير.. ولكنه ابتسم ابتسامة متواضعة كأنه يخفف من نفخته وقال لمصطفى :

– منذ متى وأنت ترسم ؟

وقال مصطفى وهو يكاد ينسى نفسه وجلس على المقعد المجاور دون إذن حتى يستريح من ثقل النفاق :

– منذ ولدت..

وقال الوزير كأنه خبير فى فن الرسم :

– يبدو أن خطوطك تتجه اتجاها فنيا جديدا له قيمته.. وأنا لم يسبق لى أن سمعت عنك.. أين تعمل وماذا تعمل..

وقال مصطفى وعيناه تحرصان على النفاق والتوسل :

– إنى أعمل فى مجلة « النور والأمل ».. ولكنه عمل لا يدفعنى إلى الانطلاق الفنى.. وهذه اللوحة التى رسمتها لسيادتك لم يدفعنى إليها عملى فى المجلة.. ولكن دفعنى إليها انبهارى بسيادتك والأمل الذى بذرته ليحقق به كل رسام أحلامه..

وقال الوزير وهو يبتسم له ابتسامة سلطان يراعى شعبه :

– وماذا يزودك بالانطلاق الفنى..

وقال مصطفى وهو أكثر توسلا :

– لن أنطلق إلا إذا أكملت استيعابى الفنى.. ولن أستكمله إلا فى باريس.. إنها عاصمة الفن.. ولكنى لا أستطيع حتى اليوم أن أسافر إلى باريس..

وقال الوزير كأنه يشمله بكرمه :

– ستسافر..

وصاح مصطفى طائرا بفرحته :

– كيف..

وعاد الوزير يقول فى هدوء :

– ستسافر..

وانسحب مصطفى من أمام الوزير وهو يصب عليه كلمات الشكر والإشادة بفضله على مصر.. كما أوصاه صديقه رؤوف.. وترك اللوحة كأنه يتخلص من عبء ثقيل كان يحمله.. عبء يشوه اعتزازه بنفسه كفنان حر..

وبعد يومين استدعاه رئيس مجلس الإدارة إلى مكتبه.. إنها أول مرة يستدعيه فيها منذ دخل المؤسسة.. ربما لم يكن يحس حتى بأنه موظف بين الموظفين.. وقال له وهو يستقبله بابتسامة عريضة :

– لم أكن أعرف أنك معروف فى دنيا الفن والرسم.. وإن كثيرا من الشخصيات المحترمة معجبة بك.. وقد أعدت النظر فى طلبك السفر إلى باريس.. وقررت أن أمنحك الفرصة فربما تعود إلينا بشىء جديد وتستطيع أن تبهر القراء وتصبح اسما من الأسماء المعروفة التى كان للمؤسسة فضل تقديمها إلى الشعب..

وقام مصطفى وهو يهم أن يقفز ويتنطط فرحا وعاجله الرئيس قائلا دون أن يستمع إلى صيحاته الشاكرة :

– سأرسلك إلى باريس لمدة شهرين.. وستدفع لك المؤسسة بدل السفر.. ولابد أن ترسل لنا من هناك لوحاتك التى توحى لك بها باريس..

– وصاح مصطفى :

– شكرا باريس :

وقال الرئيس ساخرا :

– طبعا ستسافر فى الصيف حتى لا تعرض نفسك لقشعريرة البرد..

وعاد مصطفى يصيح :

– لا.. أريد أن أسافر اليوم أو غدا حتى لو مت من برد باريس..

وقال الرئيس وهو يلوى شفتيه كأنه قرفان من اضطراره للاستسلام لهذا المخلوق :

– حاضر.. سأدعهم يستكملون إجراءات سفرك بسرعة.. مادمت تريد أن تموت من البرد..

ولعله كان يتمنى له أن يموت من البرد فعلا..

وقد استغرقت إجراءات السفر أياما طويلة.. وكان سيسافر مطمئنا على حالة عائلته.. إن والده قد مات.. وترك لأمه معاشا يسد حاجتها.. وأخته قد تزوجت ولم تعد فى حاجة لأن يتولى أمرها.. ثم أنه طلب من إدارة المجلة أن تسلم مرتبه خلال غيبته إلى زوج أخته.. لعلهم يحتاجون إليه.. وكان فى نفس الوقت يطوف على زملائه الذين سبق أن سافروا إلى باريس ويسألهم كيف يعيش هناك.. وما هو ما يمكن أن يخافه.. أنه لا يعرف أى شىء عن باريس.. ولم يكن من هواة القراءة والدراسة حتى يعرف أى شىء عن أى شىء فى الدنيا.. كانت كل حياته أمام لوحاته وفى يده فرشاته.. وأصابعه تنقش على الحجر.. وأحاديث طويلة تروى له عن شوارع باريس.. وعن المتاحف.. وعن بنات باريس.. وأين يستطيع أن يأكل ويدفع خمسين فرنكا.. وأين يأكل ولا يدفع أكثر من خمسة فرنكات.. وكيف يمكن أن يأكل ويفر قبل أن يدفع شيئا.. وكل واحد يعطيه عنوان فندق ليقيم فيه.. واسم وعنوان صديق يستطيع أن يلقاه هناك.. وهناك إجماع على أنك لا تستطيع أن تحس بباريس كلها بفرنسا كلها بل وبالعالم كله إلا إذا أقمت فى حى « الكارتية لاتان »..

وهو يجمع فى رأسه كل ما يسمعه ويسجله على الورق حتى لا

يضيع منه.. ويحمل بعض الخطابات التى يريد بعض زملائه أن يحملها ويسلمها هناك.. ورغم ذلك فهو يحس كأنه خائف من أن يتوه فى باريس ويضيع فيها.. إنها أول مرة يسافر وحده خارج مصر.. إلى أن قال له صديقه رؤوف وكأنه تذكر شيئا..

– سلم نفسك إلى الأستاذ محمود البيومى.. إنه يعرف باريس كأنها فى جيبه.. وسبق أن تحمل مسؤلية سفر بعض الزملاء إلى هناك.. وكثيرون ممن تحمل مسئوليتهم لم يعودوا..

ومحمود البيومى هو المسئول عن الصفحات السياسية فى المجلة.. وكان معروفا عنه أنه متعال على بقية زملائه.. ويتجاهلهم كلما مر بهم ويتعامل معهم بعنطظة كأنه يحتقرهم جميعا أو على الأقل يعتبر أن ليس بينهم من يستحق أن يكون صحفيا أو فنانا يخدم الصحافة.. كلهم فى نظره جهلة أغبياء.. وقيل عنه أنه أصبح واسع الثراء وأنه يقيم فى بيت فخم لا يدعو إليه أحدا من الزملاء ولكنه يقيم فيه ليالى لا يعرف أحد من يدعو إليها..

ولم يكن مصطفى يهمه كل ما يسمعه عن البيومى ولا يحاول أن يحكم عليه من قريب أو من بعيد.. إن عمله كرسام لا يجمعه به.. لذلك دخل عليه فى بساطة وقال بعد التحية :

– إنى مسافر إلى باريس..

وقال له بيومى فى لهجة احتقار :

– أعرف..

وقال مصطفى فى رجاء :

– إنى مسافر لأول مرة.. ولا أعرف كيف أعيش وحدى فى باريس.. وقد قيل لى إنك تعرف كل شىء عن باريس فى جيبك..

وقال البيومى وهو ينظر إلى مصطفى كأنه يثقب فى رأسه ثقوبا ليكتشف ما فيها :

– إنها فى جيبى فعلا.. وباريس ليست عاصمة لتدريس الفن أو

العلم ولكنها عاصمة لتدريس الحياة نفسها.. كيف تعيش الحياة وتستغلها لتحقيق قيمة نفسك.. واسمع.. إنى لم التق بك قبل اليوم.. ولكنى أعرف كل شيء عن كل من يعمل فى هذه الجريدة.. وما عرفته عنك وتأكدت منه هو أنك موظف ساذج.. فى منتهى السذاجة.. إنك تعيش كل يوم كأنك ولدت أمس.. لا تعرف شيئا عن الحياة.. وهذه السذاجة تجعلنى أشفق عليك.. لذلك سأعينك على الإقامة فى باريس. لا لتتعلم الفن ولكن لتتعلم الحياة..

وصاح مصطفى ضاحكا :

شكرا.. شكرا.. إن سذاجتى تعتبر نعمة بما أنها تدفعك إلى الإشفاق على ومعاونتى.. ولم يهتم البيومى بما يقوله واستطرد كأنه لم يسمعه لأنه لا يمكن أن يقول شيئا يستحق السماع :

– سأقدمك لصديقى أنطون الصباغ.. إنه رئيس تحرير مجلة الحرية التى تصدر باللغة العربية فى باريس.. سلم نفسك إليه.. واسمع كلامه وأطعه.. لتعيش معه على قمة باريس.. وسأكتب له خطابا تحمله إليه وسأقول له فيه إنك مازلت ساذجا.. وعندما أتلقى مكالمته التليفونية من باريس سأفسر له مدى سذاجتك حتى يستطيع أن يتعامل معك.. إن التعامل مع السذج يحتاج إلى مجهود متعب.. ولعله يستطيع أن يبذل هذا المجهود حتى تتعلم منه فن الحياة..

ولم يحاول مصطفى أن يناقش البيومى ليعرف هذه الحياة التى يريده أن يتعلمها.. ولا كيف يتعلمها.. يكفيه أنه حصل على سند آخر يعينه على اكتشاف باريس.. وانطلق فى استكمال ما يحتاج إليه.. وهدى تبذل معه كل جهدها كأنها مسافرة معه.. إنها تجمع له معلومات أكثر عن باريس.. ومزيدا من العناوين لما قد يحتاج إليه.. وتلم له منشورات عن معارض أقيمت هناك تحمل صور لوحات وأسماء الفنانين الذين اشتركوا فيها.. ولا حديث بينهما كلما جلست بجانبه لترتاح إلا عن باريس.. وتبدو فرحة له لأنه يحقق حلما من

أحلامه.. ولكن تنتابها أحيانا نوبات حزينة وهى تنظر إليه كأنها تهم بأن تبكى.. وقالت فى نهدة تعتصرها :

– لا أدرى من أجده لأجلس إليه وأرتاح بعد أن تغيب..

وقال وهو ينظر إليها بعينين مستغيثتين بها :

– إنى أحيانا أشط بأحلامى حتى أتصور أنك معى حتى فى باريس.. لقد عشت حياتى كلها وأنا وحيد حتى وسط الضجيج.. ولا أشعر أنى لست وحدى إلا فى لحظات تجمعنى بك.. وفى باريس لن أجد حتى هذه اللحظات..

وقالت وهى تضحك ساخرة من نفسها :

– قد أعين فى الصحيفة بعد أيام.. وأستطيع أن أحصل على قيمة بدل السفر وأسافر لألحق بك.. إنى أقنع نفسى دائما بأنى أستطيع أن أحقق ما أريد..

وقال كأنه يحادث نفسه فى صوت خفيض :

– يخيل لى أن ما أريده أنا ليس إلا مجرد أوهام.. حتى سفرى إلى باريس لا أسعى به إلا وراء أوهام.. وسأعيش هناك أوهاما بأنك ستلحقين بى..

وتحدد يوم السفر..

وذهب إلى المطار وليس معه أحد يودعه من زملائه ولا من أفراد عائلته.. إن زوج أخته الذى فوضه فى الحصول على مرتبه نيابة عنه اعتذر بأنه لا يستطيع أن يترك عمله.. لم يكن فى وداعه إلا هدى.. وهى تحمل له بلوفر من الصوف اشتركت هى وعائلتها كلها فى تطريزه حتى انتهوا منه فى هذه الأيام القصيرة.. لعله يخفف عنه بعض البرد الذى سيلقاه فى باريس.. وأخذ الهدية فى كلمات مرتعشة وهو تائه فى إحساسه وهو مقبل على ركوب الطائرة كأنها ستحمله إلى مغامرة كبرى لا يدرى أين ستنتهى به..

وقالت له هدى مبتسمة كأنها تحذره :

- هل ستعود أم لا تعود..

وقال ساهما :

- إنى لم أفكر فى العودة ولا فى البقاء.. كل ما كنت أفكر فيه هو أنى سأرتفع إلى السماء.. ولا أدرى هل سأنزل منها أم أبقى فيها.. إنى لا أدرى شيئا عما يمكن أن يحدث لى فى السماء..

وصوت المذيعة يلح من خلال ميكروفونات المطار فى مناداة المسافرين إلى باريس ليتجهوا إلى الطائرة.. وكلاهما أى مصطفى وهدى يلتقيان فى نظرة وهما حائران.. إنهما لا يدريان كيف يواجهان لحظة الوداع.. هل يواجهانها بكلمة أم بقبلة.. إنهما لم يتبادلا أى قبلة حتى اليوم.. ولعل هدى أشفقت عليه من الحيرة فشبت على قدميها بسرعة وقبلته على وجنته.. ولعلها انتظرت أن يضمها مصطفى إلى صدره حتى تنتقل بقبلتها إلى الوجنة الأخرى.. ولكنه ابتعد عنها فورا وجرى نحو الطائرة دون أن يلفظ بكلمة كأنه يفر منها.. كأنه كان يخشى لو تلقى قبلة أخرى أن يعدل عن السفر..

إن مصطفى وهو فى الطائرة لا يحس بشىء مما هو فيه ولكنه يعيش فى أوهام ما هو مقبل عليه.. ويجلس فى مقعده صامتا ويصد فى برود محاولات جاره التحدث إليه.. ويأكل ويشرب كل ما تقدمه إليه المضيفة وهو لا يحس بأنه يتذوق شيئا مما يأكله أو يشربه.. وبعد ساعتين أحس كأنه يحاول أن يفيق ويستجمع وعيه.. وأطل من نافذة الطائرة.. لقد قضى عمره كله وهو يعيش تحت السحاب ولكنه الآن يعيش فوق السحاب.. وأحس بدافع يدفعه إلى تسجيل صورة الدنيا فوق السحاب وأخرج الورقة والقلم وأخذ يرسم.. إنه لا يتعمد ما يرسمه ولكنه يخط أى خطوط يستلهمها من النظر إلى السماء من خلال نافذة الطائرة.. وجاره الجالس بجانبه يطل على ما يرسمه وهو يلوى شفتيه متقززا ثم قال فى صوت هامس ولكنه مسموع :

- لعلك ترسم الرسم الحديث الذى لا يفهم..

ولم يرد عليه مصطفى واستمر يحرك القلم على الورقة.. إنه فى الواقع لا يحس بأنه يرسم ولكنه يحس بأنه ينفث ضياعه النفسى وعصبيته بتحريك أصابعه بالقلم.. كالمؤمن المتدين الذى يحرك أصابعه فوق السبحة دون أن يشعر بإيمانه إنما لمجرد التنفيس عن حالة عصبية..

وهبطت به الطائرة فى باريس.. وهو لا يدرى شيئا عن الإجراءات التى عليه أن يجتازها.. فسار فى طابور الركاب مستسلما.. ولكنه يحس منذ اللحظة الأولى أنه انتقل إلى عالم آخر.. ويحس مع كل خطوة أنه عالم غريب. كل شىء فيه يبهر عينيه كأنه مفاجأة مذهلة.. حتى وجوه الناس التى تمر به وجوه غريبة لم يتعود عليها فى القاهرة.. وكل ما يمر به يوحى إليه بلوحة يرسمها.. أنه فى حاجة لأن يرسم ملايين اللوحات.. ووقف بقية الركاب ليتسلموا حقائبهم.. ويقف معهم وهو يراقبهم حتى يقلدهم.. إلى أن حمل حقيبته.. ثم قادته مسيرة الركاب إلى أتوبيس ضخم وجد نفسه يجلس على أحد مقاعده بعد أن مروا على مواقف التفتيش ومواقف الجوازات.. وهو سعيد بالدفء الذى يشعر به فيه.. وتحرك الأتوبيس وكل شىء يمر يجده غريبا.. إن المناطق التى يمر بها كلها من غرائب العالم الآخر.. الأرض المزروعة ليست كالأرض المزروعة فى مصر.. والمبانى رغم أنها كلها بيوت وعمارات لا يوجد شكلها فى مصر.. والشوارع شىء غريب.. أنها تلمع ببريق الثلج المتساقطة.. وليس فى مصر ثلوج تطلق لمعة الشوارع..

ووقف به الأتوبيس فى ميدان واسع مزدحم.. ونزل مع الركاب الذين أخذوا يتباعدون عنه.. وهو واقف وحده لا يدرى إلى أين يخطو.. إنه لا يدرى أين هو.. ولا يعلم حتى اسم الميدان الذى أنزله فيه الأتوبيس.. ! ولكن لا شك أنه فى وسط باريس.. فإلى أين يتجه خارجا من هذا الميدان ؟ وقرر أن يستدعى إحدى سيارات الأجرة

ويتجه إلى مكتب الأستاذ أنطون الصباغ رئيس تحرير مجلة الحرية التى تصدر بالعربية.. لقد قال له الزميل محمود البيومى أنه سيتولى أمره منذ أن يصل إليه.. وأخرج من جيبه الأوراق التى سجل عليها كل العناوين التى جمعها فى القاهرة وأخذ يبحث عن الورقة التى تحمل اسم أنطون الصباغ ولكن لا.. يجب أن يبدأ بالانطلاق وحده فى باريس حتى يبحث بنفسه عن أحلامه ويروى عطشه إلى اكتشافها.. وقد قيل له إنه لن يعرف باريس إلا إذا بدأ بحى « الكارتيه لاتان »..وبحث بين أوراقه حتى وجد اسم الحى ومعه اسم وعنوان الفندق الذى أوصوه أن يقيم فيه.. فندق الغرباء.. لقد قيل له إنه فندق متواضع.. وأشار إلى سيارة أجرة.. ولم يستطع أن يتفاهم مع السائق على ما يريد.. إنه لايعرف من اللغة الفرنسية سوى كلمتين أو ثلاث.. فأعطاه الورقة التى تحمل اسم الحى والفندق.. وأطل فيها السائق متأففا فى احتقار وأشار إليه بأن يركب.. وحمل مصطفى حقيبته ولكنه قبل أن يركب مد يده وأخذ من السائق الورقة التى تحمل العنوان كأنه يخاف أن يخدعه السائق ويختطفه ويتركه فى مكان بلا عنوان.. والسيارة تتحرك به وهو يتلفت على الجانبين مبهورا بكل ما تراه عيناه.. كل شىء يصور له عالما جديدا.. وقد بدأت السيارة تدخل فى شوارع أضيق وكل ما عليها قديم.. لعله وصل إلى الحى اللاتينى.. ولكنه أيضا غريب عن حى الحسين أو حى السيدة أو أى حى قديم فى القاهرة.. يبدو أن القاهرة أعرق فى القدم من باريس.. لذلك ازدادت تعطنا وانهيارا..

ووقفت السيارة عند منعطف شارع ضيق كأنه حارة مظلمة.. وأشار له السائق بيده إلى داخل الحارة قائلا بلغته :

– فندق الغرباء.. هناك..

يبدو أن الحارة لا تتسع لتدخلها السيارة.. وقد فهم مصطفى أنه وصل إلى العنوان.. ونزل حاملا حقيبته والسائق يصرخ فى وجهه

بقيمة ما يدفعه.. ولم يستطع مصطفى أن يحدد القيمة التى سمعها جيدا.. ربما طلب السائق عشرة فرنكات.. أو عشرين.. أو خمسين.. دون أن يفكر فى مراجعة عداد السيارة وأخرج مجموعة الفرنكات التى يحملها فى جيبه.. وقد قرر أن يعطيه منها ورقة بعد ورقة إلى أن يعلم أنه أخذ حقه.. ولكن السائق اكتشف بسرعة عجزه وسذاجته فمد يده بنفسه إلى مجموعة من الفرنكات وأخذ منها ما يريده ثم انطلق بسيارته دون أن ينطق بكلمة.. ولم يحاول مصطفى تعداد نقوده ليعرف ما أخذه السائق وما بقى فى جيبه.. ولكنه أعادها إلى جيبه صامتا وحمل حقيبته ودخل الحارة.. وبعد خطوات توقف.. لابد أن هذا هو فندق الغرباء.. إنه يستطيع أن يقرأ اسمه بالحروف الأجنبية.. « أوتيل دى اترانجير ».. وأحس من أول خطوة إلى داخل الفندق كأنه يدخل إلى وكر الوطاويط.. كل شىء فيه مسنود حتى لا يقع.. والضوء باهت كأنه حريص على ألا يثقل على عينيك.. وابتسم فى فرحة كأنه يدخل إلى أعماق الفن الفرنسى كما كان يعيش فى أعماق الفن المصرى.. وعلى جانب مدخل الفندق مكتب صغير من خشب متآكل تجلس إليه سيدة عرف فيما بعد أن اسمها مدام مونيك.. ووقف قبالتها وهو يحاول أن يضع على لسانه كلمة فرنسية ينطق بها.. ورفعت إليه مدام مونيك عينيها فى نظرة سريعة كأنها نظرة غاضبة وقالت فورا بالفرنسية كأنها تزيحه من أمام عينيها :

– اجلس هناك.. قد تخلو غرفة بعد ساعات..

ولم يفهم ما تقوله وظل واقفا يتلعثم فى محاولة أن يقول كلمة.. وأعادت مدام مونيك كلماتها باللغة الانجليزية الركيكة :

– قلت لك اجلس هناك وانتظر فقد تخلو غرفة.

ولكنه أيضا لا يتحرك كأنه لا يسمع أو لا يفهم.. وعادت تصيح بكلمات تبدو كأنها لغة عربية.. ولكنها لا يمكن أن تكون بلهجة

مصرية ولعلها لهجة مغربية أو جزائرية.. قالت وهى تشير بيدها إلى مقعد مركون على الحائط البعيد عنها : – هناك.. انتظر..

وحمل حقيبته ووضعها بجانبه وهو يجلس على المقعد الذى أشارت إليه.. كأنه يجلس على ساقية ليسند بهما هذا المقعد قبل أن ينهار به.. وأخذ يتتبع بعينيه كل من يمر أمامه من الخارجين والداخلين.. إنها وجوه عجيبة تجمع كل الألوان... الأبيض.. والأسمر.. والأصفر.. وكل منهم يبدو فى عجلة وإن كانت كلها وجوه مجمدة صامتة لا تعبر حتى عن دوافع هذه العجلة التى يخطون بها كأنهم يفرون من شىء.. وتمر به لحظات يصب خلالها عينيه على مدام مونيك.. إنها فى عمر منيرة التى اغتصبت فترة من عمره فى القاهرة.. لاشك أنها تجاوزت الأربعين وتنهج فى الخمسين.. ولكنها ليست فى وجاهة وأبهة منيرة.. إن كل شىء فيها يكاد يسقط من عليها لولا العمر الطويل الذى قضاه وهو يلفها.. والألوان تصبغ بها وجهها كأنها سقطت عليها ولم تتعمد رسمها.. أحمر شفتيها لا هو أحمر غامق ولا فاتح.. ولكنه أحمر ضائع كأنه لم يقرر بعد أن يكون أحمر.. والكحل الذى يلف عينيها يسقط حتى أعلى خديها.. وشعرها أصفر تتدلى منه شعيرات سوداء.. وشعيرات بيضاء.. ولكنها لاشك وسيمة.. وإن كانت وسامة قديمة لا تزال تحتفظ بأصل عريق فى الوسامة.. ثم إنها تتدفق بالحيوية.. أنها فى جلستها لا تكف عن العمل وعن الكلام وأحيانا الصياح العالى.. وقد رأى واحدا ينزل على السلم وهو يحمل حقيبته ويقترب منها وتطول بينهما مناقشات حادة كان كل منهما يشتم فى الآخر.. ثم تقوم وتسير معه حتى يخرج من باب الفندق.. ثم تخطو فورا إليه وتقول فى حدة بكلماتها العربية الغريبة المفككة :

– أين أوراقك ؟

وفهم أنها تقصد جواز السفر فأخرجه إليها من جيبه.. وقلبت

بسرعة فى أوراقه وقالت وهو يرى أول ابتسامة على شفتيها.. إنها ابتسامة حلوة أحلى من ابتسامة منيرة.. وقالت :

– إنك مصرى.. غريبة..

ثم عادت إلى مكتبها وسحبته معها.. وفتحت أوراقها قائلة :

– كم يوما تقيم معنا.. إن الدفع هنا مقدما..

قال :

– لا أدرى.. لم أقرر بعد كم يوما سأبقى.. وصاحت فيه كأنها لا تطيق هذا الضياع :

– هل تبقى خمسة أيام أو عشرة..

قال وهو يمد يده فى جيبه ويخرج مجموعة الفرنكات وهو يقول :

– لست أدرى..

وقالت وهى تنظر إليه كمجنون تشفق عليه :

– لنقل خمسة أيام.. وعليك أن تدفع..

ولم يلتقط الأرقام التى نطقت بها بالفرنسية وتساءل فى حيرة.

– كم ؟

وخطفت كل الفرنكات التى فى يده وعدت منها مبلغا وضعته أمامها على المكتب وهى تقول بكلماتها العربية العويصة :

– هذا ما تدفعه..

ووضعت ما بقى من فرنكات على حدة بجانب المبلغ الذى حددت أن يكون لها.. كأنها تخبره بين أن يوافق أو أن يأخذ كل فرنكاته وينصرف..

ومد يده فى صمت إلى بقية فرنكاته بعد ما احتجزته منها كأنه يستسلم إلى أى شىء يطلب منه.. وعادت ابتسامتها النادرة ترف على شفتيها.. وقامت متجهة إلى السلم الذى يرفعها إلى الدور العلوى وهى تقول :

- احمل حقيبتك وتعال..

وحمل حقيبته وتبعها إلى أن فتحت له غرفة وهى تقول فى بساطة :

- هذه غرفتك..

ثم انصرفت عنه بعد أن أغلقت الباب عليه.. وتلفت حوله.. إنها غرفة ضيقة مظلمة وكل ما فيها مبعثر.. إن مدام مونيك لم تكلف نفسها أى جهد لتساوى الغرفة ولا حتى لتساوى السرير الذى كان يرقد عليه النزيل الذى سبقه وتركه كأنه صفيحة زبالة تجمع ما فاض منه.. وضحك بينه وبين نفسه.. لقد جاء ليعيش فى وكر الوطاويط.. وطاويط باريس..

وترك حقيبته كما هى وشد معطفه حول قوامه وحمل فرخ الورق الذى تعود أن يحمله دائما وتأكد من وجود الأقلام فى جيبه وهرع يجرى إلى الشارع الرئيسى الذى دخل منه.. إنه يريد أن يرى.. وأن يحس.. وهو يرى ويحس بكل ما يحيط بكل خطوة من خطواته.. إنه يحس كأنه فى السماء ويرى كل ما حوله كأنه قطع من السحاب مغروزة فى الأرض.. إن أقوى ما تحس به وأنت فى السماء هو أنك حر.. إنه يحس بطعم رائع للحرية لم يحس به من قبل..

وسار فى الشارع الطويل حتى نهايته.. والليل يزحف حتى أصبح مخيما.. وعاد وهو يحس بأنه استنزف كل قواه وأصبح منهكا.. وانحرف إلى الحارة التى يقع فيها فندق الغرباء.. ولكنه لا شك قد أخطأ فى اختيار هذه الحارة.. ووجد نفسه يطوف تائها فى مجموعة حوارى.. إنها كحوارى القاهرة يدخل بعضها فى بعض حتى لا يمكن للغريب أن يميز بينها.. ولكنها تبدو أزهى من حوارى القاهرة.. إنها تبدو كبنت البلد التى خلعت الملاية اللف واكتفت بفستان أنيق رغم أنه فستان فقير.. وصادف فى طريقه مقهى يبدو مزدحما مغلق النوافذ الزجاجية حتى يحمى زبائنه من البرد.. وفتح

باب المقهى ودخل.. ووقف أمام معروضات للأغذية مجمعة فى صدر المقهى.. وأشار إلى صنف من اللحم لا يدرى ما هو.. وقال للرجل الواقف أمامه :

- ساندويتش..

وأعد له الرجل الساندويتش بسرعة.. ويبدو أن مصطفى قد دفعه إنهاكه إلى استرداد بعض قدرته على السيطرة على نفسه.. فلم يخرج من جيبه كل ما فيه من فرنكات.. ولكنه اختار ورقة من أوراق الفرنكات العشرة.. ووقف متطلعا فى انتظار كلمة الرجل الذى أخذ الفرنكات العشرة وأدار آلة الكيس بسرعة وأعاد إليه مجموعة من الفرنكات.. أعاد ثلاث فرنكات ولم يأخذ سوى سبعة.. وفرح مصطفى لأنه ارتفع إلى مستوى القدرة على التعامل بالفرنكات.. وجلس على مقعد من مقاعد المقهى يأكل الساندويتش.. جلس طويلا وهو يرتاح منعما بالدفء.. ثم قام إلى الرجل وقال له كلمة واحدة يتساءل بها :

- فندق الغرباء..

وأشار الرجل بذراعه ناحية الحارة المجاورة.. دون أن يرد عليه بكلمة.. يبدو أن الفندق قريب.. وخرج.. ولم يكد يدخل الحارة المجاورة حتى وجد الفندق.. ولم تكن مدام مونيك على مقعدها.. ربما ذهبت لتنام أو لتقضى سهرة.. ودخل إلى غرفته ونظر إلى الفراش الذى سينام عليه متقززا.. كيف ينام مع بقايا الزبون الآخر.. ورغم ذلك فقد خلع ثيابه وفتح حقيبته ليخرج البيجاما الجديدة التى اشتراها من القاهرة وألقى بنفسه وراح فى النوم بغمضة عينيه..

واستيقظ من النوم على مدام مونيك وقد فتحت الباب ودخلت عليه بلا استئذان.. وعرف أن هذه هى عادتها تمر على النزلاء كل صباح تطمئن عليهم.. أو على الأصح لكى تحاسب كل نزيل على أن يدفع مبلغا إذا وجدت معه فتاة غريبة قضت الليل فى أحضانه..

وقالت مدام مونيك وهى جادة وليس بين شفتيها أى أمل فى ابتسامة :

– بونجور.. هل نمت جيدا..

وقال بانطلاق اللهجة المصرية :

– شبعت من النوم.. ولكن.. هل ممكن تغيير هذه المفروشات..

ورفع أمام عينيها أغطية السرير.. قالت كأنها تنهره :

ولماذا لم تطلب قبل أن تنام..

وخرجت من الغرفة وعادت إليه بعد فترة تحمل أغطية جديدة نظيفة.. ألقت بها على مقعد ثم حملت الأغطية التى كانت موجودة وخرجت بلا كلمة.. لم تحاول أن تبذل أى مجهود فى تنظيف الغرفة أو تنظيمها.. وعرف أن كل نزيل فى هذا الفندق عليه أن يخدم نفسه.. والفندق لا يقدم له إلا ما يطلبه.. بل عرف بعدها أن الفندق ليس فيه إلا دورة مياه واحدة فى خدمة كل النزلاء.. عليهم أن ينظموا بين أنفسهم تقسيم استخدامها.. وأكثر من ذلك.. ليس فى الفندق حمام.. ومن يريد أن يستحم فليذهب إلى حمام السوق الذى يقع قريبا من الفندق.. إن حوارى القاهرة أيضا لا تزال تضم بعض حمامات السوق.. ولكنه لم يتعود أن يستحم فى حمام السوق بالقاهرة ولا يعتقد أنه يمكن أن يستحم فى أى حمام سوق حتى لو كان فى باريس..

وقرر وهو فى يومه الأول فى باريس أن يشاهد كل ما سمع عنه ولم يره بعينيه.. ونزل إلى مدام مونيك وقال لها كأنه قد أصبحت بينهما لغة خاصة بهما يفهمانها :

– كيف أرى برج إيفل ؟

وانطلقت على شفتيها إحدى ابتساماتها النادرة.. وتعلقت عيناها به كأنها ترسم كل خط من خطوط وجهه.. ثم كأنها تطوف بعينيها تقيس طوله وعرضه.. وابتسامتها لاتزال على شفتيها كأنها فرحة

بطفل جديد رزقها الله به.. لعلها اكتشفت سذاجته كما اكتشفها زميله محمود بيومى من قبل.. ولكنها فرحة بهذه السذاجة.. وأخذت بكلماتها المكسورة ولهجتها الضائعة تصف له كيف يذهب إلى نهاية الشارع ليجد مكتب شركة سياحية تضعه فى أتوبيس يطوف به كل معالم باريس..

وركب الأتوبيس وأخذه مع مجموعة من السياح إلى برج إيفل.. ثم إلى قبر نابليون ، ثم إلى بقايا سجن الباستيل.. ثم قوس النصر.. و.. و.. وهو يحس بالزهق من كل ما يشاهده ويسمعه من شرح المترجم المرافق.. يحس كأنه يقرأ كتابا مملا مفروضا عليه.. إنه يريد أن يرى الحياة فى باريس وليست باريس التى ماتت منذ عمر طويل.. حتى عندما أخذوه إلى متحف اللوفر.. وأخذ يطوف أمام اللوحات التى كان يسمع كثيرا عنها كلوحات عالمية.. إنه لا يحس بأنه يعيش فى أى لوحة.. إن من عادته أن يعيش اللوحات التى تنطلق فى داخله ويرسمها خياله لا اللوحات التى تعرض عليه معلقة على الحوائط.. إنه لا يرى الفن بعينيه ولكنه يراه بإحساسه.. ومجرد الحياة فى شوارع الحى اللاتينى وحواريه يفتح إحساسه على ملايين اللوحات.. وعاد إلى الفندق واستقبلته مدام مونيك.. لقد أصبحت تخصه بابتسامتها دائما.. وقالت :

– هل رأيت وتمتعت :

قال بلهجة ربما لم تفهمها :

– تخلصت من عبء مشاهدة باريس كتلميذ جاهل.. وانتهيت وأنا ما زلت جاهلا بباريس.. وقضى أيامه وهو لا يكف عن السير فى شوارع وحوارى باريس.. وبدأ يخرج من الحى اللاتينى إلى الأحياء الأخرى حتى وصل إلى شارع الشانزليزيه أشهر شوارع باريس.. وكان يسير وحده وقدماه لا تتعبان أبدا كأنهما شفتا جائع إلى الفرجة لا تشبعان أبدا.. وقد استطاع أن يلتقط كلمات فرنسية أكثر

ويعـود نفسـه على مـزيد من القدرة على التـعـامل مع جرسـونات المطاعم والمقـاهى.. بل إنه اسـتطـاع أن يذهب وحـده إلى البنك الذى حولت إليه قـيمة بدل السفر التى خصـصتها له المؤسسة الصـحفية فى القاهرة.. ويجـمع المبلغ كله فى جيبه.. ثم كان يعـود فى المساء ويستـدفىء داخل مقهى قريب من فـندق الغرباء.. إنه يرتاح فى هذا المقهى وكل زبائنه كأنهم من الوطاويط.. وكان لا يلتقى بمدام مونيك إلا وهو خارج فى الصـباح.. وهى فى كل صـباح تلومـه لأنه غائب دائما عنها.. وكـانت الأيام الخمسة التى دفع ثمن إقـامته فى الفندق خلالها قد انتهت.. وقد طلب منهـا أن تمد الاقامة إلى آخر أيام الشهر كله.. وهو يعلم أنه يجب أن يدفع الـثمن مقـدما.. ولكنه لم يـمد يده إليها بكـل ما فى جيبه.. فـقد أصـبح قادرا على التعـامل.. ولم يمد يده إلا بالمبلغ الذى اتفـقا عليـه بعـد نقاش طويل.. ولكنهـا تناقشـه بنظرات حانية وابتسامـة لا تفارق شفتيها وإن كانت ابتسـامة ضيقة بخيلة..

وتذكر بعـد أيام أنه يجب أن يذهب للقاء الأستاذ أنطون الـصباغ رئيس تحـرير مجلة الحـرية.. لعله يفتح له أبوابا جـديدة من أبواب باريس.. وأخرج العنوان من مـجموعة أوراقـه والرسالة التى كتبـها زميله فى القاهرة محمود البيومى ليسلمها إلى الأستاذ أنطون.. وذهب إليه..

واستـقبله أنطون بابتسـامة باهتة ونـظرة متطلعة فى دقـة كأنه يحاول أن يكتشفه.. وبعد أن قرأ رسالة بيومى قال له كأنه يحاسبه :

– لقد كنا ننتظـرك منذ حوالى خمـسة أيام.. إنك وصلت باريس يوم الثلاثاء الماضى.. فأين اختفيت..

وقال مصطفى مبتسما فى أدب :

– كنت أحاول أن أتعرف على باريس..

وقال أنطون :

- لقد اتصلت بالأستاذ بيومى فى القاهرة وقال لى إنك تبشر بآمال كبيرة.. وسأتعلق بهذه الآمال وأتولى أمرك.. وستقيم فى فندق كلاريدج..

قال مصطفى بابتسامته المهذبة :

- أين يقع هذا الفندق..

قال أنطون فى دهشة كأنه فوجىء بمن يحقق معه :

- إنه يقع فى شارع سان فرنسوا بريمير الملاصق لشارع الشانزليزيه أفخم شوارع باريس.. ويقيم فيه بعض الزملاء العاملين معنا..

وقال مصطفى :

- إنى أفضل أن أقيم فى الحى اللاتينى.. إنى بسرعة أحسست بأنى لست غريبا فيه..

ونظر أنطون إليه فى دهشة يغلبها السخط والاحتقار.. ولعله تذكر أن بيومى كتب وقال له إن مصطفى يعتبر فنانا ساذجا.. فخفف من سخطه واحتقاره وقال مبتسما :

- ليكن سنأخذك لتقيم فى فندق ليتسيا وهو فى حى من أحياء الفنانين.. مونبارتاس.. وكان يقيم فيه طه حسين نفسه أيام كان يدرس فى باريس.. ويقيم فيه الآن بعض الزملاء.. إنه فندق قديم ولكنه محترم..

وقال مصطفى فى إصرار :

- أفضل أن أبقى فى الفندق الذى أقيم فيه منذ وصلت..

وصاح أنطون مغلولا :

- أى فندق هذا ؟

وقال مصطفى :

- فندق الغرباء..

وعاد أنطون يصيح :

– إنه فندق معروف بأنه فى منتهى الفوضى والقذارة..

قال مصطفى ضاحكا :

– إنه أقرب إلى وكر الوطاويط الذى تعودت وأنا فى مصر أن أنطلق فيه مع فنى..

وصمت أنطون برهة وهو يشهق أنفاسه وعيناه تهتزان فى حيرة.. كأنه لم يكن ينتظر أن يكون مصطفى فى هذه الدرجة من السذاجة.. ثم شد أنفاسه كأنه قرر أن يبدأ التجربة.. وقال فى استسلام :

– ليكن.. ابق فى هذا الفندق.. وابدأ بتقديم صورة لنا.. تعرضها علىّ شخصيا..

وقال مصطفى فى لهجة جادة كأنه بدأ العمل :

– صورة عن أى شىء ؟

وقال أنطون وهو يبتسم كأنه يحاول أن يكتسبه :

– إنك مصرى.. والصورة تعبر عن أحوال مصر..

وقال مصطفى :

– أى حال من أحوال مصر..

وسرح أنطون بخياله مفكرا ثم قال :

– حال الغلاء مثلا.. إن مصر تعانى أزمة طاحنة بسبب ارتفاع الأسعار.. كيف تعيش مصر والشعب المصرى فى هذه الحالة.. إنك تستطيع أن تعبر عن هذه الحالة فى لوحة قوية رائعة.. إنك تطالب كما نطالب نحن بتحرير الشعب المصرى من أزمة الغلاء وامتصاص جشع الحكام لدم مصر..

وقال مصطفى فى بساطة :

– فكرة.. وسأحاول التعبير عنها فى لوحة..

وفتح أنطون درج مكتبه وأخرج مجموعة من الفرنكات مد يده بها إلى مصطفى.. الذى قال فى دهشة :

– ولكنى لم أقدم اللوحة بعد..

وقال أنطون فى رقة :

– هذا مقدم أتعاب يساعدك على قضاء احتياجاتك إلى أن نتفق على أتعاب ثابتة..

ومد مصطفى يدا تهتز التقط بها المبلغ من يد أنطون.. لعل هذه هى تقاليد العمل فى باريس.. المقدم ثم المؤخر..

وهمّ أن يقوم منصرفا فعاجله أنطون قائلا : بالمناسبة.. ستلقى محاضرة هنا فى الساعة الرابعة بعد ظهر السبت القادم.. وأرجو أن تحضرها وتسمعها.. انها تفيدك وتفتح عقلك..

وقال مصطفى فى استسلام :

– حاضر.. سأكون هنا لأسمع المحاضرة..

وخرج ويده قابضة على الفرنكات التى أعطاها له أنطون.. وتوقف ليعدها.. إنها ثلاثمائة فرنك.. أى سبعين دولارا.. أى أكثر من مائة جنيه مصرى.. إنه مبلغ كبير.. ودس الفرنكات فى جيبه.. وأخذ يطوف على قدميه شوارع وحوارى باريس.. وخياله مركز على اللوحة التى يمكن أن يرسمها وتعبر عن حالة الغلاء فى مصر.. ومع الليل دخل إلى المقهى الذى يرتاح فيه والمجاور لفندق الغرباء وفرد فرخ الورق الذى يحمله وأخرج القلم من جيبه وبدأ يرسم « اسكتش » لموضوع الغلاء.. ولكن عينيه التقطتا صورة فتاة تجلس على مائدة قريبة بين عدد من الشبان.. إنها صورة مثيرة.. ووجهها غريب جذاب يشده إليه هو وقلمه.. لعلها يابانية أو من الصين أو من الفلبين.. إن كل خط فى وجهها غريب.. ووجد قلمه يتحرك على الورقة يرسم هذا الوجه.. وهو من طبيعته لا يرسم مجرد ما يراه من وجوه.. ولكنه يطلق خياله مع قلمه.. وقد يرسم الشفاه مكان القفا.. وقد يرسم العينين مكان الذقن.. ويرسم الأنف فى مكان الجبين.. إنه حر.. وليس مقيدا بتقليد ما خلقه الله فى كل وجه.. واستغرقت هذه الصورة كل سهرته.. ونظر فيها طويلا بعد أن

انتهى منهـا.. مبتسـما كأنه فخور بـنفسه.. ثم قام حـاملا الصورة وألقـاها على الفتـاة وهو يمـر بها.. وانطلـقت ضحكات صـاخبـة.. وصاحت خلفه هذه الفتاة :

أنت يا.. انتظر..

ولكنه لم ينتظر وخطا بسـرعة خارجا من المقـهى فى طريقه إلى الفندق..

وألقى بنفسه على فراشه بعـد أن كان قد فرشه بالفرش النظيف ونام..

وفى صباح اليوم التالى قرر ألا يخـرج من غرفته حتى لا يشغله شىء عن رسم لوحـة الغلاء التى اتفق على رسـمها لمجـلة الحرية.. وخلع البيجاما وقـبل أن يرتدى القميص والبنطلون اللذين يوفران له الإحساس بأنه يعـمل.. دخلت إليه مدام مونيك كعادتهـا كل صباح.. وصاحت فورا وهى تبحلق فى ثيابه الداخلية التى يقف بها :

– ما هذه القذارة التى تغطى بها جسدك..

وقال ضاحكا :

– إنى أوفر على نفـسى متاعـب لم أتعود عليهـا.. متاعب غـسيل الثياب..

وصاحت :

– لماذا لاترسلها إلىّ لتغسل لك.. اخلع..

واقتـربت منه ملتصـقة وأخذت تخـلع عنه ثيابه الداخليـة.. حتى أصبح كله عاريا..

قالت وهى تتحسس لحمه :

– حتى رائحتك عطنة.. إنك لم تستحم منذ وصلت..

وقال وهو لا يزال يضحك :

– لم أتعود على الاستحمام فى السوق..

وصاحت فيه :

– سأعودك..

وشدت زجاجة كولونيا كانت موضوعه على حافة الدولاب.. وكانت من بين ما حمله معه من مصر.. وأخذت تصب منها على جسده وتمسح عليه كأنها تدلكه حتى توفر له السخونة التى تخفف عنه البرد.. وهو يقف مبتسما ابتسامة كبيرة.. إنهم فى باريس لم يعرفوا إقامة الحمامات داخل بيوتهم إلا فى تاريخهم الحديث.. كأنه شعب لا يستحم إلا فى الأسواق.. أو لا يستحم أبدا.. وكان الملك لويس الرابع يكتفى بغسل جسده بماء الكولونيا.. إنه يحس الآن بأنه ملك.. وإذا بمدام مونيك بعد أن انتهت من تدليكه بالكولونيا تدفعه بجسده العارى إلى الفراش وكان يكفى أن تتعرى مثله مجرد رفع ثوبها.. وأصبحت فى أحضانه.. وهو مستسلم وبين شفتيه ابتسامة ساخرة.. يبدو أن كل ما فيه لا يجذب ولا يشد من النساء إلا العجائز.. إنها تفعل به ما كانت تفعله به منيرة هانم فى القاهرة.. وقالت بعد أن ابتعدت عنه وهى تنهج من خلال ابتسامة تطلق منتهى الامتنان :

– هل أفطرت.. سأعد لك الإفطار.. وسآخذ ثيابك لتغسل..

وتركته وهو صامت يبحث عما يرتديه ويغطى به لحمه.. وكانت قد خرجت وعادت إليه بعد دقائق وهى تحمل صينية صفت عليها ألوان من أطعمة الإفطار.. ولكنه وجد على الصينية ورقة تسجل أرقام الحساب.. أى ثمن الإفطار.. وقالت له فى رقة :

– عشرون فرنكا..

إنها ليست كمنيرة هانم.. لقد كانت منيرة تطعمه بلا فواتير.. كانت تكتفى بأن يدفع الثمن من رحيق شبابه.. ويبدو أن عواجيز باريس شىء آخر.. يجب أن يدفع ما دام لم يعلن الرفض..

ودفع.. رغم أنه أحس أنه يدفع أكثر مما تعود أن يكون عليه ثمن غذائه.. وقال لها :

– سأبقى فى الغرفة لأعمل.. فأعدى لى أيضا طعام الغداء..

ونظرت فى حدة كأنها تخلصت من آثار كل ما جرى.. وضاقت ابتسامتها حتى اختفت.. وكأنها تريد أن توقفه عن محاولة استغلالها :

– تستطيع أن تتناول غداءك فى المطعم القريب..

واختفت من أمامه وهو يتبعها بنظرة ناقمة عليها.. إن نساء باريس لا يمكن أن يتطوعن بحمل مسئولية رجل.. ثم أمسك بالقلم يحاول أن يرسم اللوحة التى تعبر عن حالة الغلاء فى مصر..

وقد قضى مصطفى أياما وهو يرسم فى لوحة « الغلاء فى مصر ».. ويعانى وهو يحاول أن يحصر فكره ليعبر عنه بخياله ويرسمه بريشته.. ربما لأن موضوع الفكرة ليس هو الذى حدده.. إنه موضوع فرضه عليه الأستاذ أنطون الصباغ رئيس التحرير.. واستسلم له.. وقد كان دائما يعانى من موضوعات اللوحات التى يفرضها عليه رؤساء التحرير ليرسمها.. يحس أنه يرسم موضوعات لا يعيش فيها بانطلاقه الفنى.. ثم إنه كانت تنتابه أحيانا نوبات سخط على نفسه ويلقى بالريشة بعيدا عن اللوحة وهو يسائل نفسه.. كيف يكون فى باريس ويرسم موضوعا خاصا بمصر.. إنه ما دام فى باريس فليرسم ما توحى إليه به باريس.. ويؤجل رسم ما توحى به مصر إلى أن يعود إليها.. وكان يعود ويتحايل على نفسه حتى يهدأ ويمسك بالريشة ويرسم فى اللوحة.. وكان يوم السبت الذى حدده له أنطون الصباغ ليذهب ويستمع إلى محاضرة وصفها له بأنها ترشده إلى فهم الحياة.. كان يوم السبت قد مر دون أن يذهب إلى الاستماع إلى هذه المحاضرة.. لا لأنه نسى.. ولكن لأنه لم يجد نفسه فى حاجة إلى سماع أى كلام مرصوص حتى لو كان يؤدى به إلى فهم الحياة كما يريدونه أن يفهمها..

وانتهى من رسم اللوحة.. إنه مقتنع بقيمتها الفنية.. وابتسم مهنئا نفسه وهو يراجع الخطوط الشاذة الغريبة التى تملأ اللوحة.. إنه

يعلم أن الكثيرين لن يفهموا ما تعبر عنه هذه الخطوط.. ولكنه يجب أن يتمسك بطبيعته التى تفرض عليه أن يرفع المتفرج إلى مستواه لا أن يهبط بنفسه إلى مستوى المتفرج..

وحمل اللوحة وذهب بها إلى الأستاذ أنطون الصباغ الذى عاجله قبل أن يرفع اللوحة إلى عينيه قائلا فى سخط :

– لماذا لم تأت يوم السبت للاستماع إلى المحاضرة..

قال وهو ينتزع ابتسامة يضعها على شفتيه :

– لم أكن قد انتهيت من هذه اللوحة.. وكنت مشغولا بها..

وقال أنطون وهو أشد سخطا :

– إن حضورك هذه المحاضرة هو ما يمكن أن يصل بك لتكون واحدا منا.. إنها تكشف لك عن المبادىء التى نؤمن بها وقد تترك لك الخيال لترسم.. وستلقى المحاضرة أيضا يوم السبت القادم فاترك كل ما يمكن أن يشغلك وتعال إلينا..

وقال مصطفى مستسلما :

– حاضر.. سأكون هنا يوم السبت القادم..

ورفع أنطون اللوحة أمام عينيه وأخذ يحدق فيها وشفتاه تتقلبان فى ازدراء كأنه يهم أن يبصق عليها.. ثم قال كأنه يحاول أن يضغط أعصابه حتى لا يمزقها :

– ألا تستطيع أن تعيد رسم هذه اللوحة.. نفس الموضوع ولكن فى خطوط تبرز معناه أكثر.. وثارت طبيعة مصطفى وقال فى لهجة إصرار :

– لا يمكن.. ليس من عادتى أن أعيد رسم أى لوحة اعتبرت أنى انتهيت منها..

وهذا صحيح.. فلم يكن من طبيعة مصطفى أن يهتم بمصير أى لوحة ينتهى منها.. قد تنشر أو لا تنشر.. أو تباع أو يظل محتفظا بها بين مجموعة اللوحات المكدسة المركونة بجانب الحائط.. أو قد يزهق

منهـا ويمزقــهـا.. ولكنه لم يحـاول أبدا إعادة رسم أى لوحـة أو التعديل فيها.. إنــه يؤمن بالانطلاق.. مجرد الانطلاق الفنى.. وقد عانى الكثيـر حتى انطلق بهـذه اللوحة.. ورئيس التـحرير ليس إلا مـجرد مـتفـرج عـادى كان يـقدر أنه يمكـن أن يعجـز عن الارتقـاء به إلى مستواه ليفهم معانى لوحاته.. وعاد يصيح فى وجه أنطون :

– هذه اللوحـة هى كل مـا يمكن أن تعـبـر به ريشـتى.. ولك أن تقبلها ولن أغضب إذا رفضتهـا.. فقد تعودت فى المجلات التى عملت فيها بمصر على رفض نشر كثير من لوحاتى.. ونظر إليه أنطون فى دهشة ساخطة ثم لعلـه تذكر ما أبلغ به من أن مصطفى يعتـبر شابا ساذجـا لم يجرب الحيـاة بعد.. وأن عليـه أن يتحمل هذه السـذاجة ويتولى أمـره حتى يشكله ويضعـه فى الشخصـية التى يريدها له.. فقال له مبتسما ابتسامة ثقيلة منفرة :

– سأقبل هذه اللوحة وأنشـرها.. وعليك أن تبدأ فى رسم اللوحة الثانية..

وقال مصطفى فى دهشة :

– أى لوحة..

وظهر على أنطون كأنه يفكر ثم انطلق قائلا :

– لوحة عن مـصر أيضا.. إن الديون قد اسـتعمرت مصـر حتى أصبح كل مصـرى يعيش وهو يحمل حجرا ثقيـلا مربوطا إلى عنقه يفرض عليه أن يطأطىء رأسه ويستسلم للاستعمار..

ويبحـلق فيه مـصطفى فى حـيرة.. إن هذا الرجل يعـتبـره كأنه رسـام كاريكاتيـرى.. ويعرض عليـه موضـوعات لا يعـبر عنهـا إلا الرسم الكاريكاتيرى ، وهو رسام لوحات لا يجـد نفسه فى مثل هذه الموضـوعـات.. ثم لماذا لا يعـرض عليـه إلا مـوضـوعـات تعـتـبر موضـوعات سيـاسية.. لمذا لا يقـدر أنه يرسم موضوعـات أبعد عن السيـاسة وتعـبر عن الواقع بكل مـا فيه من جـمال وقـبح وانطلاقات..

ورغم ذلك فقد هز رأسه أمام أنطون وقال فى برود :

– سأحاول..

وهمّ أن ينصرف فلحقه الأستاذ أنطون الصباغ بأن مد له يده بمجموعة من الفرنكات قائلا :

– هذا مؤخر أتعاب اللوحة التى رسمتها..

وقبض مصطفى على الفرنكات دون أى اعتراض.. وعندما نزل إلى الشارع أخذ يعد الفرنكات.. إن قيمة المؤخر أقل مما كانت عليه قيمة المقدم.. مائة فرنك فقط.. لعل أنطون قد خاب أمله فى قدرته الفنية بعد أن تفرج على اللوحة..

وسار على قدميه بخطوات ثقيلة بأحاسيسه الحائرة طوال الطريق الذى استغرق ساعات حتى وصل إلى فندق الغرباء فى الحى اللاتينى وألقى بنفسه على مقعد فى المقهى القريب.. وطلب الساندويتش الذى تعود على أن يكون عشاءه كل ليلة.. ثم فوجىء بالفتاة الغريبة التى سبق أن رسمها على ورقة تركها لها.. جالسة مع شلة من الرجال غير الشلة التى كانت تجلس معهم فى المرة السابقة.. وما كادت تراه حتى هبت متجهة إليه وجلست على مقعد بجانبه وهى منطلقة بكلام كثير.. وبعد أن اختلطت اللغة الفرنسية باللغة الأجنبية حتى يفهمها قالت له ضاحكة :

– إنك رائع.. لقد رأيت عينى فى الصورة التى رسمتها لى.. ورأيت أنفى.. ورأيت شفتى.. ولكنى لم أر وجهى.. إنك منطلق فى فن جديد وعالم جديد..

وطال الحديث بينهما والابتسامة لا تفارق شفتيه أو شفتيها.. وقد عرف أنها من الفلبين ولكنها ولدت وعاشت فى باريس.. لم تر أى بلد آخر أو مدينة أخرى.. إلا باريس.. واسمها زانيدا.. وأحس بالراحة وهى جالسة بجانبه.. نفس الراحة التى كان يحس بها فى مصر وهدى جالسة بجانبه.. ولعلها كانت تحس بنفس الراحة.. فكل

منهما لا يريد أن يترك الآخر ولا يريد منه شيئا إلا هذه الراحة.. ولكنها فجأة التفتت إلى مجموعة الرجال الذين تصحبهم ثم قامت وابتعدت عنه قائلة :

– سأراك :

وذهبت إلى الرجال الذين كانت تجلس بينهم وقام واحد منهم وشدها خارج المقهى وهى مستسلمة ضاحكة ضحكة عالية وتلوى قوامها بخطواتها فى افتعال..

ووجد كل خياله بعد أن تركته منحصرا فى هدى.. إنها لم تكتب له من مصر.. لا أحد كتب له من مصر.. ربما لأنه لم يترك عنوانه لأحد.. ولا لهدى.. لم يكن يعلم أين سيكون عنوانه فى باريس.. ويجب أن يبدأ هو كتابة الخطابات.. ويجب أن يبدأ بكتابة خطاب لهدى.. لن يكتب إلا إلى هدى.. فلم يتعود الأصدقاء والزملاء فى مصر أن ينتظروا خطابا ممن يسافر منهم إلى الخارج.. كان سفره معناه أنه لن يعود فيعفونه من الارتباط بهم.. ولكن هدى لم تكن مجرد صديقة أو زميلة.. لقد كانت الإنسانة الوحيدة التى يرتاح لمجرد أن تجمعه بها جلسة.. وسيكتب لها..

ودخل إلى عش الوطاويط.. أى فندق الغرباء الذى يقيم فيه.. وفوجىء برجل كان جالسا على مقعد يهب مصطدما به قائلا وهو يمد له يده مصافحا :

– الأستاذ مصطفى بركات.. لقد فرحت عندما علمت أن أحد المصريين يقيم فى نفس الفندق.. أنا برعى محمد برعى..

وقال مصطفى :

– هل وصلت من مصر..

وقال برعى ضاحكا :

– إنى أقيم فى باريس منذ سنوات.. وقد اخترت أن أنتقل إلى هذا الفندق المتواضع لأنى مفلس هذه الأيام..

وسأله مصطفى فى دهشة :

– ماذا تعمل فى باريس..

وقال برعى ضاحكا :

– أعمل كل شىء وأى شىء.. أقدم كل أنواع الخدمات وأقوم بكثير من عمليات التصدير والاستيراد.. وهذا الإفلاس الذى طرأ علىَّ ليس إلا حالة نادرة لا تلبث أن أطردها.. إنى أعرف كيف أكسب كثيرا وعلى استعداد لأن أعلمك كيف تكسب.. أين تحب أن نجلس..

وقال مصطفى كأنه يهرب بأنفاسه بعيدا عن أنفاس هذا الرجل..

– آسف.. إنى متعب.. ولا شك أننا سنلتقى.. تصبح على خير.. أو الأقل بونسوار بما أننا فى باريس..

وتركه وصعد إلى غرفته..وهو يحس بعدم الاطمئنان إلى هذا الرجل.. بل يحس كأنه إبرة مسمومة غرزت فى لحمه.. وجلس على السرير وأمسك بورقة وقلم يكتب خطابا إلى هدى..

« عزيزتى هدى.. إنى وحيد فى باريس.. ولكن فى صدرى زحام هائل وضجيج مزعج لا يترك لى الإحساس بوحدتى.. إن الحياة هنا غريبة.. تعيش فيك ولا تتركك تعيشين فيها.. و..»

وسقط القلم من يده وانكفأ على ظهره نائما.. ولم يتم هذا الخطاب أبدا..

وفى صباح اليوم التالى نزل من غرفته وفوجىء بهذ الرجل واقفا كأنه يسد الباب عليه.. ونظر إليه فى امتعاض كأنه يواجه منظرا مقرفا والرجل يصيح :

صباح الخير.. إنى فى انتظار أن أقضى اليوم كله معك.. مع مصر..

وقال مصطفى فى تأفف :

– ألا تبحث عن عمل وقد قلت لى إنك مفلس..

وقال برعى ضاحكا :

– إنى أبحث داخل أفكارى حتى أجد ما أقدم عليه من عمل.. وأقوى ما يلهم أفكارى هو أن أكون معك.. أى مع مصر.. إنى استوحى مصر فى كل عمل.. أقدم عليه..

وسار بجانبه فى شوارع وحوارى الحى اللاتينى وهو لا يكف عن الكلام.. ويلقى عليه سؤالا بعد سؤال.. إنه لا يسأله عن مصر.. ولكنه يسأله عن كل ما فى حياته هو شخصيا.. ومصطفى لا يجيب إلا فى كلمات عابرة وهو يلوى شفتيه فى زهق.. وقد لا يجيب ويقف متطلعا إلى أحد مشاهد الطريق كأنه يستلهمه بعض فنه.. وقد بدأ برعى يدمج مع أسئلته آراء سياسية يفيض فى الحديث عنها.. ومصطفى يترك أذنيه حرتين.. قد يسمع أو لا يسمع.. ولكن برعى يقول إن مصر قد أصبحت مستعمرة أمريكية.. ويعدد الشواهد على هذا الاستعمار الأمريكى.. ثم يهز مصطفى وهو صامت كأنه ينطقه ويردد :

– ما رأيك.. ما رأيك..

وقال مصطفى فى لهجة ساخرة :

– يخيل إلى أن مصر منذ وجدت وهى تعيش الاستعمار.. وقد تكون الآن تعيش الاستعمار الأمريكى.. ومنذ سنوات كانت تعيش الاستعمار الروسى.. وقبل ذلك كانت تعيش الاستعمار البريطانى.. ومر عليها الاستعمار الفرنسى.. وعاشت مئات السنين فى الاستعمار التركى.. ومن قبله كانت تعيش الاستعمار الرومانى واليونانى.. ولكن مصر كانت قادرة دائما على الاحتفاظ بشخصيتها المستقلة حتى وهى مستعمرة.. كل ألوان الاستعمار تمر بها ولكنها تبقى مصر.. لا تستطيع أى قوة استعمارية أن تهدم شخصيتها المصرية وتفرض عليها أى شخصية أجنبية..

وقال برعى ساخرا :

– إنك لا تعيش وطنك.. كأنك لست مصريا.. ألا تحس بعنف

الفقر الذى يفرضه الاستعمار الأمريكى على مصر.. ألا تعترف بأن العمال والفلاحين فى مصر أصبحو أقرب إلى العبيد.. لايستطيعون أن يفرضوا كيانهم ليحكموا أنفسهم رغم أنهم القوة الوحيدة التى تمثل مصر..

وقال مصطفى وكلماته لا تزال ساخرة :

– تذكر أهرامات الجيزة التى بنيت بلا أى دافع أجنبى استعمارى.. من الذى بناها.. إنهم العمال والفلاحون المصريون.. وربما كانوا يساقون بالكرباج.. ويعاملون كأنهم عبيد.. ولكن شعب مصر يملك القدرة على البناء ويتحمل ما يتحمله لإقامة هذا البناء.. لأنه يؤمن بأن هذا البناء سيبقى له حتى لو كان قد فرضه ملك من الملوك فالملوك ستذهب ويبقى البناء لمصر.. وكذلك الاستعمار الأجنبى سيذهب ويبقى البناء لمصر.. كما ذهب الاستعمار وبقيت قناة السويس ملكا لمصر.. ولنعد إلى ذكر أهرامات الجيزة.. إن الشعب الذى عانى كل هذه المعاناة ليرفع الأحجار الثقيلة إلى القمة.. هو نفس الشعب الذى خرج منه العباقرة الذين رسموا الهندسة المعجزة للبناء.. وخرج منه العباقرة الذين رسموا على الجدران هذه اللوحات وأقاموا هذه التماثيل الخالدة.. وهو ما بقى يذهل العالم بالعبقرية المصرية حتى اليوم.. لذلك فإنى لا أهتم ولا أتأثر بأى قوة أجنبية تحاول أن تسيطر على مصر.. لأنى أؤمن بأن مصر هى دائما الأقوى من أى قوة تحاول محو شخصيتها..

وقال برعى فى غيظ :

– إنك لا تؤمن بالحرية.. ولا تريد أن تعيش فى وطن حر..

وقال مصطفى فى بساطة :

– أنا فنان.. وأعيش أنا وفنى فى منتهى الحرية.. حتى لو وصلت بى الحرية إلى الفقر.. وكانا قد وصلا إلى حديقة سان جرمان القريبة من الحى.. وألقى مصطفى بنفسه على مقعد وشد فرخ

الورق الذى يحمله وأخرج القلم من جيبه.. وقال :

– آسف.. دعنى أرسم..

وقال برعى فى سرعة :

– ألن نتناول طعام الغداء.. إنى لم أفطر.. وقال مصطفى وهو يشير بيده :

– هناك كشك يبيع السندويتشات.. خذ لنفسك ساندويتشا وعد لى بواحد..

وهمَّ أن يضع يده فى جيبه ليعطيه ثمن السندويتش الذى سيشتريه له.. ولكن برعى هز شفتيه ممتعضا.. قال :

– لماذا تعرض نفسك لهذه الأطعمة التافهة.. قم معى.. إنى أدعوك إلى الغداء فى مطعم كبير معروف.. إنى لم أصل إلى منتهى الإفلاس..

وقال مصطفى وهو يتظاهر بأنه بدأ فى الرسم..

لا.. إنى فى حالة التفرغ للرسم..

وقال برعى بعد أن تردد قائلا :

– إذن سأذهب أنا لتناول غدائى وأعود إليك..

ولم يرد مصطفى بكلمة.. وما كاد يبتعد عنه برعى ويختفى عن ناظريه حتى قام من جلسته وأخذ يجرى بين الشوارع والحوارى كأنه يهرب منه.. إنه يحس كأنه حمل ثقيل ألقى عليه.. أو قيد أصبح يقيد ساقيه.. وينهش انطلاقه الفنى.. ورغم ذلك فما كاد المساء يهل حتى وجد برعى أمامه.. وابتسم برعى ابتسامة مرتاحة كأنه يهنىء نفسه بأن وجده أخيرا.. وظل ملتصقا به حتى ذهب معه إلى المقهى الذى اعتاد أن يقضى فيه كل مساء.. ولكن برعى لم يستطع أن يحتمل الليل الطويل.. إنه ليس فى شباب مصطفى.. ثم إن مصطفى لا يتكلم.. كأنه يرفض الكلام.. لذلك استأذن منصرفا وعاد إلى الفندق لينام.. ومصطفى جالس مع نفسه كأنه فى انتظار زانيدا..

ولكنها لم تظهر فى المقهى هذه الليلة..

ومضت أيام وبرعى مستمر فى ملاحقة مصطفى الذى يتابع محاولات الهرب منه.. إلى أن التقيا فى الصباح الباكر أمام باب الفندق قبل أن يهرب مصطفى.. وقال برعى :

- اليوم السبت.. هل ستذهب إلى المحاضرة التى تلقى فى دار الحرية.. لقد قلت لى إنك تنشر فيها لوحاتك..

قال مصطفى فى دهشة :

- ما أدراك أن هناك محاضرة تلقى فى هذه الدار..

- وقال برعى كأن كلماته تتلجلج فوق لسانه :

- إنى أعرف كل ما يجرى بين الأوساط المصرية والعربية فى باريس.. هذا اختصاصى.. والمحاضرة التى تلقى فى دار الحرية معروفة مشهورة..

وقال مصطفى فى إصرار :

- لن أذهب لسماع هذه المحاضرات إلا بعد أن أرى لوحتى منشورة فى الجريدة..

وصاح برعى :

- لقد نشرت أمس..

قال مصطفى :

- لقد بحثت عن المجلة فى كل مكان ولم أجدها.. كأنها مجلة لا تنشر ولا تباع فى باريس..

قال برعى كأنه يهلل :

- لقد وجدتها أنا.. لا يمكن أن تضيع منى أى نشرة عربية تصدر فى باريس.. وقد قدموا لوحتك فى صفحة رئيسية.. انتظر دقيقة سأحضرها لك..

وجرى برعى إلى غرفته وعاد يحمل المجلة.. وتلقاها مصطفى فى لهفة وقلب صفحاتها وأصابعه ترتعش إلى أن وجد لوحته منشورة

كما هى.. ولكن على رأسها عنوان غريب.. « مصر الجائعة ».. بريشة الفنان المصرى الكبير الأستاذ مصطفى بركات.. ثم بجانب إمضائه على اللوحة أضافوا كلمة « القاهرة ».. إنه لم يكن يعبر بهذه اللوحة عن أن مصر جائعة.. إنها مجرد لوحة لشخص فقير وهو واقف أمام مخبز العيش ولسانه يتدلى.. كل ما يريد أن يعبر عنه هو أن فى مصر أفرادا لا يملكون ثمن رغيف العيش.. وليست مصر كلها جائعة.. ثم لماذا تعمدوا أن ينسبوا الصورة لمصر.. ولماذا تعمدوا أن يكتبوا اسم « القاهرة » بجانب إمضائه.. مع أنه رسم اللوحة فى باريس وليس فى القاهرة.. وأخذ يقلب فى بقية صفحات المجلة.. إن كل صفحة تحمل هجوما قاسيا لاذعا على كل ما فى مصر.. وفضائح مصرية لم يسمع عنها ولا يستطيع أن يسلم بها ويصدقها..

وتدلت يده بالمجلة وأغمض عينيه كأنه يهم أن يبكى.. وبدأ يحس كأنه فعلا طفل ساذج كما قيل عنه فى مصر.. إنه لم يسأل نفسه عمن يتولى إصدار هذه المجلة.. ومن يفرض عليها اتجاهها ضد مصر.. لم يكن يكفى أن يعرف اسم وشكل رئيس التحرير.. وكان يجب أن يعرف لحساب من يعمل هذا الرئيس.. ومن يمول إصدار هذه الجريدة.. وهو لم تكن تراوده مثل هذه التساؤلات وهو فى مصر.. لأنه يعرف أن كل الصحف تصدر لحساب الحكومة المصرية.. وحتى صحف المعارضة تصدر بتمويل من الحكومة.. ولكن حكومة فرنسا لا يمكن أن تصدر هذه الصحف والمجلات.. لا شك أن حكومات أو هيئات أجنبية هى التى تصدرها.. فمن هى الحكومة أو الهيئة التى تتولى إصدار جريدة تحمل كل هذا الهجوم على مصر..

وقال له برعى وقد خيل إليه أن مصطفى ذاب من شدة انبهاره بلوحته التى نشرت :

- هل اطمأننت على لوحتك.. هل أرسلت لوحة أخرى لتنشر فى العدد القادم.. وهل ستذهب للاستماع إلى محاضرة اليوم..

وهب مصطفى صارخا وهو يقذف بالمجلة على الأرض :

- لن أرسم لهذه المجلة.. ولن أسمع كلمة مما يقولونه.. أريد أن أعرف الاتجاه السياسى لهذه المجلة ولحساب من تصدر..

ونظر إليه برعى فى استغراب وقال وهو يبتعد كأنه خائف منه.

- لا أدرى شيئا أكثر مما أقرأه فى هذه المجلة.. عن إذنك..

واختفى عنه برعى..

اختفى كله.. حتى أنه أراد أن يلقاه ليستمر معه فى مناقشة قد تعينه على ما ينتابه من ضياع.. فلم يجده.. وعرف أنه قد ترك الإقامة فى الفندق دون أن يودعه بكلمة.. اختفى فجأة كما ظهر فجأة..



ومضت الأيام ومصطفى مستسلم لحياته بين شوارع وحوارى باريس.. ولا يضيق أو يزهق أبدا من هذا الاستسلام.. إنه لا يحس بشوق إلى القاهرة ولا حتى يحس بأنه فى باريس.. إنه يحس كأنه منطلق فى السماء.. ربما كان أقوى ما يميز باريس أنها تحيط الفنان بمؤثرات ترفعه إلى السماء.. وكان يلتقى أحيانا فى الشوارع والحوارى ببعض المارين يحس فورا أنهم مصريون.. إن هنك قوة جذب غريبة بين كل مصرى والآخر وهما فى الغربة حتى وان لم يكن أحدهما يعرف الآخر.. وكان أحيانا يقضى ساعات بين بعض من يلتقى بهم من المصريين خصوصا الذين يبدو عليهم أنهم متشردون أو فنانون لا يزالون يبحثون عن الفن.. وقد عرض عليه البعض أن يقيم معهم.. إنهم يستأجرون كجماعة سكنا فى إحدى الحوارى.. يدفعون أجره مما فى جيوبهم حتى ولو لم يكن بينهم إلا جيب واحد يحمل الأجر.. ولكنه رفض أن ينتقل من فندق الغرباء

معهم.. إنه يريد أن يعيش وحيدا فى السماء ويخشى أن يهبطوا به ليعيش معهم على سطح الأرض..

ولكن مصطفى تنبه فجأة إلى أنه على وشك الإفلاس.. لم يعد فى جيبه إلا بضعة فرنكات.. والواقع أن انبهاره بوجوده فى باريس انساه أن يحسب حسابا لتكاليف هذا الوجود.. فلم يتعمد أن يبحث عن الكسب وعاش مكتفيا بقيمة بدل السفر الذى أرسلته له المؤسسة الصحفية من مصر.. ولم تكن قيمته تتجاوز الإقامة شهرين.. وكل ما كسبه فى باريس هو ما دفعه له أنطون الصباغ عندما قدم له لوحة للنشر فى مجلة الحرية.. والشهران اللذان حددتهما المؤسسة الصحفية لغيابه عنها على وشك الانتهاء.. وهو لن يعود إلى مصر.. سيبقى فى باريس.. وهو يتأكد أن المؤسسة لن ترسل إليه أى مبلغ آخر كبدل سفر.. بل ربما لم يعد بالنسبة للمؤسسة مجرد موظف فى سفر.. لقد قطع كل ما يمكن أن يصله بها.. لم يرسل حتى مجرد خطاب إلى أى مسئول فيها أو إلى أى صديق من زملائه.. ولعلهم سيحذفون اسمه من قوائمهم لو غاب أكثر من المدة التى اتفق معهم على أن يغيبها.. ليكن.. سيبقى فى باريس حتى ولو طردوه من عمله فى مصر.. وحتى لو عاش فقيرا.. إن الفقر فى باريس غير الفقر فى مصر.. إن فقر باريس له طعم لذيذ.. طعم الأمل المفتوح وسماء الفن الزاهية.. وعاش الفقر.. يطوف الشوارع والحوارى ويجلس فى أى مكان ليرسم لوحة خطرت على خياله ثم يأخذها معه ليلقى بها فى غرفته بين عشرات اللوحات الملقاة فيها..

ودخلت إليه مدام مونيك.. مديرة الفندق أو لعلها مالكته.. وقد تعود منذ مدة أن يستقبل مدام مونيك كلما دخلت عليه فى جفاء ويدير لها ظهره حتى لا تقدم على نهشه وامتصاص شبابه.. فهى تأخذ ولا تعطى.. وإن كانت فى أحيان نادرة استطاعت أن تتغلب على جفائه وتعود لنهشه.. ولكنها فى هذا اليوم دخلت إليه وهى فى

منتهى التـهجم وصاحت كـما تعود صـياحهـا وهى تحاسب زبائن الفندق وقالت :

– انتهـى المبلغ الذى دفعـته للإقامـة فى هذه الغرفـة.. وعليك أن تدفع إيجار ما تريده للإقامة مزيدا من الأيام..

وقال مبهوتا فى صوت خفيض :

– ليس معى ما أدفعه..

وفكر بسرعة كـأنه يستلهم عقله.. واحس كأن الـواقع يدفعه إلى منتهى السفالة.. والتصق بها واحتضنها بذراعيه قائلا :

– اصبرى على يوما أو يومـين.. وسأدفع.. إنى مع الأيام لم أعد أحس بأنى أقـيم فى فندق.. ولكنى أحس بأنى أقـيم فى بيـتى ومع امرأتى ولذلك أنسى أن أجمع ما أدفعه من إيجار..

ورفعت إليه مـونيك عينيها الواسعـتين تبحلق فيه كأنهـا مترددة فى الاستسـلام.. ثم غلبتها ابتسامـة قفزت إلى شفتيـها.. وكان هو الذى بدأ بالقبلة ولم يتركـها لتبدأ هى كما عـودها.. ثم كان هو أيضا الذى بدأ يدفعـها إلى الفراش دون أن ينتظر أن تبدأ هى بـدفعه.. إن فقره يدفعه إلى استغلال موهبته فى إغراء النساء العجائز..

وقبل أن تخرج مونـيك من الغرفة وقفت أمام مجـموعة اللوحات المركونه على الحائط وأخذت تقـلب فيها وابتسامتـها الناطقة بالشبع لا تزال بين شفتيـها.. ثم اختارت لوحة حملتـها وهمت خارجة دون أن تستأذنه.. وصاح كأنها تأخذ معها قطعة من لحمه :

– إلى أين تأخذين هذه اللوحة ؟

وقالت مونيك كأنها صاحبة حق :

– سأضـعهـا داخل برواز وأعلقـها فى المدخل ربما اسـتطعت أن أبيعها لمن يدفع أى ثمن.. ولوت شـفتيها كأنها لا تعـتقد أن أى لوحة له يمكن أن تباع..

ومرت أيام ومصطفى لا يستطيع أن يجـد وسيلة لجمع أى مبلغ

يدفعه للفندق.. بل إنه بدأ يعجز عن شراء الأدوات التى يحتاج إليها فى رسم لوحاته.. وقد أصبح مستسلما استسلاما كاملا لمدام مونيك.. لقد أصبحت تمده بطعام الإفطار.. وإن كانت تفرض عليه أن يوقع على إيصال بثمن ما تقدمه له.. وأحيانا يكتفى بطعام الإفطار حتى اليوم التالى.. ويجد فى معاناة الجوع متعة لإحساس بأنه شهيد فنه.. وأحيانا يعجز عن تحمل الجوع فيعود إلى مونيك لعلها تتعطف عليه بوجبة أخرى ويوقع على إيصال آخر..

وبدأ يحس كأنه عاجز عن أن يعيش فى باريس.. إن سذاجته لا تتسع للحياة فى أى مكان إلا إذا اعتمد على من ينتشله من الفقر.. والخواطر تتكاثف فى رأسه.. وبدأ يسائل نفسه.. لماذا يرفض نشر لوحاته فى مجلة الحرية.. إنها تمده بحق الحياة فى باريس وهو ليس مسئولا عما ينشر فى هذه المجلة من كلمات تهتك كل ما فى مصر.. إنه ليس مسئولا إلا عن اللوحة التى يرسمها وينشرها فيها.. وهو لا يرسم إلا ما توحى إليه به مصريته.. حتى لو كان فى لوحاته ما يعبر عن سوء الحالة فى مصر.. فهى لوحات تعبر عن آراء مصرية وليست أجنبية.. ثم إنه يستطيع أن يتفق مع أنطون على مراعاة ما يحيط بنشر لوحاته..

وذهب إلى مجلة الحرية وفوجىء وهو على السلم بلقاء برعى محمد برعى.. وحاول برعى أن يتجاهله ولكن مصطفى تعمد الاصطدام به وقال فورا دون تحية ودون أن يقدم له يد المصافحة :

– ماذا تفعل هنا..

وقال برعى ضاحكا ضحكة مفتعلة :

– لقد قلت لك إنى أعمل كل شىء وأى شىء.. عن إذنك..

وفر برعى منه وجرى من أمامه دون أن يتيح له أن ينطق بكلمة أخرى..

ووقف مصطفى مذهولا.. ربما كان برعى أحد أفراد التكوين الذى

يصدر هذه المجلة وكانوا قد أرسلوه إليه ليتجسس عليه ويقدم معلومات عنه.. وعاد يحس بأنه فى منتهى السذاجة.. وأنه لم يحاول أبدا أن يكشف سر إصرار برعى على مصاحبته عندما كان يقيم معه فى الفندق.

وقاوم مصطفى ذهوله وصعد إلى مكتب أنطون الصباغ رئيس التحرير.. واستقبلته السكرتيرة.. إنها عربية.. لعلها جزائرية.. أو لبنانية.. أو عراقية.. لا يدرى.. ولم تفتح له السكرتيرة باب مكتب رئيس التحرير مباشرة كما كانت تفعل.. ولكنها طلبت منه فى رقة أن ينتظر.. ودخلت هى ثم عادت لتقول له إن رئيس التحرير يعتذر عن لقائه لأنه مشغول.. وصدم مصطفى واشتد ذهوله وقال وهو ينهج :

– متى أستطيع أن ألقاه..

– وقالت السكرتيرة فى إهمال وهى تدير وجهها عنه :

حاول.. وقد يستطيع يوما أن يجد وقتا للقائك..

وخرج مصطفى يجر مشروعه وقد فشل وأمله قد ضاع.. لابد أن التقرير الذى قدمه برعى محمد عنه كان كافيا لرفض الجهة التى تصدر هذه المجلة التعامل معه..

وسار الساعات بين الشوارع والحوارى حتى ألقى بنفسه على مقعد فى المقهى القريب من الفندق.. وكانت الفتاة الفلبينية زانيدا هناك.. وحدها.. وهرعت إليه وابتسامتها تزغرد له وتزيد عليها قبلات على وجنتيه.. وأحس بالراحة وهى بجانبه وإن كان لم يستطع أن يشاركها ابتسامتها.. ولكن راحته إليها دفعته إلى أن يشكو إليها.. يشكو الفقر.. وهو لا يدرى كيف يكسب ومن أين يكسب.. وصاحت زانيدا من خلال ابتسامتها الرائعة :

– إنك فنان رائع.. ومن حقك أن تعيش..

ودخل فى هذه اللحظة مجموعة من الرجال إلى المقهى.. ومالت

زانيدا على مصطفى هامسة :

– سترسم الآن وجها من هذه الوجوه.. وستأخذ الثمن.. لا تترك ما ترسمه بلا ثمن كما فعلت معى.. ثم قامت من جانبه وجلست مع هؤلاء الرجال وهم يستقبلونها مرحبين وتثير فيهم كلاما وضحكات ثم شدت واحدا منهم وجاءت به إلى حيث يجلس مصطفى وقالت له :

– إن مسيو برنارد يريد أن يرى كيف تتصوره وأنت ترسمه..

وفرد مصطفى فرخ الورق فى حماس وأمسك قلمه وأخذ يرسم فى سرعة عجيبة.. ثم قدم ما رسمه إلى الرجل وزانيدا تطل فيه وكلاهما يضحك من خلال نظرات منبهرة.. وقال الرجل من خلال ضحكة :

– إنى متأكد أنك رسمتنى ولكن أين أنا..

وهمست زانيدا فى أذن مسيو برنارد فأخرج من جيبه مجموعة من الفرنكات التقطتها زانيدا قبل أن تصل إلى يد مصطفى.. ثم عادت تهمس فى أذن مسيو برنارد فأخرج مجموعة أخرى من الفرنكات أضافها إلى المجموعة الأولى وناولتها زانيدا إلى مصطفى..

واكتشف مصطفى كيف يكسب ويعيش فى باريس.. أصبح يجلس فى المقهى ويرسم الزبائن ويقبض الثمن.. والرسامون فى مصر يرفضون احتراف رسم زبائن المقاهى.. كل منهم لا يريد أن ينزل إلى مستوى القرداتى الذى يسوق القرد ليشحذ من الزبائن أو الحاوى.. أو عازف البيانولا.. كلهم شحاذون.. وهم لا يريدون أن ينزلوا بفن الرسم إلى مستوى الشحاذة.. ولكن الرسامين فى باريس يملأون المقاهى لرسم وجوه الزبائن.. حتى أنهم يقسمون اختصاص كل منهم بمقهى معين حتى لا يتزاحموا ويتنافسوا فى مقهى واحد.. وهم لا يحسون كأنهم يشحذون ولكن كلا يحس بأنه فنان كبير يقدم روعة الفن لمن يستطيع أن يدفع الثمن.

وقد عرف مصطفى بين زبائن هذا المقهى الصغير.. وأصبح كل

زبون يقبل عليه متمنيا أن يرسمه.. وأصبح يقضى معظم ساعاته فى المقهى وصاحب المقهى يقدم له طلباته مجانا لأنه يشد إليه الزبائن.. وكان يجد ساعات يهرب فيها إلى الشوارع والحوارى ثم يجلس فى حديقة ليرسم لوحة خالصة للفن..

ولم يكن يكسب كثيرا من زبائن المقهى.. ولكنه يكسب ما يكفى حاجته.. ثم اكتشف أنه يستطيع أن يكسب اكثر بعد أن عرف أن سوق الرسم فى حى مونمارتر أوسع من سوقه فى الحى اللاتينى.. والصيف قد دخل وباريس ازدحمت بالسياح الذين يشدهم حى مونمارتر فانتقل من الحى اللاتينى واستطاع أن يكسب حق الجلوس على أحد أرصفة مونمارتر ليرسم الوجوه التى تقدم إليه ليرسمها.. ثم أصبح يحمل معه إلى مونمارتر لوحاته الفنية ويركنها تحت قدميه كأنه يعرضها للبيع.. ولم يكن يبيع منها كثيرا.. ونادرا ما يقف أى إنسان ليقلب فيها متفرجا.. ولكنه كان يبيع..

ورغم أنه أصبح يكسب ما يفيض عن حاجته إلا أنه لم يفكر فى ترك فندق الغرباء والانتقال إلى فندق آخر أرقى أو أحد فنادق حى مونمارتر الذى أصبح يقضى فيه كل لياليه.. وقد دخلت عليه مدام مونيك والسعادة تبرق بابتسامتها وقالت :

– لقد بعت لوحتك بخمسين فرنكا.. واحتفظت بالمبلغ خصما من حسابك..

ودس مصطفى يده فى جيبه وأخرج ثروة من الفرنكات وقال فى عظمة :

كم يبلغ هذا الحساب..

ودفع كل ما طلبته مونيك دون أى مراجعة.. كأنه يدفع فدية إطلاق سراحه.. وعاد يتجهم فى وجهها ويدير لها ظهره كلما دخلت عليه.. لقد أصبح حرا.. وهو الذى اختار أن يعيش حريته فى الحى اللاتينى وفى فندق الغرباء.. ولا تربطه هذه الحرية إلا بامرأة

واحدة.. وهى زانيدا.. حرية متعة الراحة التى تجمعهما.. كل منهما يرتاح من زبائنه وهو مع الآخر.. ولا أكثر من الراحة.. وكان كل منهما لا يريد أن ينزل بالآخر إلى مستوى الزبائن.. وكان فى إحدى ليالى مونمارتر قد التقى برفعت عبدالرحمن.. وهو صحفى من مصر جاء إلى باريس لقضاء الصيف مدعيا أنه يقوم بعمل صحفى كما هى العادة دائما.. لم يكن صديقه ولكنه كان يعرفه.. وأخذ رفعت عبدالرحمن يسأله عن حياته ونشاطه الفنى فى باريس.. وانطلق مصطفى يتحدث عن نفسه كأنه يتحدث عن احلامه.. ويقول إنه استطاع أن يجذب باريس كلها إلى فنه.. وأصبح معروفا تتهافت عليه شخصيات المجتمع الراقى ليرسمها.. حتى أنه مضطر أن يحدد مواعيد بعيدة لكل من يطلب أن يرسمه.. كما أنهم يتهافتون على لوحاته حتى أنه أصبح يتعب فى جمع هذه اللوحات ليعرضها فى كل معرض يقيمه لنفسه.. وهو سيسافر بعد شهر إلى النمسا فقد دعى للعرض فى معرض يقام فى فيينا.. وبعدها سيعرض لوحاته فى روما.. و.. و..وهو يتكلم دون أن يحس بأنه يكذب.. ولا يحس بأى دافع للكذب.. ولكنه فقط يتحدث عن أحلامه.. إنه يقدم نفسه كما يريد أن يكون لا كما هو كائن..

وصاح الصحفى رفعت عبد الرحمن فى حماس :

– سأنشر تحقيقا عن مجدك الفنى.. تحقيقا عن الفنان المصرى الذى استطاع أن يغزو باريس بفنه.. وستفرح وتهلل لك مصر..

ثم قام رفعت وأخذ يلتقط عشرات من الصور الفوتوغرافية له وللوحاته..

وبعد أسابيع عاد إليه رفعت وهو يحمل له الجريدة المصرية.. إنها تضم عددا من الصفحات عن مجده الفنى وعن انتصاراته الفنية.. فى أوروبا.. وصوره الفوتوغرافية تغطى الصفحات ومنها صورة منشورة على الصفحة الأولى من الجريدة..

وطار مصطفى من الفرحة..

هذا أول انتصار يحققه.. انتصر بأن أصبح معروفا فى مصر بعد طول ما عاناه فيها.. ولكنه ليس معروفا فى باريس.. وسيبقى إلى أن تعرفه باريس..

كم مضى عليه وهو مقيم فى باريس ؟!

ثلاث سنوات.. أكثر أو أقل بضعة شهور.. فهو لا يهتم بتحديد تواريخ أيامه.. وهو لا يزال يقضى كل لياليه فى مقهى الحى اللاتينى ثم ينتقل إلى رصيف حى مونمارتر.. ويغتصب ساعة من ساعات النهار يقضيها فى حديقة « سان جرمان دبريه » يحاول أن يرسم لوحة.. وقد اكتسب بعض عادات فن الأسواق.. وتعود أن ينظر إلى المارين به مستجديا ويلوح أمامهم بريشته كأنه يغريهم بأن يقفوا له ليرسمهم ويدفعوا الثمن.. كأنه أصبح أقرب إلى شحاذ.. ولكن يبدو أنه عرف بأنه يرسم الوجوه فى خطوط شاذة.. فلم يعد يقبل عليه إلا السكارى أو السياح الذين يبحثون عن العجائب.. حتى ينطلقوا متجمعين ضاحكين عندما يرون أنفسهم فى الصور التى يرسمهم بها.. ولم يستطع أن يحقق أى ثراء يغير من حالته.. ولكنه لا يزال يكسب ما يكفيه لتغطية حاجته.. وخصوصا ما يكفى لأن يدفع لمدام مونيك أجر الغرفة التى يقيم فيها بفندق الغرباء.. وقد ضاقت مدام مونيك ببروده وتجاهله لها ولم تعد تلقاه على الفراش كل صباح وتستنزف شبابه كما تعودت.. وإن كانت لا تزال فى أيام متباعدة.. كل شهر أو كل شهرين.. يغلبها الجشع إلى الفراش.. وهو قد يستسلم لمجرد قضاء دقائق يلهى نفسه ويسلى فراغه.. وينال طبق الإفطار الشهى الذى تكافئه به مونيك على أن يدفع الثمن.. وقد يرفض ليتمتع بقدرته على الرفض والشماتة فى مونيك.. وهى لن تحاول أن تأخذ لوحة من لوحاته المركونة لتبيعها كما سبق أن باعت له لوحة.. إنها لا تريد أن تبذل أى مجهود

لإسعاده ولا تحس بحاجتها إلى بيع أى لوحة له ما دام قادرا على أن يدفع الإيجار من جيبه.. وهو لا يهتم.. إن مونيك ليست سوى قطعة من أثاث هذا الفندق لا تهمه إلا إذا احتاج إليها.. وهو لا يحس بالحاجة إليها.. إنما يحس دائما بحاجته إلى زانيدا.

.. وهو لا يلتقى بها أبدا على موعد.. ولكنه قد يجدها صدفة جالسة فى المقهى القريب أو لا يجدها.. وهو لا يزال يحس بحاجته إلى الراحة الكاملة التى تشمله وهو جالس معها.. لا شك أن هناك موضوعا واحدا يجمعهما فى أحاسيس مشتركة ودوافع مشتركة وآمال مشتركة.. وربما كان يجمعهما هو موضوع البحث عن زبائن.. هى تبحث عن زبائن تبيع لهم جسدها.. وهو يبحث عن زبائن يبيع لهم لوحاته.. وهو موضوع يرفعهما أحيانا إلى روعة النجاح ويهبط بهما أحيانا إلى حضيض الفشل.. ويحيطهما دائما بإحساس السخط على الدنيا.. واحتقار كل الناس.. إن كليهما مومس.. هى مومس بجسدها وهو مومس بريشته.. إلى هذا الحد بدأ يسخط ويثور على نفسه..

وكان مصطفى يلتقى بكثير من المصريين المقيمين فى باريس.. ولا يلتقى بهم إلا صدفة.. وكان يسمع كثيرا عما وصل إليه كل منهم فى غربته.. إن بعضهم وصل إلى الثراء وإلى الاستقرار.. ولكن ليس بين هؤلاء أى واحد يعيش حرا مستقلا بنفسه.. إن كلا منهم فى خدمة جماعة سياسية أو تجارية.. وهى جماعات تمثل كل الاتجاهات وكلها تعمل من تحت الأرض.. وهو لا يطيق أن يعيش يوما واحدا تحت الأرض.. وقد سبق أن هرب من العمل مع مجموعة مجلة الحرية بعد أن اكتشف أنها تعمل تحت الأرض.. ثم أنه يريد أن يعيش فى باريس وهو حر مستقل بنفسه.. إنه لا يحتمل أى ثقل يلقى عليه أو أى إحساس بأنه خادم مطيع.. إن كل أحاسيسه وانطلاقاته مركزة فى أصابعه التى تحمل الريشة وترسم.. إلى حد

أنه لا يحس بما يمكن أن يدفعه بعيدا عن أصابعه.. بل إنه حتى اليوم لم يفكر فى أن يخرج من باريس ولو فى رحلة سياحية.. حتى لو كانت سياحية داخل فرنسا وليست فى دولة أخرى.. إن كل أحاسيسة مركزة فى أن يرسم باريس وهو لم ينته من رسمها بعد.. ووجد نفسه بلا تعمد مستسلما لإطلاق لحيته.. ربما لأن معظم الفنانين المزدحمين فى شوارع باريس يطلقون لحاهم.. كأن اللحية هى مظهر يدل على أن صاحبها فنان.. إنها مجرد « ديكور » يرسمه الفنان على وجهه ليبرز شخصيته ويؤكد أنه ليس مجرد إنسان عادى.. إنه فنان.. ولكن مصطفى بعد أن أغرق وجهه فى لحيته بدأ يحس - وبلا تعمد أيضا - كأنه أصبح متدينا.. إنه يذكر الله كثيرا.. ويقرأ الفاتحة فى الصباح مع يقظته من النوم.. ويعود يرددها قبل أن ينام.. وهمسات صامتة تتردد كثيرا حول لسانه.. الحمد لله.. أستغفر الله.. ربما لأنه رغم أنه يعيش فى باريس إلا أنه لا يزال مصريا.. واللحية فى مصر توحى بما لا توحى به فى باريس.. وتحمل فى مصر معنى غير الذى تحمله فى باريس..

وهو إلى الآن لم يرسل أى خطاب إلى مصر.. إلى أى صديق أو زميل ولا حتى إلى أخته أو إلى زوجها الذى فوضه فى قبض مرتبه من المؤسسة الصحفية التى كان يعمل بها فى مصر.. ولكنه فرح فرحة كبرى بالتحقيق الصحفى الذى نشره رفعت عبد الرحمن فى الصحيفة المصرية.. وأرسل خطابا له وزوده بكذبات أخرى لعله ينشرها.. ثم أصبح يكتب خطابات تحمل أخبارا كاذبة عن نفسه وعن ادعاء نشاط فنى له فى أوربا إلى كل من يتذكر أسماءهم من الصحفيين.. والغريب أنه كان يرسل هذه الرسائل دون أن يوقعها باسمه.. ليس من اللائق أن يوقع باسمه أخبارا عن نفسه.. وبدأ يشترى كل الصحف والمجلات المصرية التى تصل إلى باريس..

ولكنه لا يجد فيهـا ذكرا له ولو فى سطر واحد.. كأن الخطابات التى يرسلها لا تصل إلى أحد أو أنه ليس مهما لدى أحد.. ورغم ذلك فهو لا يزال يرسل هذه الخطابات التى لا تحـمل توقيـعه.. إنه لا يريد أن تنساه مصر.. حتى لو كان هو قد نسيها..

وبدأ يحس بإلحاح عنيف على خواطره بأن يعود إلى مصر..

ولكن.. كيف يستطيع أن يعيش فى مصر لو عاد إليها..

هل يمكن أن يعيش هناك على أنه فنان كبـير غزا باريس وفرض نفسه على كل أوربا كما يدعى..

وابتسم ساخـرا من نفسه.. لاشك أن مصر قـد نسيت هذا الادعاء. أو لعلها اكتشفت أنه كاذب.. أو مجرد فنان يعيش أحلاما لا تتحقق..

ثم إن المؤسسة الصحفيـة التى كان يعمل بها لا شك أنها شطبت اسـمه من بين العـاملين بهـا واستـغنت عنه وطردته وأوقـفت دفع مرتبـه.. إنه لم يرسل إليهـا أى لوحة من رسـمه ولا أى خطاب إلى رئيس التحرير منذ غاب عنها.. لقـد طرد نفسه منها قبل أن تطرده.. فـهل يبدأ فـى البحث عن عـمل جـديد فى مـصر ليكـسب ما يوفـر احتـياجـات حيـاته.. إنه لا يطيق أى عمل فى مـصـر.. كل العـاملين موظفون فى الحكومة.. وهو لا يطيق أن يكون موظفا حكوميا.. وهو يكسب فى باريس مـن الجلوس فى المقـهى يرسم صـور الزبائن أو يجلس على الرصيف ويرسم صور المارين.. فهل يستطيع أن يجلس فى مقاهى القـاهرة وعلى أرصفتهـا ليرسم ويبيع ويجمع مـا يكفيه مطالب حياته.. لم لا.. حـتى لو كان الرسامون فى مصـر يرفضون بيع فنهم على المقاهى فـيجب أن يرتفع بهم إلى المستـوى الحضارى الأعلى.. ويقنعـهم بأن الفن يجب أن يـفرض نفـسـه على الناس ولا ينتظر حتى يتعطـف الناس بالإقبال عليه.. سيـجلس هناك فى مقهى ويرسم ويعرض لوحاته على الرصيف.. ويترك الفن يأمر الناس بأن يمدوه بالرزق..

وبدأت نية العودة إلى القاهرة تغلبه.. سيعود..

ولكنه سمع أن بعض من كان غائبا عن القاهرة وعاد إليها قد قبض عليه قبل أن يدخل.. ربما من يقبض عليه كانت الحكومة تعلم أنه كان يعمل مع أحد مراكز الإرهاب التى تهدد مصر.. وهو لم ينضم أبدا إلى أى مركز ولا حتى مركز ثقافى برىء.. ولكنه تذكر اللوحة التى باعها لمجلة الحرية ونشرتها.. لا شك أنها مجلة معروفة بمعاداتها لمصر.. وقد تكون الأجهزة المصرية قد اكتشفت اللوحة التى رسمها فيها فسجلت اسمه بين المرفوضين الذين يعتقلون بمجرد وصولهم إلى مصر.. وفكر طويلا وهو يعتقد أنه اكتسب من الذكاء ما قضى على سذاجته السياسية.. ثم جلس وأخذ يرسم لوحة يعبر بها عن أمجاد مصر وقوتها التى تستمدها من أنها دولة عربية حرة.. رسم صورة فلاح مصرى عملاق وكل شخصيات الدول العربية تركع أمامه كأنها تستغيث به.. ثم حمل هذه اللوحة وذهب بها إلى مكاتب جريدة النصر العربى.. إنه يعلم أنها جريدة متحيزة فى الدفاع عن مصر وتمجيدها كأن الحكومة المصرية هى التى تمولها.. وألقى اللوحة أمام سكرتير التحرير قائلا :

- أرجو أن تنشر هذه الصورة.. ولا أريد أى ثمن أو أى اتفاق.. إنى مجرد مصرى يذوب فى حب بلده ولا يريد أكثر من أن يعبر عن هذا الحب..

وألقى سكرتير التحرير نظرة على اللوحة وانتفض واقفا يشد على يد مصطفى مرحبا به ويرجوه أن يستمر فى تزويدهم بلوحاته حبا فى مصر..

وصدرت الجريدة وعلى صفحتها الأولى اللوحة التى رسمها مصطفى بركات..

ولم يفرح مصطفى بالصورة مجرد فرحة ولكنه أحس

بالاطمئنان وهو يهنىء عبقريته.. ثم حمل الجريدة فى يده واتجه إلى المطار فى طريقه إلى القاهرة..



وكان وهو فى الطائرة يستعرض ذكريات أيامه فى باريس.. لقد كانت أياما غريبة ولم يصل خلالها إلى تحقيق أحلامه ولكنه حاول واستطاع أن يعيش غريبا ثلاث سنوات.. وكل الشخصيات التى دخلت حياته وهو فى باريس تمر على خاطره كأنه يشاهد فى خياله أحد أفلام الفيديو.. وضحك فى نفسه وهو يرى فى خياله مدام مونيك.. إنها صورة من منيرة هانم التى سبق أن دخلت حياته فى مصر.. كلتاهما عجوز.. وكل منهما تريد ما تريد الأخرى.. ولكن الفرق الكبير فى التعامل مع كل منهما.. إنهن فى باريس يفصلن بين حاجة الجسد وحاجة الحياة.. ولذلك ارتبطت مدام مونيك بجسده ولم ترتبط بحياته.. أما فى مصر.. فإن حاجة الجسد هى حاجة الحياة لذلك كانت منيرة هانم تحاول الارتباط بحياته لترتبط بجسده..

وتنهد فى حسرة عندما مرت فى ذاكرته صورة الفتاة الفلبينية زانيدا.. إنها الإنسانة الوحيدة التى كانت تهبه الراحة وهو جالس معها.. وربما كانت هذه الدقائق المريحة التى كانت تزوده بها هى كل ما كان يمده بالاستمرار فى احتمال باريس.. حتى أنه تعمد فى آخر ليلة قضاها فى باريس أن يشترى لها هدية بقدر ما كان قد بقى معه من فرنكات وذهب إلى المقهى الصغير ليعطيها لها ويودعها.. ولكنه لم يجدها.. وانتظر طويلا ولم تحضر.. إنهما لم يتعودا أبدا اللقاء على موعد.. وترك لها الهدية مع صاحب المقهى.. إنها الهدية الوحيدة التى اشتراها.. لم يشتر أى هدية لأى أحد فى مصر.. إنه يترك باريس وهو مفلس.. كأنه لم يكسب منها إلا بقدر حاجته للإقامة فيها.. ووجد نفسه وهو يرى فى خياله صورة زانيدا تخطر عليه

صورة هدى.. لقد كانت هدى تمنحه نفس الراحة قبل أن يغادر مصر إلى باريس ولكن الفارق كبير بين زانيـدا وهدى.. إن زانيدا محترفة ومتـفرغـة للبحث عن زبائن يلـعقون جـسدها.. ولكن هدى لـيست محترفة ومتفرغة لبـيع جسدها.. إنها فقط تحاول الوصول إلى عمل يوفر لها الاسـتقرار والأمان.. وهو لم ينس هدى أبدا ولـكنه كان قد فقد كل دافع إلى الاسـتقرار معها.. إنه لم يكن يسـتطيع أن يوفر لها أى استقرار أو أمان.. لا فى مـصر ولا فى باريس.. حتى ولو بمجرد تبادل الخطابات معهـا وهو فى غربته عنها.. ترى أين هدى الآن فى مصر.. وما هو حالها..

وانقطع شـريط الفـيديو الذى يدور فى رأسـه بمجـرد أن هبطت الطائرة مطار القاهرة.. وأخذ يعد نفسه كأنه سـيلاقى متاعب كثيرة حـتى يدخل مـصر.. ولكن ضـابط الجـوازات الجـالس فى صندوق زجاجى أخذ منه جواز السفر ثم قلب مجموعة من الصفحات يحتفظ بها بجانبـه كأنه يبحث عن اسمـه فيها.. ثم بسرعـة ختم على جواز السفر وأعاده إليه قائلا فى ابتسامة ساخرة :

– إن صورتك هذا كانت قبل أن تطلق لحيتك.. أليس كذلك..

وقال مصطفى وهو يحمد الله :

– فعلا..

ثم اختـطف جواز سفـره وجرى إلى الخـارج ووجهـه غارق فى لحيته فلا تبدو فيه ابتسامة فرحته.. إنه ليس متهما فى مصر..

وألقى بنفـسه فى سـيارة أجـرة وهو يحمل حـقيـبتـه القديمـة الصغيرة.. نفس الحقيبـة التى كان يحملها عندما سافر إلى باريس.. وألقى على السائق عنوان بيتِ العائلة القديم.. إنه لا يزال بيته وأخته وزوجها يقيمان فيه..

وعندمـا وصل أخـرج من جيبـه كل مـا بقى معـه من فـرنكات وأعطاها لسـائق سيـارة الأجرة.. وقـال للسـائق وهو يقلب فى هذه

الأوراق الغريبة عنه.. ولكنها قطع أوراق مالية :

– كم تساوى هذه الأوراق بالنسبة للجنيه المصرى..

وقال مصطفى فى تأكيد :

– إنها تساوى كل ما يمكن أن تطلبه أو ما يسجله العداد مع حساب البقشيش.. وعلى كل حال فإنى سأقيم هنا وتستطيع أن تجدنى لو عجزت عن صرفها..

وسكت السائق حائرا ثم حياه وابتعد.. وصعد مصطفى يجرى إلى بيته.. وفتحت له أخته الباب وذهلت وهى تراه أمامها.. ذهولا ليس فيه فرحة بل ذهول صدمة المفاجأة.. وقالت وكأنها لا تصدق عينيها :

– هل جئت..

وقال وهو يقبلها قبلة سريعة :

– جئت..

وقالت كأنها تتأوه :

– لم نكن ننتظرك..

وقال ضاحكا :

– ولا أنا كنت أنتظركم..

وحمل حقيبته ودخل الغرفة التى كانت مخصصة له.. ولكنه وجدها مقلوبة وتجمع عددا من أسرة الأطفال.. ولم يحاول أن يتساءل.. ألقى حقيبته وعاد إلى أخته.. وبدأ الحديث طويلا وأخته تبحلق فى لحيته كأنها تنظر إلى رجل غريب لا تعرفه.. وهو يحدثها عن باريس حديث أحلامه التى فشل فى تحقيق أى منها.. إلى أن دخل زوجها.. إنه هو أيضا تبدو عليه صدمة المفاجأة.. وصاح فى وجهه :

– لماذا لم ترسل إلينا بخبر عودتك حتى نعد كيف نستقبلك وكيف نعيش معك..

وقال مصطفى ضاحكا :

– لقد كنت أعيش دائما معكم.. حتى إنى لم أحس بعودة غائب..

وطال الحديث سخيفا مفتعلا وأخته وزوجها يلقيان نظراتهما من خلال الباب إلى حقيبته الملقاة كأنهما فى انتظار أن يقوم ويفتحها ليقدم لهما ما حمله من هدايا.. ولكن لا يبدو عليه إنه يحمل لهما أو لأولادهما شيئا.. وبدأ الحديث يزداد سخافة وبرودا.. إلى أن سأل مصطفى زوج أخته :

– متى طردتنى المجلة وقطعت مرتبى..

وقال زوج أخته وهو يبعد عينيه وهو ساخط كأنه بدأ يواجه الحساب :

– لم تطرد.. ولم يتوقف دفع مرتبك..

وفغر مصطفى فمه من الدهشة.. إن الحكومة لم تطرده رغم انقطاعه عن العمل كل هذه المدة.. إنها حكومة فى منتهى الكرم.. وفى منتهى الإحساس والإشفاق على موظفيها.. أو لعلها لا تحاسب أحدا من موظفيها.. ولا تتدخل فى حرية أحدهم إلا إذا واجهها بالعداء واتخذ موقفا سياسيا يقلقها.. وهو لا يعادى أحدا ولا علاقة له بأى موقف سياسى.. ولا يهم ما يقدمه الموظف من عمل نظير مرتبه.. إن المرتب ليس سوى توزيع الدخل المصرى على أفراد الشعب المصرى.. إنها نظرية قائمة على تحقيق الاشتراكية العادلة.. أو ربما لم تستطع الجريدة طرده لأنه سافر بأمر الوزير.. والوزير إلى الآن لم يغضب عليه ويصدر أمرا بطرده.. ربما كان الوزير قد نسيه فلم يغضب عليه أو يرضى عنه.. وتركه موظفا فى الدولة.. أى ألقاه فى سلة المهملات..

وقال مصطفى مبتسما :

– وكم تحتفظ لى من قيمة ما قبضته من مرتبى خلال كل هذه الشهور..

وصاح زوج أخته فى بجاحة :

– إنك لم تطلب منى أن أحتفظ لك بشىء.. وتركتنى مقتنعا بأنك فوضتنى فى قبض مرتبك حرصا منك على المساهمة معى فى الإنفاق على أختك وأولادها.. كما كنت تساهم قبل أن تسافر.. لذلك لم أحتفظ لك بشىء.. ولا قرش واحد..

وسكت مصطفى مبتسما ابتسامة مستسلمة.. هل يقوم ويضرب زوج أخته لأنه سرقه.. أم يرفع عليه قضية أمام المحاكم.. إنه لم يتعود أن يتخذ أى موقف فى مواجهة ما يمكن أن يواجهه خارج حريته الفنية.. ولكنه ابتسم وقال كأنه يستجدى : – هل تستطيع أن تقرضنى عشرة جنيهات.. أردها إليك من مرتب الشهر القادم.. إنى أحتفظ بكل أموالى فى باريس.. فقد أعود إليها.. وليس معى الآن أى نقد مصرى..

وابتلع مصطفى كذبته.. إنه لم يترك ولا فرنكا واحدا فى باريس.. ولكنه أصبح مدمنا للكذب.. وكأنه يتعلق بقطعة خشب طافية فوق المحيط حتى لا يغرق..

ولوى زوج أخته شفتيه مقروفا ثم قام ودخل غرفته وعاد يحمل إليه ورقة بعشرة جنيهات.. شدها مصطفى من يده كأنه يختطفها.. يختطف حقه.. وقام منطورا وخرج من البيت كأنه يهرب منه.. وأخذ يطوف شوارع وحوارى القاهرة ولا يحس إلا بأنه يطوف بشوارع وحوارى باريس..

ووجد نفسه داخلا مع المساء إلى المجلة التى يعتبر موظفا بها ولا تزال تدفع راتبه..

واستقبله زملاؤه بالأحضان والتهليل الصاخب وأطلقوا النكات حول لحيته التى فوجئوا بها تلف وجهه.. وبدأ يشعر بأنه عاد فعلا إلى مصر.. وقال له صديقه رؤوف :

– لقد عدت قبل موعدك.. العادة جرت على ألا يعود من يسافر إلا

بعد خمس سنوات.. ليقضى شهورا ثم يعود ويسافر.. فمتى تعود إلى باريس ؟

وقال مصطفى ضاحكا :

– إنى كما أنا.. لا أدرى لماذا جئت ولا متى أعود.. إنى ملك القدر..

– وأنت كيف حالك.. وقال رؤوف كأنه يعتذر عن حاله :

– إنى كما أنا.. متزوج ولى طفل.. وقد أفاض علىّ الله بخيراته..

وبدأ مصطفى يتذكر أن رؤوف لم يعد الفنان المنطلق الجرىء الذى عرفه فى شبابه.. إنه هو نفسه قد قال له إن الزواج قد انتزعه من انطلاقه الفنى.. وجعل منه فنانا تجاريا يبحث عن رزقه.. فن الفول والطعمية.. ولعله الآن أصبح موظفا كبيرا ويكسب كثيرا إنه فعلا أصبح رئيس قسم الرسم بالمجلة.. وأصبح معروفا بلوحاته التى يغرق بها السوق..

وانسحب مصطفى بعد أن هدأت ضجة استقباله وهو ينظر إلى رؤوف كأنه يشفق عليه مما وصل إليه.. وهب للقاء رئيس التحرير..

واستقبله رئيس التحرير فى برود زاعق صريح.. وسواء كان قد غاب أو لم يغب.. فهو لا يساوى أكثر من موظف صغير..

وقال مصطفى فى حماس كأنه يحاول أن يغرى رئيس التحرير :

– لقد استفدت جدا من إقامتى فى باريس.. وصلت هناك إلى قمة الانطلاق الفنى.. وأصبحت واثقا أنى أستطيع أن أقدم لوحات لنشرها فى المجلة تفاجأ بها كل مصر..

وقال رئيس التحرير فى برود :

– اتصل بسكرتير التحرير وقدم له ما يخطر على بالك من رسومات..

واستقبله سكرتير التحرير وهو أخف برودا ولم يبخل عليه بكلمة ترحيب بعودته.. وانطلق مصطفى فى حماسه قائلا :

– لقد عشت العجائب فى باريس.. وسأرسم هذه العجائب فى

لوحات لتنشر فى المجلة..

وقال سكرتير التحرير فى ابتسامة مشجعة :

- إنى فى انتظار أن تقدم لنا هذه العجائب..

وخرج من الدار الصحفية كأنه منطلق بنشوة الإحساس بثقته بنفسه.. إنه سيرسم.. وسينشر رسوماته.. سيفرض فنه على مصر كلها.... ودخل البيت متجها إلى غرفته ولكنه فوجىء بأخته تنتظره فى الصالة بجانب مرتبة ملقاة على الأرض كأنها أعدتها له لينام عليها وقالت له فورا :

- آسفة يا أخى.. لم أستطع أن أنقل أولادى من الغرفة.. وستنام هنا إلى أن نجد حلا.. ثم تركته دون أن تسمع رأيه ودخلت حجرتها..

واستسلم كعادته وحاول أن ينام على المرتبة الملقاة على الأرض.. ولكن عينيه لا تغفو إلا لحظات وتعود وتنفتح كأنهما تهربان من النوم.. وحاول أن يتفرغ ليتخيل اللوحات التى سيرسمها عن عجائب باريس.. ولكن خياله لا ينطلق فى حماس.. إنه منهك.. يحس كأنه مخنوق.. وفى الفجر قام وأخرج أوراقه وأقلامه وحاول أن يرسم.. ولكن فنه لاينطلق فى هذا الجو المخنوق الذى يحيط به.. وأحس بحاجته إلى مكان آخر يجلس فيه حرا ويوفر له انطلاق فنه.. إنه يستطيع أن يذهب إلى حديقة الأسماك ويجلس بين الأشجار ويرسم كما كان يرسم وهو جالس فى حديقة « سان جرمان دبريه » فى باريس.. وقام وارتدى ثيابه وحمل أوراقه وأقلامه.. وقبل أن يخرج من البيت سمع باب الشقة يدق فى إلحاح.. وفتح بنفسه.. إنها هدى.. وانطلقت به فرحة تكاد تطير به.. وهدى قذفتها فرحتها إلى التعلق بأحضانه تقبله دون أن تشعر بأن لحيته قد غيرت شيئا منه حتى وشعيراتها تملأ شفتيها.. إنه مصطفى.. سواء أطلق لحيته أو ظل محتفظا بنضارة وجهه..

وهمَّ أن يشد هدى إلى داخل البيت لكنه فوجىء بزوج أخته واقفا يبحلق فيهما منذ كانا يتبادلان القبل.. وقال صائحا فى صوت عنيف أجش :

– لا تنس أن هذا بيت عائلة..

وبدل أن يشد هدى إلى داخل البيت شدها إلى خارجه.. وسارا فى الشارع وهو يحدثها عن أمجاده فى باريس.. وهدى فرحة.. لا تحاول أن تتأكد من صحة ما يقول فهى تفرح حتى لمجرد أحلامه.. يكفى أنه سعيد سواء كان يعمل أو يحلم.. وهى.. ماذا جرى لها.. وقالت له ضاحكة : إن كل الذين عرفتهم من موظفى المجلة خدعوها.. أخذوا منها دون أن يعملوا على أن تكون معهم.. لعل كلا منهم كان يخشى لو سعى إلى تعيينها أن يتهم بأنه على علاقة خاصة بها.. أو أنه أخذ الثمن مقدما.. حتى رئيس التحرير.. لقد أغلق بابه فى وجهها بعد أن بدأ يخاف أن يقال عنه شىء يجمعها به.. تخلى عنها رغم أنها كانت مستسلمة له..

وقال مصطفى مقاطعا :

– لو كنت قد استسلمت للوزير لوصلت إلى تحقيق أحلامك.. إنى لم أسافر إلى باريس إلا بأمر الوزير..

وقالت هدى كأنها فخورة بنفسها :

– لا.. آمنت بأن المرأة عليها ألا تعطى قبل أن تأخذ.. فإذا أخذت أعطت.. ودون أن أعطى شيئا استطعت أن أكون مدرسة للرسم فى إحدى مدارس الأطفال.. واستطعت أن أتردد على بعض العائلات لأعطى أبناءها دروسا فى الرسم.. ودائما.. حتى داخل العائلات المحترمة.. أواجه بالإلحاح على أن أعطى ولكنى لم أعد أعطى.. قررت ألا أعطى نفسى إلا للرجل الواحد الذى أختاره ليكون رجلى..

ومصطفى لا يريد أن يبتعد عن هدى.. إنه استرد معها كل راحته حتى لو توقف عن انطلاقه الفنى.. ولكن هدى يجب أن تتركه لتلحق

بموعدها فى مدرســة الأطفال التى تعمل بها.. وقال لهــا إنه سيذهب ويجلس تحت شجرة فى حديقة الأسماك ويرسم وعليها أن تلحق به هناك..

وفوجىء مصطفى عدما دخل حديـقة الأسماك.. أنها ليست هادئة بسيطة كـما كان يعـرفها.. إنها مـزدحمة.. وقـد نثروا فيهـا المقاهى وأكشاك بيع المرطبات.. و.. « السندويتشـات » وأقاموا حولها سورا من الحجر تعلوه أعـمدة من الحديد بعد أن كان لا يحـيطها إلا سور برىء متـواضع من الخشب الأخضر فى لون أوراق الشــجر.. ورغم ذلك اختار ركنا وجلس تحت شجرة وفرد فرخ الورق وأخرج أقلامه وبدأ يحــاول أن يرسم.. ولكن زحـام الحديقـة التف حـوله والناس تبـحلق فى كل خط يخطـه.. والأطفال يزعـجـونه بصــراخــهم وهم يلعبون.. إنه لم يكن يجد هذا الإقلاق له وهو جالس يرسم فى حديقة سان جرمان بباريس.. فـهناك ليس من حق أى فرد أن يقف ليتفرج على شىء إلا بعد استئـذان صاحب هذا الشىء.. وهو لم يأذن لأحد بأن يقف ويتفرج عليه.. لم يســمح لأحد من كل هؤلاء بإزعاجه كأنه يلقى بالطوب على كل خواطره وانطلاقاته الفنية..

لعله لن يستطيع الاعتمــاد على الجلوس فى أى حديقة من حدائق القاهرة ليطلق ريشته بخواطره الفنية.. وتاه بأفكاره يبحث عن المكان الذى يلجأ إليه.. وابتسم فى راحــة كأنه تذكر أروع أيام صباه.. لعل المكان الوحيـد الذى يمكن أن يترك ريشته تسـتلهم فنه منه هو وكر الوطاويط..

وفى صباح اليوم التالى حـمل أوراقه وأقلامه وذهب إلى الوكر.. إنه كمـا هو.. خافت الضوء ولا يزال على وشك الانهـيار رغم أنه لا ينهار.. ولكن الوجوه التى رآها متجمعة فيه كلها وجوه جديدة عليه.. ربما كان أصــحاب الوجوه القـديمة قـد هجروا الوكر وخـرجوا إلى الدنيــا.. لعلهم أصبــحـوا موظفـين.. ولم يهـتم أحد من الموجـودين

بدخوله عليهم ولا حتى بمعرفة اسمه.. كأنه يكفى أنه دخل يحمل أوراقا وأقلاما بما يؤكد أنه فنان.. وجلس فى أحد الأركان وأخذ يرسم.. ولكنه يحس بأنه جالس فى الوكر كأنه غريب.. إن كل من حوله وطاويط فعلا.. يعيشون النهار وهم معلقون بأقدام الفن فى سقف الغرفة المظلمة وينطلقون خلال الليل فى ظلام الدنيا.. ولكن يبدو أنه هو نفسه لم يعد يحس بنفسه وطواطا.. لعل ما مر به من أحداث أطلق له أقداما يستطيع أن يسير بها فى وضح النهار.. كأنه انقلب من وطواط إلى قط.. أو إلى حمار..

وكانت هدى قد أصبحت تلقاه فى وكر الوطاويط.. وقد تشده يوما ليتناولا الطعام فى الخارج.. أو قد تحمل له طعاما يكفى كل الحاضرين كما هى تقاليد الوكر.. ولكنه رغم هذا يضيق باستلهام الفن داخل هذا الوكر.. ويبدأ يراوده خاطر جديد.. ليذهب ويجلس على مكتب فى غرفة الرسم بالدار الصحفية ويرسم.. إنه هناك قد يتمكن منه إحساسه بمسئوليته فينتج أكثر وأروع..

وأصبحت هدى تلقاه فى غرفة الرسم بالمؤسسة بعد أن تنتهى من عملها وتشده لتمده ببعض الراحة أو لتلحقه قبل أن يموت من الجوع.. ولكنه أيضا بدأ يحس بالضيق من جلسته إلى هذا المكتب.. وزملاؤه يزعجونه بالحديث عن أخبار الموظفين كأنهم يحاولون انتشاله قبل أن يغرق فى فنه.. ويبدأ يجهد نفسه فى البحث عن مكان آخر ليجلس فيه وينطلق حرا بفنه..

ورغم ذلك فقد انتهى من رسم عدة لوحات يصور بها عجائب باريس.. وربما كان الضيق الذى يكاد يخنقه قد دفعه إلى مزيد من التطرف بريشته على الورق.. إن إحدى هذه اللوحات ليست سوى مجموعة من الألوان المتداخلة دون أن تقدم شيئا.. ولوحة لمجموعة عيون مفتحة تطير فوق السحاب.. ولوحة لأنف كبير وبجانبه يد تمده بالطعام.. كأنه يريد أن يقول إنهم فى باريس يأكلون بأنوفهم

لابأفواههم.. و..و.. وهو مقتنع جدا بكل مارسمه.. إنه يطير بكل مصر إلى قوة فنية ضخمة.. قوة حرية الفن.. إن الريشة لا يمكن أن تكتب كما يكتب القلم..

وحمل لوحاته إلى سكرتير التحرير الذى أخذ يطل فيها بدهشة وامتعاض إلى أن قال :

– لا أحد يمكن أن يفهم شيئا من كل هذه اللوحات.. أنا نفسى لا أفهمها.. ماذا تريد أن تعبر عنه.. ماذا تريد أن تقول.. إن الرسم أيضا هو لغة كلام..

وأخذ مصطفى يشرح معنى كل لوحة وكلماته تنطلق فى ثورة مكتومة وينظر إلى سكرتير التحرير فى احتقار كأنه يتهمه بالجهل.. إلى أن قال سكرتير التحرير :

– آسف.. حتى لو فهمت أنا فرئيس التحرير لن يفهم.. وسيصر على عدم الفهم وعدم النشر.. إن رئيس التحرير لا يتحمل مسئولية ما يفهمه ولكن يتحمل مسئولية ما يفهمه القارىء الذى يشترى المجلة.. لذلك فإنى أنصحك بأن تحاول أن ترسم مجموعة أخرى من اللوحات من السهل على القارىء أن يفهم مغزاها..

وخرج مصطفى ثائرا ناقما وثورته الناقمة تكاد تنهار به.. إنه لن يعود ويرسم لهذه المجلة ولا لأى مجلة أخرى.. إن مستوى النشر فى مصر لم يرتفع إلى مستوى نشر فنه.. وربما كان الناس فى مصر كلهم لم ترتفع بهم الحضارة إلى حد أن يصلوا إلى تقدير روائعه.. وسيرسم لنفسه فقط تنفيسا عن موهبته وربما بعد أن يموت وبعد مرور مائة عام أو مائتين يكون الشعب المصرى قد ارتقى إلى المستوى الحضارى ويكتشفون روعته الفنية.. وتباع كل لوحة من لوحاته بمليون جنيه.. كما حدث خلال التطور الحضارى فى أوروبا.. مات عشرات من الفنانين وهم مجهولون.. ماتو جوعا.. إلى أن اكتشفت روعتهم بعد مئات السنين.. وأصبحوا فى قبورهم

من أصحاب الملايين.. ملايين الدولارات وملايين المؤمنين بهم..

وقد كان من بين ما يخطر على باله أن يبدأ فى التردد على المقاهى ويرسم وجوه الزبائن كما كان يفعل فى باريس.. إن مجرد رسم وجوه الزبائن يشعره بمسئولية حتى لو كانت مسئولية عابرة لا تستغرق سوى دقائق.. وهو فى حاجة إلى الإحساس بأى مسئولية بجانب ثقته بموهبته كفنان..

وحمل أوراقه وجلس فى أحد المقاهى.. ولكنه لم يحس بأى دافع يدفعه إلى الرسم.. وانتقل إلى مقهى آخر.. وثالث.. ولا يحس بأى دافع لمجرد المحاولة.. إن مقاهى مصر ليس فيها شىء من شخصية مقاهى باريس.. إنك فى باريس تستطيع على الأقل أن تتمتع بوجه نسائى جالس فى المقهى.. ولكن مقاهى مصر كلها مغطاة بثقل ظل الرجال.. فكيف يستلهم فى مقاهى مصر انطلاقه الفنى كما كان يستلهمه من مقاهى باريس.. ووصل إلى أن ضاق وزهق حتى من لحيته التى تلف وجهه.. حتى اللحية لها فى باريس معنى آخر غير معناها فى مصر.. إنها فى باريس مجرد « ديكور » يختاره الرجل لشكله.. مجرد حرية فردية فى اختيار الشكل.. ولكن فى مصر لها معان كثيرة لموقف الرجال من المجتمع والدور الذى اختاره لنفسه ليلعبه بين الناس.. وهو يلتقى بأفراد يحس أنهم يحترمون ويبجلون لحيته.. ويلتقى بأفراد يحس بأنهم ينظرون إلى لحيته كأنهم يخافونها ويتعمدون الهرب منها.. ويلتقى بأفراد آخرين يسخرون من هذه اللحية وبعضهم يقذفه بضحكاته قائلا : ما دمت قد أطلقت لحيتك فأين العمامة والجبة والقفطان.. إلى أن ركبته نوبة جنون وألقى بنفسه على مقعد الحلاق وأزال لحيته كلها.. ونظر إلى وجهه بلا لحية فى دهشة كأنه كان قد نسيه..

وهو يزداد تشبثا بالراحة التى تهبه القدرة على الاحتمال كلما التقى بهدى.. إنه يلقاها كل يوم.. لم يعد يستطيع أن يغيب عنها إلا

على أمل أن يعود ويلقاها.. وراحته مع هدى جعلته يتخلص من تعود الادعاء والكذب ليقدم نفسه فى صورة زاهية أمام الغرباء.. إن هدى لم تعد غريبة.. وقد أصبح يصارحها فى صدق بكل حياته.. إنه تائه فى مصر أكثر مما كان تائها فى باريس.. وفشله فى مصر أضخم من فشله فى باريس.. بل إنه لا يدرى أين يمكن أن يعيش فى مصر وأين يحرك ريشته ليرسم.. إن أخته فى البيت لا تزال تلقى به على المرتبة الملقاة على الأرض.. ولا يستطيع أن يجد إلهامه فى هذا البيت.. ولم يجده فى حديقة الأسماك.. ولا فى وكر الوطاويط.. ولا داخل الدار الصحفية التى لا تزال تمده بمرتبه ويأخذه كمجرد إحسان حكومى لا يقره حتى الله.. وقد بدأ يفكر فعلا فى العودة إلى باريس.. مهما عانى هناك فإنه يعيش كفنان.. وكل ما أصبح له فى مصر هو هدى.. وهى نفسها التى تجعله مترددا فى العودة إلى باريس..

وقالت هدى فى رقة وهى تحتضنه بابتسامتها :

– هناك حل آخر لكل ما يتعبك..

قال فى لهفة :

– ما هو هذا الحل..

قالت فى صوت عادى لا يحمل لهجة المفاجأة :

– أن تتزوجنى..

وشهق مصطفى كأنه تلقى طعنة اخترقت صدره..

لم يكن قد خطر على بال مصطفى أبدا أن يتزوج.. إنه لا يعتبر نفسه إنسانا عاديا حتى يتزوج كما يتزوج بقية الناس.. إنه فنان.. ولا يمكن أن يعيش إلا فنه.. وحتى فى حياته العادية لا يرتبط بأى تنظيم تعود عليه أو أدمنه.. إنه لايدرى متى ينام أو يصحو.. ولا يدرى ما يأكل وما لا يأكل.. ولا يدرى هل يدخن السجائر أو لا يدخنها.. ولا يحس بما يلبسه اليوم ولا بما كان يلبسه بالأمس وما

يمكن أن يلبسه غدا.. إن كل حياته تقوم على مجرد خواطر عفوية يستسلم لها.. وفى المرات التى أقدم على فرض تنظيم على حياته وعلى نفسه كان ينتهى دائما إلى الفشل.. لم يستطع أن يكون رساما معروفا.. ولا استطاع أن ينجح كرسام فى إحدى الصحف.. ولا أن ينجح فى باريس.. كل ذلك لأنه يغلب إحساسه بفنه على إحساسه بنفسه..

ثم إن كل النساء اللاتى مررن بحياته لم تطلب واحدة منهن الزواج.. لعل كلا منهن لم تكن تعتبره مجرد رجل.. إنه فنان.. والفنان لا يتزوج.. حتى هدى لقد عاشت فى حياته سنوات قبل أن يغيب عنها فى باريس.. دون أن تطلب منه الزواج.. ولعل الزواج لم يكن يخطر على بالها ويراودها.. فماذا حدث اليوم حتى تعرض عليه الزواج.. هل نسيت أنه فنان.. أو لعل فشله قد أقنعها بأنه رجل كبقية الرجال.. لذلك صاح فيها بعد أن عرضت عليه الزواج :

– إنى لا يمكن أن أتزوج..

وقالت مبتسمة :

– إنه مجرد حل خطر على بالى حتى تستريح من متاعبك.

وقال وهو يشمخ بأنفه كأنه يتباهى بنفسه :

– إن متاعبى هى التى تلهمنى خطوط ريشتى..

ونظرت إليه كأنها تحتضنه بعينيها وقالت :

– إذن تعال معى.. أضعك حيث تستطيع أن تعبر بريشتك عن متاعبك.

وقال كأنه يتأهب لصد أى كارثة :

– أين ستضعيننى ؟!

وقالت وهى تشده وراءها :

– إن فى بيتنا شرفة واسعة.. مشرقة.. تلهم كل من يجلس فيها بإطلاق ريشته.. إنى لا أستطيع أن أرسم إلا وأنا فيها..

واستسلم لها وهو فى دهشة كأنه مقبل على مغامرة.. إنها المرة الأولى التى تدعوه فيها إلى بيتها.. وهو بيت قائم فى شارع ضيق من شوارع حى المنيرة تتراص وتتلاصق فيه العمارات العالية.. وصعدت به إلى الدور العلوى من العمارة التى تضم بيتها.. وفتحت الباب وهى تصيح :

– ماما..

وظهرت أمها.. سيدة مكتنزة يتدلى لحمها فوق عظامها.. ولكنها تحمل وجها مرحا وابتسامة دائمة.. وقالت لها هدى :

– هذا مصطفى.. لا شك أنك تعرفينه فقد حدثتك عنه كثيرا..

وانطلقت الفرحة بالأم كأنها تهم أن تزغرد وشدت مصطفى إليها تقبله على وجنتيه.. أهلا وسهلا.. وصاحت به هدى :

– تعال لترى بابا..

ثم أخذته إلى الداخل ليلتقى برجل عجوز جالس على مقعد ذى عجلات.. إنه مشلول ، ولكن تنطلق من وجهه حيوية كأنه يعيش ذكريات شبابه.. ورحب به الأب وهو ينحنى يقبل يده.. ثم أخذته هدى إلى غرفة أخرى.. لعلها غرفتها.. وفتحت باب الشرفة وتركته يتطلع حوله ويطل منها وهى واقفة تتطلع إليه كأنها تكتشف إحساسه.. وقد كان يحس بفرحة.. إنه فعلا يستطيع أن يجلس هنا منطلقا مع فنه.. ورغم أن العمارة لا يفصلها عن العمارة المواجهة سوى هذا الشارع الضيق وتكاد تصطدم بها.. إلا أن الشرفة عالية فوق باقى العمارات.. وعلوها يجعله يحس وهو واقف فيها كأنه يحلق فى السماء.. وقال فى صوت خفيض ينبض بالفرحة :

– إنه مكان رائع.. بل إنى أحس فيه منذ الآن بأن ريشتى تتحرك وتخط حتى دون أن أمسك بها..

وقالت هدى وهى تشاركه الفرحة :

– تستطيع أن تأتى إلى هنا كل يوم وترسم. « ثم استطردت

ضاحكة ».. حتى بلا زواج..

وأخذته ليشاركا أمها وأباها طعام العشاء وهو يحس كأن كل أفراد العائلة من الفنانين.. وأن وجه أبيها يحمل خطوطا يخيل إليه أنه هو الذى اختارها ورسمها فوق وجهه.. وأمها كأنها قطعة فنية شكلها نحات فى قطعة فنية تتحرك.. ولا شك أن الفن يعيش فى طبيعة هذه الأسرة حتى أن الابنة الوحيدة ، ولدت فيها فنانة ترسم.. وخياله الفنى يدفعه إلى أن يتصور ريشته وهى ترسم الوجوه التى أمامه.. إنها وجوه تضج بإيحاء الفن..

وقالت له هدى وهو خارج :

– إذا كنت ستأتى غدا لتجلس فى الشرفة وترسم فحاول أن تأتى مبكرا قبل أن أضطر أنا للخروج إلى عملى فى مدرسة الأطفال..

وتركها بعد أن قبلها بعينيه.. مجرد قبلة شكر.. لا أكثر.. وعاد إلى بيته لينام على المرتبة التى تلقيها أخته على الأرض..

وفى الصباح الباكر من اليوم التالى كان على باب بيت هدى يحمل أوراقه وأقلامه.. واستقبلته هى وأمها فى فرحة.. ثم شدته فورا إلى الشرفة الواسعة ووجد أنها قد أعدت له فيها مقعدا وحاملا يسند إليه اللوحات التى يرسمها.. وجلس يرسم فورا كأنه لايستطيع الانتظار.. وخرجت هدى وقدمت له أمها كوبا من الشاى.. ولم ير الأب إلا بعد أن قدر أنه انتهى من رسم لوحة وحملها بدافع غير متعمد وخطا فى أنحاء البيت كأنه بيته باحثا عن الأب ليعرض عليه هذه اللوحة التى انتهى منها.. ويريد أن يعرف رأى الجمهور العادى الذى يمثله هذا الأب.. ولكن ربما لم يكن الأب مجرد واحد من الجمهور العادى.. لقد نقل عينيه طويلا فى اللوحة.. كأنه يتذوق كل خط وكل لون من ألوانها.. ولم يلحظ أى ضياع فى الشذوذ الذى يحيط بخطوطه وألوانه فى كل لوحة يرسمها.. بل إن الأب يبدو عليه أنه فهم كل خط وكل لون دون أن يصدمه أى شذوذ ثم صاح به :

– إنك فنان رائع.. هذه اللوحـة معـجـزة لم يصل إليهـا أى فنان حتى اليوم..

وترك اللوحـة بجانـب الأب ثم عاد إلى الشـرفـة ليبـدأ فى رسم لوحة أخرى.. وقـد بدأ يكتشف نوعا من الفن بين أفـراد العائلة.. إن الأم منذ دخل لا تكف عن الغناء وأغانى أم كلثوم بالذات.. وتغنى فى جدية واحتـرام كأنها تردد آيات من القرآن الكريم تتبـارك بها.. وقد أصبح غناء الأم كـأنه دافع قوى لإلهامه.. بما تخطه ريشـته.. إلى أن عادت هدى وجلست معه فترة فى الشرفة تزوده بالراحة.. ثم تركته ليعود إلى لوحته.. إلى أن جاء الليل وتنبه إلى أنه يجب أن يخرج.. إنه ليس فى بيته.. وخرج حزينا كأنه يطرد نفسه..

وقد عاد فى صباح اليوم التالـى واتجه إلى الشرفة مباشرة وبدأ يحرك ريشته.. وبعد ساعـات مر به خاطر عابر إنه يجب أن يشترى للعائلة كـمية من الأطعـمة.. ليس من اللائق أن يأكل ما يقـدمونه له دون أن يقدم لهم شيـئا.. يجب أن يعود إلى تقاليـد وكر الوطاويط.. ثم استأذن الأم ليغـيب فترة.. وعاد وهو يحمل فى يده لفافـة كبيرة.. وعندما فردها أمـامهم وهم يتناولون طعام الغداء انطـلقوا ضاحكين.. إنه اشترى أنواعا متناقضة غريبة من الأطعمة.. كباب ومعه علب من السرديـن.. وحزمة فـجل.. وكمـية من المرتديـلا.. إنه لا يتعـمد أن يختار مـا يأكله ولذلك لا يتعمد اخـتيارما يشتـريه.. وقالت له هدى ضاحكة :

– عندما يلح عليك كرمك مرة ثانيـة.. فاعطنى النقود التى يفيض بها هذا الكرم.. ودعنى أنا أشترى ما تقدمه للعائلة..

وقد تعـود بعدها فعـلا أن يعطى لهدى بين يوم وآخر مـبلغا من مرتبـه لتشتـرى شيئا للعـائلة التى يحس أنه أصبح فـردا منها.. بل كأنه أصبح يعطيها كل مرتبه الذى تدفعه له المجلة.. أو ما يفيض منه بعدما تأخذه منه أخته وتصر على أخذه..

وفى أحد الأيام أخـذه اندفاعه الفنى إلى البـقاء فى الشرفـة أمام لوحته التى يرسمـها حتى ساعة متأخرة من الليل.. وقـام ليستريح برهة وألقى بنفـسه على الفـراش داخل الغرفـة.. إنه.. فراش هدى.. وإذ به ينام ويغـرق فى النوم.. ولم يستـيقظ إلا فى الصـباح وهدى ليست بجانبـه فى فراشها.. وقام مذعورا عندمـا دخلت عليه لتوقظه فى صباح اليوم التالى وقام متلعثما :

– آسف.. لم أكن أدرى أنى يمكن أن أنام..

وقالت ضاحكة :

ومـاذا حدث.. إنك فى بيـتك.. وأرجو قـبل أن تنام مرة ثانيـة أن تبلغنى مقدما.. وقال :

– وأنت.. أين نمت..

وقالت ضاحكة :

نمت بجانب أمى.. كنت أتمنى أن أنام بجانبك..

ووجد نفسـه بعد هذه الليلة يأخذه عقله إلى التـفكير فى الزواج.. إن هذا البـيت لا يمكن أن يكون بيتـه إلا إذا تزوج هدى.. على الأقل ليـبرر وجـوده أمـام الناس الغـرباء.. ولكنه أخـذ يحذر نـفسـه من التـفكير.. إن الـزواج يعنى الهروب من فـنه.. يعنى أنه يبـيع نفسـه لهدى.. لن يكون فنانا حرا منطلقـا مع فنه إذا تزوج.. واتخذ صديقه رؤوف عبـرة له.. لقد كـان فنانا يشـاركه الانطلاق إلى مـا يعتـبره الناس شذوذا.. ثم بعد أن تزوج هـاجر من وكر الوطاويط وأعطى كل نفسه للوظيفة.. أصبح فنانا مـوظفا بعد أن كان فنانا حرا.. وسيكون هذا مصيره لو تزوج هو الآخر.. ولكن.. لم يعد أمامه إلا خياران.. إما أن يكف عن التردد على هذا البيت وإما أن يتزوج هدى..

وانتهى تردده وتحـذيره لنفسه بأن يتزوج هدى.. حـتى لو كان يتـزوج مضطرا.. إن كـبـار الفنانين الذين تزوجـوا لم يتزوجـوا إلا مضطرين..

ولم يكلفه الزواج شيئا.. استدعوا له المأذون ودعا صديقه رؤوف ليكون شاهدا مع بواب العمارة على عقد الزواج.. ومبلغا تافها أخذته منه هدى لتشترى خاتما يعلقه فى أصبعه.. وخاتما تعلقه فى أصبعها وربما دفعت من مالها ما يكمل هذا المبلغ الذى أخذته منه.. وحتى أخته وزوجها لم يدعهما لحضور عقد القران.. لقد كانا دائما خارج حياته.. ولم يتغير من حياته شىء إلا أن هدى أصبحت تنام بجانبه.. وتتركه فى الصباح الباكر إلى عملها ويدخل هو إلى الشرفة ليوالى الرسم.. ولكنه يحس بأن شخصيته التى يعيش بها مع هدى بدأت تتغير عن الشخصية التى كان يعيش بها وحده.. وبدأ يسائل نفسه تساؤلات عجيبة.. كم تكسب هدى وكم يكسب هو.. إن هدى تكسب أضعاف مرتبه رغم أنه أصبح يعطيه لها كله دون قرش واحد يتبرع به لأخته.. وهدى التى تتحمل مسئولية استكمال الإنفاق على البيت وعليه.. بل إن هدى مسئولة عن عمل تحاسب عليه.. أما هو فليس مسئولا عن عمل ولا أحد له الحق فى أن يحاسبه.. وقد بدأ يضيق حتى بمسئوليته عن نفسه.. ووجد نفسه ذات يوم يسير إلى وكر الوطاويط لعله يستطيع أن يستعيد فيه انطلاقه الفنى.. ووصل إليه ولكنه لم يستطع أن يدخل.. شىء يقيد قدميه خارجه كأنه يمنعه من تلوث هذا الوكر.. أنه وكر لا يستقبل أى فنان متزوج.. أنه أعلى من أن يصل إليه أى متزوج مهما كانت قيمته الفنية.. إن الفنان المتزوج لا يستطيع أن يعيش إلا نصف فنه.. لا يستطيع أن يعيش انطلاقه الفنى كاملا.. ووكر الوطاويط لا يمكن أن يحتمل أنصاف الفنانين..

وطرأ على فكره خاطر أن يهرب إلى باريس.. يريد أن يعود إلى التشرد بين المقاهى والحدائق وليس فى يده إلا ريشته.. حتى ولو هرب من هدى نفسها.. ولكنه أحس بالعجز عن الاستمرار فى شغل نفسه بهذه الفكرة.. ليعترف بالواقع.. إنه لم يعد يستطيع أن يستغنى عن هدى.. لقد عودته على تفاصيل كثيره فى حياته اليومية أصبحت

تربطه بهـا.. ولكن حتى لو كـان فنه قد ضـاع فى هذه الحياة.. فـلماذا يستـسلم لهذا الضيـاع.. لماذا لا يقيم من نفسـه فنانا من نوع آخر.. فنان يحرك ريشته فى قوالب تحـقق له أن يكسب جنيهات.. حتى لو لم يكسب أحلامه الفنيـة.. إنه يريد أن يحقق دخلا ماليا أضـعاف ما تحققه زوجته هدى.. حتى يستحق أن يكون رجل البيت.. الرجل القائد الآمر الناهى.. بل إنه يريد أن يكون صاحب البيت..إنه حتى الآن بيت هدى وعائلتـها.. ويتمنـى أن يشترى بكسـبه شقـة أخرى.. وأرقى.. ويصبح هو المالك الذى يجود بملكه على هدى وعـائلتها.. ثم إن هدى حامل.. فهل يتركها تتحمل مسئولية ابنهما وحدها..

وذهب إلى صديقه رؤوف وسأله :

كيف تستطـيع أن ترسم وأنت ضامن أن ما ترسمـه سينشر فى المجلة..

وقال رؤوف وهو يزفر أنفاسه كأنه يتحسر على نفسه :

– إنى أرسم لهم لا لنفسى.. وأختار ما أرسمـه مرضاة لعقليتهم وأذواقهم.. الفنية لا انطلاقا بعقليـتى وذوقى.. كأن كل ما أرسمه هو تعبيـر عن قصص كتبـها غيرى وعـبربها عن خيالـه لا عن خيالى.. وطال النقاش بينه وبين رؤوف ثم تركـه وعاد إلى البيت يجلس فى الشرفـة الواسعـة أمام الحـامل الذى يضع عليـه لوحته.. وقـبل أن يمسك بالريشة أخذ يقلب فى الصحف والمجلات ويدقق فى كل رسم منشور ويقلب شفتيه احتقارا وقرفا.. بل إنه بدأ يدقق فى الرسومات التى تنشـر مع الإعـلانات.. لا شك أنها كلهـا من وحى كـسب المبلغ الذى يدفـعه صـاحب الإعـلان وليست من وحـى الفن .. كان كـأنه يدرس الخطوط التى يمكن أن يرسـمـها نوع آخـر من الفنانين.. أى الفنانين التجاريين..

ثم أمسك بريشـته وبدأ يرسم لوحات عن العجـائب التى قال إنه عاشـها فى باريس.. وهو الموضـوع الذى سبق أن اتفق على رسـمه

مع سكرتير التحرير.. ثم بدأ يرسم لوحات لا تنبض بأى خطوط تعبر عن أى عجائب.. لوحة عن فتاة فرنسية جميلة متعلقة ببرج إيفل.. لوحة عن رجل عربى يضع على رأسه عقالا ويقف فى شارع الشانزليزيه أمام قوس النصر.. ويلصق بها مشهدا لرجل فرنسى يضع على رأسه قبعة ويقف فى حارة خان الخليلى بالقاهرة.. ومجموعة من اللوحات كأنها مجرد كلمات طنانة لا تحمل أى معنى أو رأيا جديدا..

ولم يراجع هذه اللوحات التى رسمها وحملها دون أن ينظر فيها وذهب بها إلى سكرتير التحرير.. وهلل سكرتير التحرير فرحا بها ووافق رئيس التحرير فورا على النشر.. وعندما صدرت المجلة قلب صفحاتها بسرعة قذف بها على الأرض كأنه يقذف بنفسه.. كأنه انتحر ويقوم بتوديع جثمانه.. هذا ما فعله به زواجه بهدى.. خنقه وجرده من انطلاقه الفنى.. ولكن لماذا يلوم زوجته هدى.. لماذا لا يعترف بأنه لم يعد يحتمل هذا الانطلاق.. وبدأ يسعى ليعيش بفنه بين الناس.. أوأنه كان مجنونا ثم أفاق من جنونه وبدأ يعيش الواقعية.. إن الفنانين العالميين الذين عاشوا مجهولين ولم يعرفوا إلا بعد أن ماتوا كانوا كلهم مجانين.. ولم يستطيعوا أن يتحرروا من جنونهم.. ولكنه يستطيع..

وعاد إلى الدار الصحفية ليزف فيها زفة الاعتراف به كفنان كبير مادامت لوحاته قد نشرت.. وبدأوا يعهدون إليه بكثير من الموضوعات التى تنشر برسوماته.. وفى آخر الشهر قرر رئيس التحرير منحه مكافأة ضخمة على تفانيه فى العمل.. منحه مائة جنيه أى أكثر من مرتبه الذى لم يكن قد وصل حتى هذا اليوم أكثر من ستين جنيها.. إنها أول مرة تدخل فى جيبه مائة جنيه صافيه دفعة واحدة.. وحملها كأنه يطير بها وفتح يده بها لزوجته هدى.. وطارت معه هدى بالفرحة..

ووالى تعمده الارتباط بالفنان الجديد الذى فرضه على نفسه.. الفنان الذى لا تتحرك ريشته إلا سعيا وراء الجنيهات.. وقد ارتفع مرتبه فى الصحيفة إلى ثمانين جنيها.. ثم إلى مائة.. ثم إلى مائة وخمسين.. ولا يبخل عليه بالمكافآت السخية..

ولكنه لا يكتفى ولا يشبع.. أصبح مستسلما لنهمه وقد وصل إلى أن استطاع أن يبيع رسومات إلى بعض الصحف العربية التى تصدر خارج مصر.. إنهم يدفعون له أكثر.. وقد كانوا يدفعون له بالجنيه المصرى ولكنه استطاع بعد فترة أن يفرض شروطه ويدفوا له بالدولارات..

وبدأت زوجته هدى تساهم معه فى فتح الأسواق له.. أسواق الفن.. وهى لا تزال تتردد على بعض العائلات الثرية لتلقى على أولادها دروسا فى فن الرسم.. وقد استطاعت أن تغرى كبار هذه العائلات بأن يرسم لهم مصطفى لوحات بورتريه تخلدهم إلى أبد الآبدين.. وكان مصطفى قد أصبح مشهورا من كثرة ما تنشر له المجلة من لوحات.. وقد استجاب بعض الكبار لهذا الإغراء وأخذوا يستدعون مصطفى ليخلدهم بريشته.. وقد كان يرضى بأن يأخذ مائتى جنيه كأتعاب على كل رسم.. ثم كثرت زبائنه فأصبح يطلب خمسمائة جنيه.. ثم ألف جنيه ويعطونه.. ويأخذ.. وقد فوجىء بمنيرة هانم نفسها عشيقة الصبا والشباب تتصل به وتقحم نفسها عليه وتطلب منه أن يرسم صورتها.. واستقبلها دون أن يشعر بأى هزة تسرى فى أعصابه وتثير ذكرياته.. لقد أصبحت منيرة مستسلمة لشخصية المرأة العجوز.. وأكثر ترهلا.. والتجاعيد تشق خدودها وتسرى حول عينيها.. إنه لا يريد أن يرسمها.. لا يريد أن يشوه ذكريات شبابه.. ولكنها تلح وهى ستدفع أكثر.. وبدأ يرسمها كأنه آلة فوتوغرافية تنقل ما تراه أمامها وكل ما يبذله من فن هو تعمد ريشته تجاهل خطوط التجاعيد المنتشرة وترهل وجنتيها على

وجهها.. ودفعت منيرة ألفين من الجنيهات وزادت عليها خمسمائة دولار كأنها تغريه بأن يعود ويبدأ مجهودا فى استعادة شبابها..

ثم تذكر الوزير الذى كان أول من رسم لوجهه لوحة بورتريه وكافأه بأن أمر رئيس التحرير بإرساله فى بعثة إلى باريس.. وقد أصبح هذا الوزير شخصية ذات أهمية كبرى فى حكم مصر.. وقد يستطيع أن يكسب من ورائه الكثير.. وذهب إليه واستطاع أن يلقاه بسهولة وقال له فى تواضع :

– لقد كنت ياسيادة الوزير أول من أتاح لى فرصة رسم لوحة لسيادتك.. وهى اللوحة التى دفعت رئيس التحرير إلى إرسالى إلى باريس.. وقد تعلمت الكثير وتطورت فنيا فى باريس.. وأتمنى أن تسمح لى بأن أرسم السيدة زوجتك.. إنى أسمع كثيرا عن الخدمات التى تقدمها لمصر.. ويشرفنى أن أسجلها فى لوحة كأنها لوحة عن التاريخ المصرى..

وانتفخ الوزير سعيدا متباهيا بنفسه واتصل فورا بزوجته تليفونيا وحدد له موعدا ليلقاها ويبدأ فى رسمها..

ومصطفى لم ينس أنه رسم الوزير بمساعدة اثنين من زملائه حتى يساعداه على التخلص من شذوذه الفنى.. ولكنه لم يكن فى حاجة إلى أحد ليرسم لوحة زوجة الوزير فقد استطاع هو نفسه أن يتخلص من هذا الشذوذ.. ورسم فعلا لوحة رائعة جنت بروعتها زوجة الوزير.. إنها تضج بالحيوية وتؤكد الأمل الذى أثارته بالخطاب الذى ألقته منذ أسبوع فى اجتماع الاتحاد القومى الديمقراطى.. وزوجها انبهر باللوحة أكثر وحاول أن يدفع مكافأة هائلة لمصطفى.. ولكن مصطفى اعتذر عن قبول أى مكافأة مالية.. وأصر على الرفض.. ويكفيه أنه كان له شرف رسم شخصية يقوم عليها تاريخ مصر..

وفكر الوزير برهة كأنه يبحث عما يمكن أن يكافىء به هذا الفنان

ثم قال له كأنه وجد الحل :

– يجب أن تقيم معرضا لكل لوحاتك.. ستقيم لك الحكومة هذا المعرض.. إن من أهم مسئوليات الحكومة أن تتباهى بالفن فى مصر..

وصدرت الأوامر بأن يقام معرض فى دار الفنون لعرض لوحات الفنان مصطفى بركات.. وجمع مصطفى كل لوحاته وأخذ ينظمها فوق حوائط المعرض.. وتردد وهو يلتقى بلوحاته القديمة التى كان قد رسمها فى حالة انطلاقه الفنى.. وقبل أن ينقل نفسه إلى شخصية الفنان التجارى الواقعى.. ولكنه قاوم تردده.. سيعرض هذه اللوحات التى تمثل شخصيته القديمة بجانب اللوحات التى تمثل تطوره إلى الشخصية الجديدة وإن كا قد تعمد أن يعرض الشخصية القديمة فى ركن منزو مختبىء من المعرض.. وكان كلما خلا المعرض من الجمهور يجد نفسه واقفا فى هذا الركن المنزوى المختبىء أمام لوحاته القديمة التى تنطق بما كان عليه شذوذه الفنى.. كأنه يترحم على شبابه..

عجيبة.. لقد بيعت فى المعرض كل اللوحات بما فيها هذه اللوحات القديمة.. ربما لمجرد أنه أصبح مشهورا.. يكفى أنه الرسام الذى رسم لوحة زوجة المسئول الكبير عن الحكم.. وكثير من اللوحات فى العالم كله تباع باسم الفنان الذى رسمها بصرف النظر عن القيمة الفنية التى تحملها اللوحة..

وقال له الوزير كأنه يهبه نعمة من السماء :

– لقد قررت أن أعهد إليك بمسئولية كل الحركة الفنية فى مصر.. وستعين وكيل أول للوزارة حتى تستطيع أن تتحمل هذه المسئولية..

وذهل مصطفى أمام هذه المفاجأة.. إن أحلامه لم تصل أبدا إلى حد أن يكون وكيلا للوزارة فى هذه السن.. وقال بعد أن أفاق من ذهوله :

– ولكنى أريد أن أستمر فى نشر لوحاتى فى الصحيفة..

وقال الوزير ضاحكا :

- هذا لا يتعارض مع ما اخترتك له.. ستكون مسئولا هنا وهنا..

وأصبح مصطفى شخصية هامة تبرق فى الدولة كلها.. أهم شخصية فنية.. إنه وكيل وزارة.. وأشهر رسام صحفى.. وأكثر رسام يزدحم حوله الزبائن ويدفعون الآلاف.. وهو مدعو فى كل حفل رسمى تقيمه الحكومة.. زوجته هدى تدعى معه وتتباهى به..

لقد أصبح أشهر من زميله وصديق عمره رؤوف.. بل إنه لم يعد يتعمد أن يلقى رؤوف.. تكفى الصدفة.. ولكن رؤوف لا يغار منه.. إنه ينظر إليه كلما التقى به نظرات الإشفاق التى كان مصطفى يلقاه بها بعد أن تزوج..

ومصطفى نفسه كان قد وجد بيتا جديدا فى شقة فخمة بحى الزمالك.. وانتقل مع كل عائلة زوجته إليها.. ولكنه بدأ يفر من لقاء حميه العجوز المشلول.. إنه كلما عرض عليه لوحة من لوحاته الجديدة ألقى عليها الأب لفتة عابرة دون أن ينبهر بابتسامته كما كانت عادته أيام زمان.. إنها لفتة باردة لا يصحبها أى انبهار بل ولا أى رأى ولا يعلق عليها بشىء كأنه لا يستطيع الكلام.. اللوحة شلَّت حتى صوته..

وكان مصطفى كلما اختلى بنفسه يستعرض الأمجاد التى حققها بمجرد فرض سيطرته على ريشته.. ولكن لا ترتفع أى ابتسامة على شفتيه إلا إذا عاد بذكرياته إلى أيامه فى وكر الوطاويط.. أو أيامه عندما كان مقيما فى باريس.. أى أيامه كان وطواطاً بين وطاويط مصر ووطاويط باريس.. وكان يقاوم هذه الذكريات ويطرد ابتسامته من على شفتيه ويجرى من خلوته.. إنه يحس كأنه كان مدمنا للمخدرات ثم لا يزال هناك فى أحاسيسه بعد أن تخلص منها ما يدفعه إلى العودة إليها..

كانت تمر به ساعات يستسلم فيها لضعفه الفنى.. فن الانطلاق

وقد وجد نفسه يوما يأمر سائق سيارته الحكومية الفخمة أن ينطلق به إلى حى الحسين.. إنه يريد أن يمر على وكر الوطاويط.. ولكن ما كادت السيارة تصل به إلى أول حى شعبى حتى صاح فى السائق أن يعود به إلى حى الزمالك.. لماذا يحس بأنه يلتقى بشعب فى حى ولا يلتقى به فى حى آخر.. إن الشعب يعيش كل الأحياء.. ولكن هناك حيا للفاشلين وحيا للناجحين.. وهو من الناجحين..

وفى يوم قرر أن يسافر إلى باريس بصحبة زوجته هدى.. وكان الدافع الذى يدفعه إلى باريس هو ذكرياته التى لا تزال تلح عليه ولا يستطيع أن يتخلص منها.. وقد ركب الطائرة المصرية فى الدرجة الأولى.. والشركة أعدت له استقبالا رسميا اعترافا بمركزه العالى.. ونزل فى باريس ووجد أن السفارة قد أرسلت له أحد موظفيها بإحدى سياراتها لاستقباله.. ولكن مجرد أن خفق إحساسه بباريس أحسن كأنه عاد إليها كما كان يعرفها.. واستطاع أن يعتذر لموظف السفارة بأنه على موعد ويعرف أين يذهب.. أنه ليس غريبا فى باريس.. وصحب زوجته إلى سيارة أجرة وطلب توصيله إلى الحى اللاتينى.. ومر بالشوارع الزاهية وهو سعيد ولكنه ما كاد يدخل شوارع الحى اللاتينى الضيقة الكالحة حتى بدأ صدره ينقبض.. إنه لم يعد يهنأ إلا وسط الشوارع الزاهية.. وأوقف التاكسى عند ناصية الحارة التى يقع فيها فندق الغرباء.. لقد بدأ يهم بأن يغير رأيه ويعود إلى باريس الزاهية..ولكنه خطا خطوات ثقيلة.. وتردد فى الدخول إلى فندق الغرباء.. إنه وكر الوطاويط.. ولكنه دخل.. ومدام مونيك أمامه ولكنها تنظر إليه فى امتعاض.. لقد عرفته كما يبدو عليها.. ولكن كأنها لا تريده بما أصبح عليه.. لا تريده بهذا الزى الأنيق وبجانبه زوجته تلبس الغالى.. وقال لها بعد أن تذكر كلماته الفرنسية التى كان قد حفظها أيام زمان :

– الم تعرفينى.. مونيك..

وقالت كأنها تبصق كلماتها :

– لعلى أذكر رجلا يشبهك كان يقيم معنا..

وتلفت فى أنحاء المدخل ورفع عينيه إلى السلالم التى سبق أن ذابت عليها قدماه.. ثم شد زوجته وغادر بها الفندق كله دون حتى أن يلقى تحية على مدام مونيك.. إنه لم يعد يحتمل مجرد الفرجة على هذا الفندق.. ولا الإقامة فى الحى اللاتينى.. وركب سيارة إلى أفخم شوارع باريس وأفخم فنادقها..

« شارع الشانزليزيه وفندق إدوارد الخامس.. »

وهو ناقم يصرخ بينه وبين نفسه :

– إنه لم يعد وطواطا فنانا.. إنه أسد يفترس الفن..

ويبتلع صرخته.. ويحنى رأسه على صدره كأنه عاجز عن رفعها إنه فعلا لم يعد وطواطا.. ولكنه أيضا لا يستطيع أن يعيش كأسد.. إنه فنان ترفضه الوطاويط والأسود..

زئير فى الأحلام ..
والحياة فى أقفاص

زئير فى الأحلام .. والحياة فى أقفاص

انقضت

ساعات وهو يروح ويجيء على أرض غرفة مكتبه فى خطوات عنيفة ساخطة ، ويكاد يشوط بقدمه كل ما يصادفه.. ويهز ذراعيه فى عنف كأنه يهم بأن يضرب ويطيح بكل ما حوله.. إنه الشخصية الوطنية الجبارة ، والأستاذ الكبير المسئول عن التنظيم السياسى للشئون الداخلية والاتصالات العامة داخل الحزب.. السيد معروف حمامة.. وهو شخصية جبارة و أستاذ كبير ، رغم أنه يعتبر رمزا متأججا للشباب.. وإن كان شبابه قد تعدى سن الأربعين بعام واحد.. وهو يكاد يعصر عقله فى إعداد الخطاب الرئيسى الذى سيلقيه فى الاجتماع الشعبى الذى سيقيمه الحزب هذا المساء.. وقد تعود قبل أن يلقى أى خطاب سياسى أن يحدد النقاط التى سيثيرها.. ويضيف إلى كل نقطة الأسانيد القوية التى يعتمد عليها لتأكيدها.. ويسجل كل ذلك فى نقاط مختصرة لمجرد تذكيره بها.. ويجمع كل ما سجله فى ورقة صغيرة واحدة يحتفظ بها أمامه ، وهو يلقى الخطاب دون أن يلتفت إليها إلا مضطرا.. أى إذا أحس بأنه قد يكون قد نسى شيئا.. فإنه حريص دائما عندما يلقى أى خطاب سياسى أن يبدو كأنه يرتجل أفكاره وكلماته ، وليس مقيدا بخطاب مكتوب مفروض عليه.. إنه حريص على أن يبدو حرا حتى من

التقييد بأى كلمة مكتوبة..

ماذا يقول فى خطاب هذا المساء ؟!

إنه يهم أن يحصر فكره فى موضوع يعتبر أنه يهم الشعب.. ولكنه لا يكاد يبدأ فى إعداد الكلمات التى سيلقى بها حتى يكتشف أنها كلها كلمات سبق أن قالها فى اجتماع الأمس.. ولن يحتمل الناس تكرارها.. ولن يستطيع بها اجتذاب الشعب الذى عوده على أن ينتظر منه دائما مزيدا من الجرأة نحو الصراحة المنطلقة فى الكشف عن أسرار أى موضوع..

وتأخذه أفكاره إلى موضوع آخر لا شك أنه يهم الشعب ولو مجرد الاستماع إليه.. إنه موضوع ما يقال عن « الروتين ».. حتى أصبحت كلمة « روتين » هى شعار كل ما تعانيه مصر من فساد وإفلاس.. ويجب أن يقتنع الشعب بأن الروتين الذى تعانيه مصر ليس هو روتين الإجراءات الحكومية.. ولكنه روتين سياسى.. يشمل كل الكيان السياسى للدولة.. ويجمع بين توقيع أى مواطن عادى وتوقيع رئيس الجمهورية نفسه على ورقة واحدة.. إن المواطن العادى لا يمكن أن يبدأ أى مشروع إلا بتوقيع موظف.. وتوقيع الموظف يجب أن يستكمل بتوقيع رئيسه.. وتوقيع هذا الرئيس يجب أن يستكمل بتوقيع الوزير.. وتوقيع الوزير يجب أن يستكمل بتوقيع رئيس الوزراء.. وتوقيع رئيس الوزراء يجب أن يستكمل بتوقيع رئيس الدولة.. حتى لو كان التوقيع هو مجرد موافقة خلال حديث تليفونى.. وكل هذا الروتين لا يهدف إلى تنظيم الإجراءات الرسمية الحكومية.. ولكن هدفه الوحيد هو السيطرة السياسية الكاملة على كل أفراد الشعب.. فلا تترك حرية أى فرد إلا فى حدود موقفه السياسى بالنسبة للحاجة السياسية التى يفرضها الحاكم.. إن إجراءات هذا الروتين كان قد فرضها الاحتلال البريطانى على مصر حتى يحقق السيطرة السياسية على كل أفراد الشعب.. وقد تحررت

مصـر من الاحتـلال العسكرى والإنجليـزى ، ولكنها لم تتـحرر من الروتين الإنجليزى.. ربما لأن الحـاكم المصرى وجد أنه محـتاج إلى نفس السيطرة السياسية التى كان يعيش عليها الحكم الإنجليزى..

ومـا هو الحل للتـخلص من هذا الروتين.. الحل هـو أن يعتـمد الشـعب على نـفسـه فى إلغـاء وتعـديل هذا الـروتين.. بأن تقـوم مجـموعـات شعـبيـة تمثل المصالح المشـتركـة ، تستطيع أن تـواجه الحكومة وتهـددها حتى تفرض عليـها هذا الإلغاء أو التعـديل.. كأن تقوم مجـموعة شعـبية ضخمـة تمثل دافعى الضرائب.. ومجـموعة شعبيـة تمثل رؤوس الأموال الوطنية.. وأن تستقل النقابـات العمالية والمهنية.. و.. و.. وكل مجموعة تمثل قوة تـنفيذية ضخمة ، تستطيع أن تفرض رأيها على الحكومـة.. وعلى رئيس الدولة.. وربما كان أول مـا يجـب فـرضــه هو ألا يكون رئـيس اتحـاد العـمــال وزيرا فى الحكومة.. بل يكون دائما الشبح الذى يهدد الحكومة.. و..

واستمـر السيد معـروف حمامة منطلقا مع أفـكاره الجريئة وهو يحس كـأنه أسد يطلق زئيـره.. ولكنه كتم زئيـره فجـأة وأحس بأن أفكاره الجريئة تنطوى وتحاول الهرب منه.. وبدأ يسائل نفسه.. ماذا يريد بهذه الأفكار ؟.. إنه يدعـو إلى تكوين مجموعـات شعبيـة قوية تسـتطيع أن تفرض إرادتهـا على الحكومة.. كـأنه يدعو إلـى إعلان الثورة على الحكـومة.. ولكنه يعتـبر أحد قـادة حزب الأغلبـية الذى يمثـل الحكومة.. فكيف يدعـو إلى الثورة على الحكومـة التى يمثـلها وترتبط شخصيته بها.. إنه يـعتبر الآن مجرد زعيم حكومى.. لا.. لا يمكن أن يدعـو الشعب إلى الثـورة على الحكومـة.. كأنه يدعـوه إلى الثورة على نفسه.. الثورة عليه هو شخصيا.. ثم إن مهمته الأساسية التى أصبح مكلفا بهـا هى حماية الحكومة لا الثورة عليـها.. حتى إذا كان يعارض كل هذا العجز والانحـلال الذى يسود الحكومة فإن كل حقه هو أن يناقش المسئولين فى هدوء لعله يصل إلى إقناعهم.. لا أن

يدعو إلى الثورة عليهم أو تهديدهم بمجموعات شعبية مستقلة عنهم..
وبدأ يحس بالسخط على نفسه.. إلى حد احتقار نفسه.. ووجد نفسه يقترب من المرآة المعلقة على جدار غرفة المكتب ويبحلق بعينيه فى وجهه.. وتصور أن هذا الوجه أصبح لشخص آخر غير شخصه.. لقد تعود أن يرى وجهه قويا تنطلق الجرأة من عينيه ويزم عليها بشفتيه.. ولكنه يراه الآن وجها مستكينا مستسلما أنيقا.. وجها حكوميا.. واشتد سخطه حتى رفع قبضته وحطم بها المرآة بضربة عنيفة كأنه يحطم نفسه.. إنه يريد أن يكون كما كانت طبيعته تدفعه لأن يكون.. لقد كان قويا فى انطلاقه بنفسه وأفكاره.. حتى كان يعتبر نفسه كأنه أسد أقوى من كل الحيوانات.. ولا يكف عن الزئير.. وقد اختفى عنه هذا الأسد.. لعله أصبح الآن حمامة فعلا لا مجرد إنسان يحمل اسم عائلة حمامة.. أو لعله لا يزال أقوى قليلا من الحمامة فأصبح نعامة.. ولكنه لم يعد أسدا.. ولم يعد له هذا الزئير الذى كانت مصر كلها تنتفض ثائرة إذا سمعته..

وقال لنفسه وهو يبتعد عن المرآة بعد أن حطمها.. لا.. لاشك أنه لا يزال أحد الأسود.. ولكنه أسد فى قفص.. يخطو كالأسود ، ولكنه لايستطيع أن يحطم القفص..

وألقى بنفسه على مقعد مكتبه ، وأمسك بالقلم وكتب بخط عريض على الورق.. الأسد فى قفص.. وأطلق ضحكة عالية تتجاوب بين جدران الغرفة الخالية ، وتنعكس عليه كأنها لطشات على وجهه..

ووجد نفسه ينهار فى ضعف ، وهو يسترجع تاريخ حياته كأنه يبحث عما يتعلق به حتى لا يستسلم..

لقد بدأ حياته السياسية منذ كان فى الرابعة عشرة من عمره.. ولم يكن يحس بها كحياة سياسية منذ كان يعيشها كحياة وطنية.. وقد برزت منذ البداية موهبته فى القدرة على لقاء المجموعات

المزدحمة وإقناعهم بآرائه الوطنية.. إنها دائما آراء جريئة متطرفة حتى لو أدت إلى الاستشهاد فى سبيل الوطن.. وكان الطلبة يتعلقون به وينقادون إلى الاقتناع بكل ما يقوله.. ربما لأنهم كانوا واثقين أنه يمثلهم هم.. ويتكلم كأنه يردد ما على ألسنتهم.. لم يعرف عنه أبدا أنه ينتمى لحزب من الأحزاب السياسية أو يتبع زعيما من الزعماء.. إنه لا يتكلم إلا باسم الوطن.. سواء اتفق أو اختلف مع أى حزب من الأحزاب أو أى زعيم من الزعماء..

وحمل المسئولية الوطنية دون أن يتعمد الزعامة.. حتى دخل الجامعة وأصبح اسما بارزا فى كل الحركات الوطنية.. وكان أحد قادة الطلبة فى التأييد العنيف لثورة ٢٣ يوليو.. لم تكن عقليته تتسع لدراسة التفاصيل ، ولكنه كان يغرق نفسه فى المبادىء الوطنية العامة.. والثورة تحمل كل هذه المبادىء.. وقد اعتمدت عليه قيادة الثورة.. واستطاعت أن تجذبه إلى التنظيم الذى أقامته.. ومرت سنوات طويلة وهو فى داخل هذا التنظيم.. كانت القيادة تعامله كأنه صبى صغير ليس من المفروض أن يوافق على شىء ، لكن يكفى دائما أن تسايره فى أوهامه وأحلامه.. تطعمه بترديد الشعارات والهتافات كأنها قطع من الحلوى تملأ بها فمه حتى تسكته.. لكنه بدأ يحس بأنه لم يعد يستطيع أن يصل إلى تحقيق أى شعار.. بدأ يحس أنه فقد حريته داخل هذا التنظيم.. ويفقد شخصيته مع فقدانه لحريته.. وأحس كأن الأسد قد سلم نفسه ليوضع فى قفص.. وهم يخرجونه من القفص بين حين وآخر ليقدم عرضا فى السيرك السياسى.. وبدأ يثور على هذا القفص الذى وضع فيه.. يثور على التنظيم السياسى الذى شكلته الثورة.. والقيادة تحاول أن تشغله بما يلهيه عن آرائه ومجادلاته التى يتعبها بها.. وتكلفه بمهام لها صور شعبية.. كأن يشترك فى هيئة.. أو يرأس جماعة.. أو يقود مظاهرة.. ولكنه يزداد إحساسا بأن ما يقدمه ليس أكثر من عروض فى

السيرك الكبير.. بل إنه بدأ يلتقط صوت الكرابيج ، وهى تطرقع فى الهواء فوق رؤوس الحيوانات التى تقدم عروض السيرك.. إن الأسد أصبح مجرد ممثل فى السيرك.. ولكن الأسود قد يزأر داخل السيرك.. وتثور على أصحابها وعلى مدربيها.. وبدأ تزأر.. وبدأ يعلن عن ثورته.. يحاول أن يحطم القفص الذى وضع نفسه فيه.. حتى يستطيع أن يهرب من السيرك.. ويتخلص من مدربيه.. ويستعيد حريته.. ويفرض شخصيته.. إلى أناأختفى فجأة من بين أسود وحيوانات السيرك.. لم يكن قد استطاع الهرب.. ولكنه وجد نفسه مقبوضا عليه ومعتقلا فى إحدى الواحات البعيدة..

عجيبة.. إنه يحس وهو معتقل فى هذه الصحراء البعيدة أنه قد استعاد كل شخصيته.. يحس بأنه عاد كأنه أسد من أسود الغابة السياسية.. وكل ما هناك أنه أصبح يقيم فى غابة ضيقة.. ولكنه يعيشها هو حر.. لم يعد حيوانا من حيوانات السيرك ، يقوم بتقديم ألعاب تحت فرقعة الكرابيج التى يسلطها عليه المدربون..

وعاش سنوات طويلة وهو معتقل فى هذه الواحة البعيدة.. ولم يكن سعيدا ، ولكنه لم يكن أيضا تعيسا.. كان يعيش مزهوا بشخصيته القوية.. شخصية الأسد الذى لم يستطع الصياد الأكبر أن يحتفظ به فى القفص ، وأن يستغله فى أداء ألعاب السيرك السياسى.. والشخصية القوية تحتمل المعاناة دون أن تفقد الأمل.. وهو لا يزال يعيش الأمل فى أن يفرض وجود هذه الشخصية القوية.. شخصية الأسد الحر لا الأسد الذى يلعب فى سيرك..

وفوجىء بعد هذه السنوات الطويلة بالإفراج عنه.. أخذوه من الصحراء البعيدة وألقوا به فى القاهرة.. وهو لا يدرى لماذا أفرج عنه ربما كانت هزيمة مصر عام ١٩٦٧ قد أوحت للحاكم بالإفراج عنه.. إنها ليست هزيمة مصر ولكنها هزيمة الحاكم.. ولكنه وجد أن كل ما فعله الحاكم فى مواجهة هزيمته هو إنه أعاد تشكيل السيرك

السياسى.. وتخلص من كثير من حيوانات السيرك القديم.. وبدأ يبحث عن حيوانات أخرى لتقدم العرض فى السيرك الجديد.. وقد أمسكوا به فعلا ليشترك فى العروض الجديدة فهو لا يزال معروفا كأسد من أسود السياسة.. وقد استسلم لهم فعلا.. استسلم ليفهم ويعرف.. ولكنه ظلا حائرا لا يفهم كيف يواجه هذه الهزيمة.. وما هو الرأى الذى يمكن أن يدعو إليه الناس.. إنه لا يستطيع أن يؤيد الحاكم لأنه حاكم مهزوم.. ولا يستطيع أن يطالب بطرد هذا الحاكم المهزوم : لأن طرده هو اعتراف أقوى بالهزيمة واستسلام كامل للعدو.. علاوة على أن هذا الحاكم حتى بعد هزيمته لم يطلق الحرية لأى أسد سياسى لأن يرتفع بزئيره.. ولذلك فقد اكتفى بأن يعيش حيرته صامتا.. ينتظر ما يمكن أن يحدث دون أن يكون له يد فيه ، ولا حتى كمجرد حيوان من حيوانات السيرك.. إنه مكتف بأن يبقى فى القفص حتى يتفرج الناس عليه.. إنه لا يزال محتفظا بمظهر الأسد..

إلى أن حدثت مفاجأة جديدة.. لقد ذهب الحاكم المهزوم.. وكأن الله سبحانه وتعالى هو الذى تدخل بنفسه لإنقاذ مصر فأخذه بعيدا عن السيطرة على الحكم.. وجاء الحاكم الآخر.. وفوجىء به فلم يكن ينتظر أن يكون هذا هو الحاكم.. ولكنه حاكم يتحرك بأسلوب جديد.. ويتكلم بأسلوب جديد.. ويرفع شعارات جديدة.. ووجد نفسه يندفع مع هذا الجديد ، وقد انطلقت آماله لتحقيق كل أهدافه الوطنية.. وبدأ يطلق الزئير السياسى.. والحاكم يترك له حرية أن يزأر بكل ما توحى إليه به آراؤه.. بل إن الحاكم بدأ يعتمد عليه كأسد من الأسود الشعبية.. وعاش أسدا عدة سنوات اقتنع خلالها بأنه استطاع أن يصل بزئيره إلى عالم جديد إلى أن تحقق فى هذا العام انتصار عام ١٩٧٣. إنه انتصار.. حتى لو كان انتصارا مقصورا على مجرد عبور قناة السويس.. ولكنه ما لبث أن وجد نفسه حائرا أمام هذا

الانتصار.. كما كان حائـرا أمام الهزيمة.. لا يستطيع أن يقف بجانب الحاكم.. ولا يستطـيع أن يحدد ما يطالب به.. ولم يستـسلم لحيرته صامتا ، ولكنه وجد نـفسه يندفع إلى إطلاق زئيره.. ولكنه يحس أنه زئير بلا هدف.. إنه فـقط يحس بأنه فى حاجة إلى أن يثيـر ضجة.. فهو لايرفض السلام مع إسـرائيل..ورغم ذلك لا يستطيع أن يتحمل هذا السلام مع إسـرائيل.. وكل ما يستطيعـه هو ألا ينام.. أن يعيش يقظا.. وأن يرتفـع بزئيـره حـتى يبـقى الشـعب كله يـقظان.. ولكن الحاكم كان قد بدأ يعيد تشكيل السيرك السياسى.. ولم يعد السيرك الجديد فى حاجة إلى مـثل هذه الأسود التى لا تكف عن الزئير.. ولم يعـد الحاكـم يطيق سمـاع أى ضـجـة.. فقـبض على كل الأسـود.. واعتقلهم فى أقفاص بعيدة عن السيرك السياسى.. !

ووجد مـعروف حمامـة نفسه مرة ثـانية فى المعتقل.. وكـما هى العادة ، وجد نفسه يرتاح من مسئولية الزئير دون أن يفقد إحساسه بأنه أسد.. حتى لو كان أسدا فى القفص..

ولم تمر شـهور على اعـتقاله حتى فـوجىء بأن الحاكم قد ذهب.. ولم يكن الله قد أخذه بنفـسه كما أخذ الحـاكم السابق ، ولكن أخذته جمـاعة لا يعـرف عنهم شيـئا ولا يدرى هل هم مـن الأسود أم من الحـشرات الـقاتلة.. إنـه طول عمـره لا يعـرف أحـدا من المخططين للعمليات السياسية.. إنه فـقط ودائما من الدعاة للمبادئ الوطنية..إنه يؤمن بتحـرك الشعب لا بتـحركات مـجموعـة من الأفراد.. إن ثورة ١٩١٩ كانت تحـركا شعبـيا ، رغم أنها كانت تحت قـيادة تنظيم من الأفراد.. وثورة ٢٣ يوليو كانت تحركا شـعبيا ، رغم أنها كانت تحت قيـادة تنظيم من ضباط الجيش.. لذلـك فهو يقصـر مسئوليـته على الدعـوة للتحـرك الشـعبى. الدعـوة للثـورة.. دون أن ينضم إلى أى تنظيم يمكن أن يقود هذه الثورة.. ودون أن يشترك فى أى تخطيط.. ربما كـانت كل مواهبـه فى الحركـة الوطنية هى قـدرته على الكلام

الذى يجمع من حوله الناس.. وكانت كلماته دائما من القوة كأنها زئير.. ولذلك أعتبر أسدا من أسود الحركة الوطنية..

وأفرج عنه الحاكم الجديد بمجرد ظهوره.. وهو لا يعرف هذا الحاكم.. لا يعرف كيف يفكر.. ولا أين يتجه !.. لا يعرف عنه إلا أنه أيضا من العسكريين.. ولم يبدأ بالزئير بمجرد إطلاق حريته.. وأحس بأنه يجب أن يصمت حتى يكتشف شخصية هذا الحاكم.. وفوجىء بأن السيرك السياسى القائم يتغير بسرعة ، ويقوم بدلا عنه سيرك جديد واسع يكاد يشمل الشعب كله.. إنه سيرك يتيح الحريات لكل اللاعبين ويترك الجميع يزأرون كما يشاءون.. والحاكم لا يزال يحتفظ بالسوط بين يديه ، ولكنه لا يطرقع به فى الهواء.. لقد أصبح الزئير حقا شرعيا لكل الحيوانات سواء للأسود أو للقرود.. حتى أنه بدأ يحس بأنه لو بدأ الزئير فسيضيع زئيره بين كل هؤلاء الذين يزأرون.. فكل الأحزاب السياسية المعارضة أصبح من حقها أن تزأر.. بل إنه حتى أعضاء حزب الأغلبية الحاكم يزأرون..

ولكن الزئير الشرعى ليس له قوة الزئير الثائر على الشرع.. إنه يفقدقوة التحريض ويفقد نبض الثورة وينطلق زئيره كمجرد كلام بصوت عال.. لذلك فالحاكم لا يرفع سوطه عليه.. إنه لا يرفع السوط إلا على التجمعات غير الشرعية التى تحاول أن تزأر علنا أو تطلق زئيرها من تحت الأرض..

ووجد نفسه يقتنع بهذا الحاكم الذى يطلق شرعية الزئير.. إنه حاكم يؤمن بأن الديمقراطية لا يمكن تحقيقها إلا بالتطور.. أى تطور النظم والحقوق الديمقراطية.. وما دام قد أتاح حرية الزئير السياسى فهو فعلا يؤمن بالتطور.. فإن حرية الزئير هى الطريق الوحيد لتحقيق أى تطور..

وكان يراوده إحساس بأنه يخدع نفسه بهذا المنطق.. فإن الحركة الوطنية العامة لا تقوم على الشرعية.. ولا تحقق أهدافها الكاملة إلا

إذا خرجت على الشرعية وتحدتها.. فإن الشرعية القائمة فى مصر ليست شرعية فرضها الشعب على الحاكم ، ولكنها شرعية تبرع بها الحاكم كتجربة لمواجهة الهزائم التى توالت على الحكم منذ بدأت الثورة.. ويستطيع الحاكم فى أى لحظة أن يسترد هذا التبرع ويسحب هذه الشرعية ، ويخمد الزئير ويعود ويطلق ديكتاتورية.. وقانون الطوارئ لا يزال معلنا.. وهو قانون الاحكام العرفية..

ورغم ذلك وجد نفسه مستسلما لهذه الشرعية المعلنة.. ووجد نفسه يسعى إلى صفوف الحزب الحاكم.. لم يبدأوا هم بالسعى إليه.. ربما لأنهم كانوا قد نسوا شخصيته السياسية.. فى حين أن كل أحزاب المعارضة كانت قد بدأت فى السعى إليه ليقف بين صفوفها.. إن التجمعات المعارضة لم تنسه أبدا طول عمره السياسى.. ولكن الحزب الحاكم كان يتجاهله ، ويحاول صده فى جميع مراحله.. إن الحاكم لا يحتمل من يزعجه.. ولا شك أنه كان معروفا بأنه شخصية سياسية مزعجة..

وقد استقبلته قيادة الحزب الحاكم بترحاب كبير.. وفرحة زاعقة.. بعد أن تذكروه.. وتذكروا أنه أسد من الأسود التى عاشت طويلا تملأ الغابة السياسية بزئيرها.. وبسرعة بدأ يعهد إليه بمراكز رئيسية فى إدارة الحزب.. حتى أصبح المسئول عن التنظيم السياسى للشئون الداخلية والمشرف على الاتصالات والتحركات العامة.. وقد عرض عليه أن يكون ممثلا للحزب فى مجلس الشعب.. أى أن يدخلوه فى الانتخابات ويضمنوا له النجاح.. وهو طول عمره يتصور نفسه نائبا فى البرلمان.. كأنه اعتراف شعبى بأنه قوة تمثل الشعب.. ولكنه قدر أن مجلس الشعب الحالى لا يمثل الشعب ، ولكنه يقوم على أغلبية تمثل الحكم.. وأحس بأنه لو أصبح واحدا من هذه الأغلبية فكأنه يفضح نفسه.. كأنه يعلن أنه أصبح موظفا سياسيا وليس سياسيا حرا.. ومن الأفضل أن يكتفى بأن يكون عضوا فى

الحزب حتى لا تكون له صفة رسمية بعضوية مجلس الشعب تقضى على صفته الشعبية.. أو على ما بقى له من هذه الصفة الشعبية..

وهو منذ اليوم الأول الذى دخل فيه بين صفوف الحزب الحاكم ، وكثير من اتجاهات الحكم وتصرفاته تثير فيه السخط والنقمة ، وتتعارض مع كل أحلامه الوطنية بل ومع المبادئ العامة التى يؤمن بها ، والتى عاش عمره يكافح من أجل الوصول إليها.. ولكنه وجد نفسه يتعلق بمبدأ جديد طرأ على فكره.. وهو مبدأ يسمونه باسم الواقعية.. أى الارتباط بالواقع الذى يعيشه الوطن.. وقد يفرض هذا الواقع اتخاذ اجراءات شاذة تتناقض مع الأحلام الوطنية.. كما أن هذا الواقع يفرض أن يعيش الوطن فى سلسلة من التجارب.. وقد تنجح تجربة وتستقر وقد تفشل ، فيتم التخلى عنها والبدء فى تجربة أخرى.. وهو طوال حياته السياسية كان يرفض الاعتراف بالواقع والاستسلام له.. كان يرفض مجرد أن يعيش هذا الواقع ويجرب محاولة إصلاحه.. وكانت كل حياته مرتبطة بأحلامه الوطنية.. وكلها أحلام تبدأ بالقضاء على هذا الواقع وهدمه والتخلص منه.. أحلام لا تتحقق إلا ببناء نظام سياسى آخر.. نظام للحكم.. ونظام لتمثيل القوى الشعبية حتى تسيطر على هذا الحكم.. ولكنه وجد فكره الآن يخلط بين الواقعية والأحلام.. بل بدأت الواقعية تغلب الأحلام وتفرض نفسها عليها.. وأصبح يؤمن بأن الواقعية هى الطريق المباشر الذى يحقق الوصول إلى الهدف.. بينما الأحلام قد لا تحقق أى هدف وتعيش بالناس فى أوهام.. ولكنهم يقيمون الواقعية على أساس الاستقرار.. وما هو الاستقرار... إنه استقرار الحكم واستقرار الحاكم.. أى ضمان قوة الحكم والحاكم دون التعرض ولو لمجرد التهديد الشعبى.. بل إنهم يؤمنون بأن أى حركة تهديد شعبية لا تكون إلا تهديدا أجنبيا.. أى أن أى تهديد هو تهديد من عدو أجنبى.. لا يمكن مع الاعتراف بالواقعية أن يتحرك أى

تهديد شعبى خالص وصادق..

وبدأ يستسلم للواقعية ويحصر فكره فى الحرص على الاستقرار.. وكانت طبيعته كأسد سياسى تكاد تدفعه أحيانا إلى الزئير.. وإلى المطالبة بالثورة على كل واقع الوطن.. ولكنه أصبح قادرا على أن يبتلع زئيره قبل أن يطلقه.. وكلما صدم بتصرف شاذ من تصرفات الحاكم اكتفى بأن يقول رأيه للمسئولين ، ولكنه لا يعلن هذا الرأى للناس ولا يزأر مطالبا بالثورة على هذا الشذوذ.. حرصا على الاسقرار أى أنه رغم كل ما يعانيه من أحاسيس وطنية رافضة لم يعد ثائرا ولم يعد يدعو إلى ثورة شعبية.. إنه مستسلم للواقعية..

ومع ذلك فهو لا يريد أن يغير نفسه كأنه انتهى كأسد سياسى من أسود الحركة الوطنية.. ولكنه يعترف بأن الأسد أصبح يعيش فى قفص.. ولكنه قفص يختلف عن الأقفاص التى وضع فيها من قبل بالقبض عليه واعتقاله...إنه قفص واسع يتسع لكل الأسود.. حتى أحزاب المعارضة فى مصر هى فى الواقع محصورة داخل أقفاص.. ومن حقها أن تزأر داخل القفص.. وهو ما يجعل زئيرها مجرد كلام بالصوت العالى.. إنه قفص واسع أقيم كأنه غابة صناعية تجمع كل الحيوانات... ويحرم فيها صيد أى حيوان سواء كان أسدا أو قردا.. إلا إذا خرج عن الغابة الصناعية.. وحاول أن يعيش فى غابة طبيعية خارج نظام الحكم ومتحررة من إرادة الحاكم.. وهو يستطيع أن يحتمل الحياة فى غابة صناعية مع الاحتفاظ بشخصية الأسد.. وكان ما يحلم به سياسيا أن تتسع آفاق هذه الغابة حتى تنطلق إلى أن تصل يوما ما إلى غابة طبيعية..



وقفز معروف حمامة من أمام مكتبه ، وأخذ يخطو خطوات عصبية داخل الغرفة ، ووجهه متجهم وشفتاه مقلوبتان كأنه متأفف

وساخط على نفسه.. لماذا يشغل فكره باستعادة تاريخ حياته السياسية ، كأنه يلتقط النياشين الوطنية التى سقطت من على صدره.. أو كأنه يحاول أن يبرر انحرافه الأخير نحو الاستسلام للواقع إن من الأجدى له أن يعترف بأنه شاخ.. والشيوخ تختلف مسئولياتهم السياسية عن مسئولية الشباب.. وقد بدأ كفاحه الوطنى وهو فى عمر الرابعة عشرة واستمر به منطلقا بشبابه حتى اجتاز عمر الثلاثين.. وهو الآن قد وصل إلى سن الأربعين ، لقد دخل عمر العواجيز.. والفرق فى مسئولية الجهاد الوطنى بين الشباب والعواجيز هو أن الشباب يعيش أحلامه أما العواجيز فيعيشون الواقع.. وخطر على باله صورة الزعيم مصطفى كامل الذى كان أول من بدأ فى مصر حركة وطنية قائمة على تنظيم شعبى داخل الحزب الوطنى.. لقد عاش جهاده وهو شاب فى العشرين ولم يتجاوز سن الثلاثين.. ولذلك كان يرفض التعامل مع الواقع السياسى.. كان مكتفيا بأحلامه السياسية.. ورغم القوة الوطنية الشعبية التى بذرها ، وأقام بها شخصية جديدة للشعب المصرى إلا أنه لم يحقق شيئا من أحلامه.. أما الزعيم سعد زغلول فقد بدأ يتحمل المسئولية الوطنية وهو عجوز.. لذلك فرغم استمرار تمسكه بمطالبه الوطنية فقد كان يقبل أن يتعامل مع الواقع.. حتى أنه قبل على نفسه أن يكون رئيسا للوزراء ، ورئيسا لمجلس النواب ، وتولى مسئوليات رسمية متعددة فى ظل الاحتلال البريطانى.. رغم أنه كان قد أعلن رفضه لتصريح الانجليز باشتراك المصريين فى الحكم.. بل إنه بلغ من واقعية سعد زغلول أنه تزووج ابنة رئيس الوزراء الذى كان مستسلما استسلاما كاملا للانجليز.. كأنه قبل أن يناسب الخونة.. ورغم ذلك استطاع أن يجعل فى قيادة زوجته شخصية نسائية لها قوتها فى قيادة الحركة الوطنية.. كما كان واقعيا فى الاعتماد على طبقة الأثرياء أصحاب الأرض فى تكوين القيادة

الوطنية.. كل رؤساء حزب الوفد كانوا من كبار الإقطاعيين أصحاب الأرض.. إنه حزب يمثل الواقع.. وهو الواقع الذى يحصر القيادة فى طبقة أصحاب الأرض ، فالطبقة المصرية التى تجمع الشعب الفقير من فلاحين وعمال وموظفين ليس فيها ما يؤهلها للقيادة.. وإن كان سعد زغلول يجازف أحيانا ويضم إلى مراكز القيادة أفرادا من الطبقة المتوسطة فى حدود ما يتطلبه الواقع.. وهكذا استطاع سعد زغلول بواقعيته أن يستمر بقوة الحركة الوطنية.. بل كانت قوة استمرت داخل الوطن حتى بعد أن مات سعد زغلول.. بل لا يزال تأثيرها تنبض به مصر حتى اليوم.. بعكس الحركة الوطنية التى كان قد بذرها مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطنى فقد ذبلت قوتها من بعده ، رغم كل ما كان يبذل لاستردادها.. وذلك لأن مصطفى كامل كان يعيش أحلامه ولم يتحقق منها شيء، بينما سعد زغلول كان يعيش الواقع.. إن التعامل مع الواقع هو الذى يضمن البقاء والاستمرار.. ويحقق الأهداف..

وألقى الأستاذ معروف حمامة بنفسه على مقعد عريض مستريحا إلى المنطق الذى يحادث به نفسه.. ولكن لماذا نذهب بعيدا فى الاستشهاد بالتاريخ المصرى.. إن التاريخ القريب أيضا يؤكد الفرق بين اختلاف مسئولية الشباب عن مسئولية الشيوخ.. أى الفرق بين مسئولية تحقق الأحلام ومسئولية التعامل مع الواقع.. لقد بدأ جمال عبد الناصر قيادة الثورة وهو فى شبابه.. تسيطر عليه أحلامه.. مستهينا بالواقع ويرفض الاعتراف به.. وسارت به الأحلام منتصرة على الواقع خطوات إلى أن وجد الواقع يصب عليه الهزائم ويكاد يقضى عليه.. وربما لو استمر به العمر لا نقلب واقعيا.. ولكنه مات قبل أن يتمكن من أن يكون واقعيا.. وخلفه أنور السادات.. وكان قد تعدى سن الشباب وأصبح عجوزا متخليا عن كل أحلام الشباب.. وأغرق نفسه فى أبعد أعماق الواقع.. واستطاع بواقعيته أن ينقل

مصر كلها إلى وضع جديد كان لا يمكن أن تحققه الأحلام.. إلى أن ذهب هو الآخر.. والحمد لله أن حسنى مبارك تولى القيادة بعد أن اجتاز عمر الشباب.. عمر الأحلام..وأصبح فى عمر لا يقبل تجاهل الواقع..

وابتسم الأستاذ معروف حمامة كأنه يهنىء نفسه على رجاحة عقليته السياسية التى وصلت به إلى هذا المنطق الذى أراحه.. ولكنه لا ينسى أن يقول لنفسه أن الارتباط بالتعامل مع الواقع لا يعنى التخلى عن الأحلام ، ولكنه يعنى السيطرة على الأحلام حتى لا تتجاهل الواقع...إلى أن يصل الواقع إلى تحقيق هذه الأحلام..

وانكمشت ابتسامة معروف حمامة عندما وجد فكره يقوده إلى استقراء تاريخ حياته الخاصة خلال العمر الذى عاشه.. لقد كانت أهدافه السياسية تستغرق كل أيامه.. لم يكن يحاول أن يخطو ولو دقيقة واحدة للسعى إلى بناء مستقبله الواقعى.. مستقبل يحقق به شخصية عاملة ناجحة توفر له الرخاء.. لقد قضى عمره وهو يكاد يكون فقيرا لا يصل إلى أكثر مما تركه له أبوه وأمه.. وهو مكتف دائما باعتزازه بنفسه كأسد من أسود الغابة السياسيين ومن أقواهم زئيرا.. ولكنه الآن وبعد أن انضم إلى حزب الأغلبية وتولى فيه كل هذه المسئوليات أصبح يفاجأ بالثراء الذى ينهال عليه.. لقد خصص له الحزب خمسمائة جنيه شهريا كمصاريف خاصة تعينه على أداء مهامه.. ووضعت سيارة تحت أمره يستخدمها فى تنقلاته.. حتى ولو أنه لا يتنقل دائما فى خدمة الحزب.. ثم أنه منذ تولى مسئولياته وأنواع جديدة من الأصدقاء تلتف حوله وتحاول أن تكسب وده ورضاءه.. إن من بينهم أصحاب مشروعات اقتصادية. أو قد تكون مشروعات تجارية.. وهم يعرضون عليه أن يشترك معهم فى هذه المشروعات.. إنها تحقق مكاسب ضخمة.. وهو يعلم أن كل ما يجذب هذه المشروعات إليه هو ما أصبح عليه من مكانة فى الحزب الحاكم..

لقد أصبح من أصحاب النفوذ فى الدولة.. وهم يريدون استغلال نفوذه.. كلمة واحدة منه ولو بالتليفون يمكن أن تحل أى مشكلة تواجه أى مشروع.. وقد قبل فعلا أن يشترك فى بعض هذه المشروعات.. رغم أنه لم يكن أبدا من رجال الاقتصاد أو التجارة أو من أصحاب المشروعات.. لم لا.. لماذا نفترض أن أى مشروع اقتصادى يشترك فيه أى مسئول هو مشروع على حساب المصلحة الوطنية.. مشروع قائم على التزييف والسرقة والخداع لمجرد أن هذا المسئول يشترك فيه.. إنه لا يشترك فى أى مشروع إلا بعد أن يراجعه مراجعة دقيقة.. وبعد أن يتأكد من سلامة نية القائمين به.. وارتباطهم بمصلحة الوطن ومصلحة الشعب...وهو مستعد للتحقيق فى أى مشروع اشترك فيه.. وإن كان يعلم أنه لن يتعرض للتحقيق طالما كان محتفظا بمكانته فى الحزب.. ومكانته بين الرؤساء.. وهو يعترف بأنه يخطو خطوات سريعة نحو الثراء.. وهذا الثراء يجعله يضيق بالوحدة.. وقد عاش طول عمره وحيدا.. وقد مرت به سنوات فى شبابه وهو فى انتظار أن يتزوج ابنة عمه.. لقد كان يربطه بها الحب.. وقد عانى هذا الحب طويلاً من حياته كأسد من أسود الحركة الوطنية.. عانى اعتقاله سنوات طويلة ومرات متعددة.. وعانى فقره الذى كان يتركه عاجزا عن إقامة حياة زوجية.. إلى أن أخذوها بعيدا عنه وزوجوها لمن هو قادر على الزواج.. باعوها فى السوق.. وأحس بصدمة فتتت أمله الخاص الوحيد ، وبدأ يقاوم الصدمة بالتطرف أكثر فى زئيره السياسى.. كأنه كان يسعى بنفسه إلى القبض عليه ، وقذفه فى قفص المعتقل حتى يلهى نفسه عن عذابه العاطفى بهذه الصدمة.. أو كأنه كان ينتقم لنفسه.. إن ابنة عمه لم تكن مجرد فتاة يريدها ، ولكنها كانت صورة من صور الحركة الوطنية.. إنها تمثل أحد الأهداف الوطنية التى يسعى إليها.. فهى أهداف تسعى إلى تحقيق العدالة الاجتماعية عن طريق تطهير نظام

الحكم.. ولو تحققت العدالة الاجتماعية فسيكون من السهل عليه أن يتزوج ابنة عمه.. هكذا كان يعيش حبه ويتحمل وحدته.. ولكنه الآن بعد أن استسلم للواقع وأصبح سياسيا واقعيا داخل قمة من قمم المجتمع.. سواء كانت العدالة قد تحققت أو لم تتحقق.. قد أصبح زبونا لامعا فى سوق الزواج.. كل عائلات القمة الاجتماعية بدأت تتهافت عليه وتعرض عليه بناتها.. وقضى فترة وهو يختار...إلى أن اختار أن يتزوج ابنة عبده عبيدة.. وهو من أبرز الشخصيات فى الحزب الحاكم.. إنه يكاد يكون رئيس الوزراء الدائم بلا وزارة.. وقد وافق عبده عبيدة على أن يعطيه ابنته.. وربما كان يقدر أنه لم يتقدم للزواج من ابنته إلا لأنها ابنة الشخصية البارزة المسيطرة.. ولكن عبده عبيدة أيضا لم يقبل أن يعطيه ابنته إلا لأنه أصبح شخصية بارزة فى الحزب ، ويبشر بمستقبل يحقق المزيد من البروز فى مجتمع السلطة.. إنه زواج حزبى.. أى أن الحزب الحاكم يتزوج بعضه بعضا..

وارتفعت ابتسامة ضيقة يائسة على شفتيه كأنه يرثى نفسه بها.. إنه لم يكن ينتظر أن ينهار أمام الواقع حتى يختار ابنة عبده عبيدة زوجة له.. إنه لم يكن يعرفها ، ولم يكن قد سبق أن التقى بها.. لم يكن هناك أى واقع يدفعه إلى أن يتزوجها ، إلا لأنها ابنة عبده عبيدة.. ولكن لماذا يلوم نفسه.. إنه يعيش واقعية سعد زغلول الذى وصلت واقعيته إلى الزواج من ابنة رئيس الوزراء..

واستراحت ابتسامته على شفتيه وتحرك إحساسه بتهنئة نفسه على أنه لا يزال محتفظا بقوة الأسد فى الغابة السياسية..



وعاود الأستاد معروف حمامة تفكيره فى إعداد الخطاب الذى سيلقيه هذا المساء فى الاجتماع الشعبى الذى يقيمه الحزب.. ولكنه وجد أن كل ما يطرأ على خياله لا يزال ينطلق من عقلية شبابه..

ينطلق من أحلامه لا من الواقع الذى أصبح يحمل مسئوليته..

وقفز من على مقعده ومد يده ومزق الورق الذى على مكتبه.. وألقى بقلمه بعيدا.. إنه لن يختار ما يلقيه.. ولن يعيد شيئا.. سيرتجل ما يخطر على باله عندما يقف أمام الجمهور.. إن مواجهته للجمهور تفرض عليه الواقعية التى تطمس أحلامه... وهو واثق أنه لن يقول ما يمكن أن يهدد الواقعية أو الاستقرار.. أى ما يمكن أن يكون إثارة للسخط إلى حد إعلان الثورة.. وهو واثق أنه يستطيع دائما أن يتكلم.. إنه لا يزال أسدا يستطيع أن يزأر.. حتى ولو أن زئيره قد أصبح مجرد كلام بصوت عال..

وبدأ يهم بالخروج من المكتب.. ويلف رباط عنقه ويمد ذراعيه داخل سترته.. إنه على موعد للقاء الرئيس عبده عبيدة.. اقترب من المرآة التى كان قد سبق أن حطمها فى بداية مناقشته لنفسه.. ورأى وجهه ممزقا مشوها بين كسور المرآة المحطمة.. وابتعد عن المرآة بسرعة وسار نحو الباب وهو يشوح بيديه كأنه يزيح عن طريقه أعمدة القفص الذى يعيش فيه الأسد..

على بركة الله
يا ابنتي

على بركة الله يا ابنتى

لم تكن فريدة فى منتهى الجمال.. ولكنها جميلة.. ولم تكن فى منتهى الذكاء.. ولكنها ذكية.. ولم يكن يخطر على بالها أبدا أن تقيس جمالها أو تختبر ذكاءها.. إنها لا تحاول أن تفسر أى نظرة يلقيها عليها أى شاب تمر به أو يمر بها.. ولا تحاول أن تقارن نفسها ببقية الفتيات.. وتتمنى أن تصل إلى ما وصلت إليه إحداهن.. أو تتعمد ألا تقع فيما وقعت فيه أخرى.. وحتى نجاحها فى كل الامتحانات المدرسية ، ثم وصولها إلى الجامعة وحصولها على الشهادة العليا ، لم يثر فيها إحساسا بأنها فتاة تتميز بذكاء واسع يستوعب كل ما تقدم عليه وتنجح فى تحقيقه..

لم يخطر على بالها أبدا أن الحياة تتطلب استغلال الجمال والذكاء.. إن الحياة بالنسبة لها مجرد مسئوليات محددة ضيقة.. وكانت تحصر نفسها فى مسئوليات تفصيلية عادية لا تدفعها إلى أى طموح للوصول إلى أى شىء.. إنها فقط تؤدى المسئولية التى تفرضها عليها الحياة.. إنها مسئولة عن التعايش مع عائلتها التى تضم أمها وأباها وأخاها الأصغر.. ومسئولة عن النجاح فى الامتحانات.. ومسئولة عن أداء ما تكلف به فى الوظيفة التى وضعت فيها بعد أن تخرجت فى الجامعة.. هذه هى كل حياتها.. إنها لا تحس حتى بمسئوليتها عن نفسها خارج المسئوليات المفروضة عليها..

وقد أدت بها هذه المكونات لشخصيتها إلى أن أصبحت تعيش الحياة فى عزلة كاملة.. كأنها تعيش الحياة وحدها.. ليس لها صديقات أو أصدقاء.. الناس كلهم مجرد أشكال تمر بهم.. وليس لها شيء تريده حتى ما يهم باقى الفتيات لاستكمال المظهر.. فأمها هى التى تختار ثوبها.. وهى التى تصفف شعرها أو تصحبها إلى الحلاق.. وهى التى تلون وجهها بالمساحيق منذ كبرت ، وأصبحت ناجحة.. وهى التى تصحبها إلى زيارة أقاربها وصديقاتها.. وتقبل فريدة كل ما تفرضه عليه أمها استسلاما حتى بلا اقتناع.. مجرد الإحساس بالانقياد لمسئوليتها تجاه أمها..

وأيضا لم تتعلق فريدة بأى هواية.. لم تتعلق بالقراءة.. وإن كانت أحيانا تفتح مجلة تصادفها وتتفرج على صفحاتها بسرعة ، ثم تلقيها دون أن تغوص فى أى صفحة منها... ولم تتعلق بأى فن من الفنون التى يطلقها الراديو والتليفزيون داخل البيت.. لم تتعلق بكاتب أو بمطرب أو ممثل ، ويدفعها تعلقها به إلى ملء فراغها بتتبعه والتمتع بفنه.. حتى الألعاب الرياضية لم تتعلق منذ طفولتها بأى لعبة منها...رغم أن أخاها الأصغر يملأ البيت ضجيجا بدراجته التى اشتراها له أبوه.. ثم بصرخاته التى يشاركه فيها أبوه ، كلما عرضت فى التليفزيون مباراة لكرة القدم.. بل إن أخاها وهو يكبر معها لا يكف عن التفاخر بانتصاراته فى كثير من الألعاب الرياضية.. إنه لاعب بنج بونج.. ولاعب تنس.. ولاعب كرة.. و..و.. وهى تستمع إلى كل هذه الضجيج دون أن يخطر على بالها أن تمارس أى رياضة.. كأن أخاها يعيش فى عالم آخر غير عالمها.. أو كأن كل هذا خاص بالذكور ولا يدخل فى حياة الإناث..

وقد تعودت فريدة منذ كانت صبية أن تنعزل وحدها تراجع واجباتها المدرسية ، حتى إذا أحست بأنها انتهت من مراجعتها قامت وجلست بجانب أمها أمام التليفزيون... ولا تتفرغ لمتابعة ما يعرضه

التليفزيون.. يكفى أنها جالسة بجانب أمها.. إنها تستطيع أن تتابع التليفزيون ، وهى تتحدث فى مواضيع لا علاقة لها بما تتفرج عليه.. وابنتها فريدة جالسة بجانبها لا تتابع كل ما يعرضه التليفزيون ولا كل ما تقوله أمها.. وإن كانت تمر بها لحظات متباعدة تضطر فيها أن تقول كلمة أو كلمتين لأمها..

وتظل فريدة بجانب أمها إلى أن يدخل أبوها الغرفة.. وبسرعة تترك مكانها وتعود لتنعزل وحدها فى غرفتها ، دون أن يقول لها أبوها كلمة أو تقول له كلمة.. كأنه ليس من حقها أن تجلس مع أبيها.. كأن الأب هو من حق الأم وحدها ، وليس لابنته حق حتى فى مجرد الجلوس بجانبه..

ومنذ بداية صباها لم تكن الأم ولا الأب يلاحظان على ابنتهما إغراقها فى الانعزال وحدها.. وفقدانها حيوية الانطلاق فى أى مجال خارج ما هو مخصص لها.. بل لم يلاحظا عجزها عن تبادل الكلام مع من حولها.. وانطلاقها فى حياة صامتة لا تمر بها إلا كلمات نادرة عابرة يتحرك بها لسانها.. لم يكن شىء من هذا يثير إحساس الأم أو الأب بأى شذوذ فى شخصية ابنتهما.. وربما كانا يحمدان الله على هذا الهدوء المطلق الذى تعيش فيه هذه الشخصية.. وربما كانت الأم سعيدة باعتماد ابنتها عليها اعتمادا كاملا يشمل كل تفاصيل حياتها.. وتتركها تتصرف فيها بلا أى تعليق أو أى رأى تبديه...كأن تبدى رأيا فى ثوب تختاره لها.. أو فى تسريحة الشعر التى تضعها على رأسها.. فهكذا تريد ابنتها.. مستسلمة لها غاية الاستسلام.. أما الأب فكأنه لا يشعر أبدا أو لا يعترف بأن له ابنة.. ولا يتذكر وجودها إلا عندما تطالبه زوجته بمصاريف العائلة ، وكأنه يتذكر ساعتها أن له ابنة مسئول عن توفير احتياجاتها..

ورغم ذلك فقد كانت تمر أيام متباعدة كل شهر أو شهرين تنطلق فيها فريدة خلال لحظات بشخصية متناقضة مع ركود شخصيتها ،

ومع هذا الهدوء والاستسلام الكامل الذى تتميز به.. إنها أيام تنطلق خلالها فى خناقة عنيفة مع أخيها الأصغر.. ويرتفع صوتها إلى حد الصراخ.. وقد ترتفع يدها وتصب ضرباتها عليه.. وغالبا لا تستمر هذه الخناقة سوى لحظات. وتنتهى قبل أن تصل الأم لتفرق بين الأخت وأخيها.. وتكتفى بأن تعيد إليهما الهدوء كلا منهما عن الاخر.. ولكن الأم لا تنسى أن توصيهما بألا تصل أخبار هذه الخناقة العابرة إلى الأب..وفى المرات القليلة التى كان الأب يعلم بأن ابنته قد تشاجرت مع ابنه كان ينحاز فورا إلى الابن ، دون أن يحاول مجرد معرفة دوافع وأسباب هذا الشجار.. وقد يتمادى وينهال على ابنته صفعا وضربا.. إنه لا يطيق أن تتحدى ابنته ابنه.. وتتجرأ عليه..

وقد تكون دوافع هذا الشجار العنيف الذى يقع أحيانا بين فريدة وأخيها هى دوافع الغيرة الكامنة فى أعصاب الأخت من أخيها.. ومن حقها أن تغار.. فأخوها هو معبود الأب والأم.. ولايبخلان عليه بشىء من متع الحياة.. بل يحيطانه بأكثر ما يحتاج إليه.. ويدللانه إلى حد أن أصبح صاحب الأمر.. بينما هى منزوية صامتة دون أن تحس بأمها أو أبيها وهما لا يحاولان انتشالها من انزوائها كأنهما هما اللذان فرضا عليها هذا الانزواء.. ولكن لم تكن فريدة تبدى أبدا ما يعبر عن غيرتها من أخيها الأصغر.. إنها مستسلمة له كما هى مستسلمة لأبيها وأمها.. ولكن إذا كانت أمها وأبوها مكتفيين بتجاهل كل مظاهر وحدتها وانعزالها فإن أخاها لا يتعمد هذا التجاهل ، ويثيرها فى تعامله معها حتى تفقد قدرتها على الهدوء وتنطلق فى هذه الخناقات معه..

إلى أن بدأت المشكلة..

لقد بدأت بعد أن وصلت فريدة إلى السادسة عشرة من عمرها.. وكانت الأم قد بدأت ترسم صورة جديدة لابنتها.. وأى صورة

تخطر لأى أم عن ابنتها التى بلغت السادسة عشرة إلا صورتها كزوجة ! متى تتزوج فريدة.. وكيف تتزوج ؟ المفروض أن موضوع زواج البنت يخطر على خيال الأم منذ أن تلدها.. وتعبر عنه ، وهى تهشكها وتداعبها ضاحكة.. وكثير من الأمهات ينظرن إلى كل طفل من أطفال العائلة أو أطفال الحى كأنهن يقدرن مدى صلاحيته ليكون زوج مستقبل ابنة كل منهن.. ولكن أم فريدة بلغ من تعودها على إهمال ابنتها أن خيالها لم ينطلق إلى تصورها كزوجة إلا بعد أن شبت وبدأت تجتاز السادسة عشرة من عمرها ، وكأنها فوجئت بها وقد كبرت.. وربما كانت مجرد التقاليد الاجتماعية هى التى دفعتها إلى فكرها وخيالها.. فكل بنت يجب أن تسعى إلى الزواج ابتداء من هذا العمر.. وهى حريصة على أن تحقق التقاليد الاجتماعية التى تؤكد نجاحها فى تحمل مسئولياتها كأم..

وقد بدأت الأم وهى مطمئنة إلى أنه من السهل أن تحقق زواج ابنتها فريدة.. فهى رغم ما تعرفه عن شذوذ انطوائها إلا أنها جميلة حتى لو لم تكن فى منتهى الجمال.. كما أنها ذكية ، ولو كانت ليست فى منتهى الذكاء.. ثم إنها ابنة عائلة ميسورة الحال ، وأبوها شخصية لها قيمتها فى مجال عمله.. وهو ما يغرى أى شاب بأن يطلبها للزواج.. على الأقل شاب تتوافر فيه القدرة الكاملة على الزواج وإقامة أسرة حتى لو لم يكن لامعا بين الشبان.. فهى - أى الأم- ليست كالمراهقات اللاتى يحلمن بالمستحيلات ويتطلعن إلى أبعد من الحياة العادية الميسورة الهادئة..حياة أفراد الطبقة الوسطى..

وقد وجدت الأم أن الواجب يفرض عليها أن تتعمد فتح مجالات البحث عن عريس لابنتها.. فأصبحت تصحبها إلى المجالات الاجتماعية التى يكثر فيها الزحام.. وتتعمد اصطحابها لزيارة كل عائلة تعرف أنها تضم شابا يمكن أن يتزوج.. ثم تكثر من دعوة

العـائلات إلى بيتـها.. حتـى لو كانت عـائلة لم تعرفـها إلا صـدفة ، ولكنها تعـرف أن لها ابنا يمكن أن يتقـدم للزواج.. وفى نفس الوقت بدأت تبذل مجهودا أكثر فى استكمـال مظهر ابنتها.. أصبحت تختار لها ثيـابا تثير الإعجـاب ، وترسم لها صورة البنت الراقـية المتطورة فى أناقتهـا.. بل كانت تتعمـد أن يكون الفستان الذى ترتديـه ابنتها غالى الثـمن ، حتى يعرف من يراها أنـها من عائلة غنيـة قادرة على دفع الثمن.. كـما أصبـحت الأم فى كل مناسبة تعـرض فيها ابنتـها تبذل مجهودا أكبـر فى تزويق وجهها بالألوان ، ووضـع شعرها على رأسـها وضعا جميلا رائعا.. كـأنها عروسة يعرضـها البائع فى زحام المولد..

وفريدة مستـسلمة استسلاما كاملا لأمـها.. حتى دون أن تسأل إلى أين تأخذها ولا لماذا تأخذها..

وقد بدأت الأم تكاد تطق من الغيظ من ابنتها.. إنها معها أمام هذه المجتـمعات ، ولكنـها تجلس بجانبـها صامـتة.. ولايتـحرك فيـها إلا ابتسامة ليس لها معنى تعلو شفـتيها بين الحين والآخر.. ولاتحاول أبدا أن تشتـرك فى أى حديث يدور أمـامها.. أو تـقدم على إثارة أى موضوع مهما كان تافهـا يطلق لسانها بالحديث.. إنما تترك أمها هى التى تتـحدث طوال الجلسـة.. وأغلب أحاديثـها عن ابنتـها الجـالسة بجانبها.. عن جمالها وعن أخلاقها الحـميدة وعن شـخصيتها القوية.. و.. و.. وفريدة صامتة كأنها لاتسمع أو كأن هذا الحديث لايهمها فى شىء..

وكـانت الأم تعـود إلى البـيت وتصـرخ فى وجـه ابنتـهـا.. لماذا لاتتكلمـين ؟ إنك لم تنطقى بكلمـة واحـدة.. ولماذا لا تقتـربين لا من الكبار ولا من الصغار.. كأنى حملت معى إليهم لوحا من الثلج..

وتظل الأم تلقن ابنتها ما تفعله أثناء هذه الزيارات.. وما يمكن أن تقوله.. كـيف تفتح مجـال الحديث مع الموجودين حـولها.. وتتعـهد

فريدة بأن تتكلم فى الزيارة القادمة.. ولكنها تعود وهى أمام الناس وتلتصق بأمها صامتة كأنها تحتمى بها من الناس.. وقد ضغطت على نفسها مرة أو مرتين وبدأت بالنطق بكلمات كما أوصتها أمها.. ولكنها كانت كلمات تمنت الأم لو لم تكن قد نطقت بها..

ولم يحدث زحام التهافت على الزواج من فريدة كما كانت تنتظر الأم.. إن فريدة لاتستطيع أن تفرض شخصية تغرى بالزواج.. ورغم ذلك فقد حدث أن تقدمت سيدة من عائلة محترمة تطلب فريدة لابنها وفرحت الأم فرحة كبيرة وحددت فورا موعد زيارة عائلية تجمع ابنتها والعريس للاتفاق على إعلان الخطوبة.. وأعدت الأم لهذه الزيارة إعدادا سخيا كريما تقدم خلالها مع الشاى كل ما يطرأ على البال مما يمكن تقديمه من الحلوى والمشهيات.. منتهى الكرم.. والعريس ليس وسيما ولا رشيقا.. إنه عكر الوجه مبعثر القوام.. ولكن من المعروف عنه أنه شاب ناجح.. وستتعود فريدة على شكله ومظهره بالزواج.. وجلست فريدة بجانب أمها وقد عقصت كل ملامحها.. لا تحاول أن تنظر إلى العريس ولو نظرة عابرة..وهو جالس بجانب أمه.. وهو الذى يتحدث ويحاول أن يشد فريدة إلى حديث.. وقد حاولت أمها أن تقرب بينهما أكثر فشدت أمه وجلست بها فى ركن بعيد ، ودعت العريس لينتقل ويجلس بجانب العروس.. فإذا بالعروس تزداد انكماشا ، وتبدو كأنها ترتعش من شىء تخافه.. كأنها تخاف هذا الرجل.. هل تخاف وجهه العكر أو تخافه لأنه مجرد رجل يقترب منها.. وأمها تبحلق فيها من بعيد وتكاد تصرخ باكية على حالها.. والعريس لا يزال يحاول أن يشد العروس إلى الكلام أو إلى ضحكة أو إلى مجرد ابتسامة.. إلى أن بدأ ييأس ثم نظر إلى أمه من بعيد ، وقام واقفا مستئذنا بالانصراف ومعه أمه بعد أن وعد بأن يتصل بهم تليفونيا كأنه مرحب بلقاء آخر مع العروس..

ولكنه لم يتصل أبدا تليفونيا.. ولا حتى معتذرا..

وضاع..

وبعد عام آخر جاءت أم أخرى بابنها تطلب فريدة.. وقد بذلت أم فريدة مجهودا أكثر.. واستطاعت أن تمد زيارة العريس للعروس مرتين أو ثلاثا.. ولكنه فى النهاية اختفى هو الآخر قبل أن يصل إلى إعلان الخطوبة أو حتى قراءة الفاتحة.. ضاع..

وكانت أم فريدة قد قررت أن تستمر ابنتها فى دراستها إلى أن تتزوج...ومن حق زوجها أن يختار لها ما يريد.. وقد استمرت فريدة حتى انتهت من دراستها الثانوية.. ثم التحقت بالجامعة.. وهى ناجحة دائما فى كل امتحان دراسى.. مما يؤكد احتفاظها بقوة عقليتها وذكائها.. إنها شخصية كاملة بدليل أنها تنجح فى الامتحان.. ولكنها وصلت الآن إلى العشرين من عمرها دون أن تتزوج أو تعلن خطوبتها.. أو تجد رجلا يختار لها مستقبلها..

وبدأت أمها تقتنع باتجاه آخر نحو ابنتها.. إن الجيل الجديد لا يعتمد على الأهل فى تحقيق الزواج.. لم تعد من مسئولية الأم أو الأب البحث عن عريس لابنته أو عروس للابن.. إنما البنت هى التى تبحث عن عريسها.. والابن هو الذى يبحث عن عروسه.. إن الجيل الجديد يؤمن بأن الإنسان لا يستكمل شخصيته إلا إذا كان حرا.. وأن يكون حرا حتى فى اختيار نصفه الثانى الذى يستكمل به حياته.. وهو اختيار يقوم دائما على وقوع حالة حب بين الفتاة والفتى.. ولا يمكن أن يفرض الأب أو الأم الحب على ابنتهما أو ابنهما.. إنما هى حالة تنفجر بها العواطف ، كما تنفجر البراكين والزلازل بإرادة الله.. ولماذا تذهب الأم بعيدا فى تصور الواقع.. وتتصوره واقعا فرضه الجيل الجديد.. إنها هى نفسها تزوجت عن حب.. هى التى اختارت زوجها.. واختارته من خارج بيت العائلة.. وظلت شهورا طويلة تقاوم المستحيلات.. وتقدم على منتهى

التضـحية.. حتـى تزوجته.. وقد كـانت عائلتهـا أيامها ثائرة عليـها ويتهمـونها بالانحلال.. كـان المجتمع كله ثائرا عليهـا.. ولكن العائلة والمجـتـمع كله أحـاطوها بكل التـقدير والاحـتـرام بعـد أن تزوجت حبيبهـا.. إن الحب ليس له أى صورة أمام الناس إلا صورة الزواج.. وقد تطورت التقـاليد حتى أصبح المجتمـع يعترف بالحب بين البنت والولد حـتى قبل الزواج.. فلمـاذا لا تترك لابنتـها حـق البـحث عن الحب أى حق البحث عن عريس تتزوجه ، كما كانت قد أعطت لنفسـها هذا الحق.. وهى تعلم أن ابنتها تختلف عنها فى شـخصيتها.. إنها لم تكن أبدا مـثل ابنتـهـا فى اختـيـارها العـزلة والانطواء والصـمت.. بالعكس.. كانت جريئـة منطلقة لا يهدأ لسانها أبدا.. ولكن ابنتـها قد انتـقلت الآن إلى مجـتـمع عريض مـفـتوح يجـمع البنات والأولاد.. مجتمع حـر منطلق إلى آخر نهايات الحرية.. وهو مجتـمع الجامعة.. وقـد يشدها هـذا المجتـمع خـارج شخـصـيتـها المـنطوية.. وتنطلق بشخـصية جـديدة تكفل لها العـثور على عريس.. قـد يكون من بين أساتذتهـا أو من بين زملائها.. إنهـا تعيش كل أيامـها بين آلاف من الذكور ولا يمكن ألا يكون من بينهم واحـد يشدها إلى الحب ثم إلى الزواج..

وقررت الأم أن تقـصر جهدها على توجـيه ابنتها إلى الاخـتلاط بزملائها وأساتذتها الشباب.. وتلقينها كيف تستطيع أن تربط نفسـها بمن يخـتاره منهم.. وفى كل يوم كـانت تنفرد بهـا بعد عودتـها إلى البيت وتسـألها عن كل خطوة خطتها ، وكل كلمـة نطقت بها ، وهى فى المجتمع الجـامعى.. ولكنها لا تجد فى ابنتها مـايبشر بأى تطور فى شخصيـتها.. إنها منعزلة حتى داخل الجامـعة.. وليست منعزلة عن زملائهـا الطلبة الذكـور وحدهم بل منعزلة أيـضا عن زميـلاتها الإناث.. إنها وحدها فى الجامعة كما هى وحدهافى البيت.. وإن كانت أحيـانا تروى لها عن طلبة من الشـبان ، حاولوا التعـرف بها بل إن

بعضهم بدأ مباشرة بمغازلتها ولكنها كانت تستطيع دائما أن تهرب منهم وتبعدهم يائسين..

ومرت سنوات الجامعة بلا أى جديد فى حياة الابنة فريدة.. وقد أصبحت موظفة فى إدارة محترمة.. ولم يكن أبوها هو الذى سعى لتصل إلى هذه الوظيفة.. فهو لايهتم بها ولا يحس بوجودها.. ولم يعترف بها كطالبة فى الجامعة حتى يبحث لها عن وظيفة بعد أن تخرجت.. ولكن كانت الأم أيضا هى التى سعت لتعيينها فى هذه الوظيفة المحترمة عن طريق ابن عمتها الذى يحتل مركزا ممتازا.. إنها تريد لابنتها أن يكون لها أى صنعة.. فقد كانت تحمل صفة طالبة جامعية.. وبعدالجامعة يجب أن تحمل صفة الموظفة فى إحدى الإدارات ، وما دامت لا تحمل صفة زوجة.. ولكن الأم لا تزال متعلقة بأمل أن تعثر ابنتها على من يتزوجها.. ومجتمع الوظيفة أضيق من مجتمع الجامعة.. إنها موظفة بين العشرات فقط ، وليست بين الآلاف كما كانت وهى طالبة.. وربما أتاح لها المجتمع الضيق أن تجد الرجل الذى يخترق شخصيتها المنعزلة ، ويشدها إلى الحب ثم الزواج.. ولا تزال تنفرد بها كل يوم بعد عودتها وتسألها عن كل خطوة وكل كلمة.. وهى كما هى لا تحس بأحد من الرجال الذين حولها.. وإن كانت قدحدثتها عن زميل لا يكف عن إلحاحه بأن تمنحه مجرد صداقتها.. وهى لا تطيقه.. ولا تحتمل إلحاحه.. إنها تعانى من وجودها معه فى نفس المكتب.. حتى استطاعت أن تنتقل إلى مكتب آخر.. ولكن بعد أيام بدأت فريدة تحكى لأمها عن زميل آخر تراه من بعيد.. إنه شخصية رائعة تجذب كل العاملين معها.. وهو محترم ورزين.. ثم أنه وسيم ورشيق.. وصاحت الأم وهى تطير بالفرحة.. لقد سمعت ابنتها لأول مرة تبدى إعجابها برجل.. وصاحت تسألها :

– ماذا قال لك وماذا قلت له.. ؟

وقالت فريدة وهى تبتسم مع نهدة متحسرة :

– لم أقل له.. ولم يقل لى.. إنه لا يعرفنى.. بل لا أدرى حتى إذا كان قدعرفنى بعينيه.. إن مكتبه فى حجرة أخرى غير حجرة مكتبى.. وليس هناك ما يجمعنى به ولو من بعيد..

وتنهدت الأم كأنها تولول على خيبة ابنتها.. ثم سألتها :

– وما اسم هذا الرجل الرائع..

وأجابت فريدة وهى ترخى عينيها كأنها فى لقاء مع هذا الرجل :

– اسمه منصور..

وصاحت الأم :

– أى منصور هو.. ما هو بقية اسمه..

وقالت فريدة وقد تفتحت عيناها كأنها صدمت باكتشاف جهلها :

– لا أدرى.. إنهم فى المكتب يرددون اسم منصور.. منصور بيه الأستاذ منصور.. ولم أسمع بقية اسمه..

وصرخت أمها وكأنها تهم بأن تصفعها أو تمد أصابعها وتخنقها لتتخلص من انهيار أملها فيها :

– يا خيبتك.. يا خيبتك..

ثم جمعت أعصابها تضغط عليها حتى هدأت ، وبدأت تلقى على ابنتها دروسا فى كيفية تقديم نفسها فى المجتمع والتعرف بكل من تريد التعرف به.. كانت كأنها تلقى عليها درسا فى فن اصطياد الرجال وترسم لها السنارة الاجتماعية التى تصطاد بها.. والطعم الذى يغرى ويشد الصيد.. وابنتها فريدة تستمع صامتة كمجرد استسلام واحترام للأستاذ الذى يلقى عليها الدرس..

ومرت الأيام دون أى تطور يبشر بأى أمل.. بل إن الأم وصلت إلى حد التردد مع ابنتها على السحرة وقارئات المستقبل من المشعوذين.. رغم أنها لم تكن تؤمن أبدا بالسحر.. كانت طول عمرها تؤمن بأن المرأة هى ساحرة نفسها.. هى التى تستطيع أن

تسحر حتى تصل إلى أغراضها.. ولم تصل حتى عن هذا الطريق إلى أى تطور فى طبيعة شخصية ابنتها.. وقد أصبحت الآن فى السادسة والعشرين من عمرها ولم تتزوج.. هل ستقضى هذه الابنة عمرها كله بلا زواج.. إنها هى نفسها لا يبدو عليها أنها تحس بأنه ينقصها شىء بلا زواج.. وأيامها كلها تتعاقب فى روتين واحد لا تتغير ساعة من اليوم.. عن أى ساعة فى أى يوم آخر.. إن الزواج بالنسبة لها هو شىء تريده أمها.. وكأنها هى لا تريده.. وهى تستسلم لكل ما تريده أمها ولكل ما تفرضه عليها.. بحكم طبيعتها التى تفرض عليها الاستسلام..

إلى أن ظهر الدكتور الشاب محمود مرعى فى حياة العائلة..



كانت الأم وحدها فى زيارة عائلة ابن عمها.. ولم تكن تربطها بعائلة ابن عمها علاقة عائلية كاملة إنما كانوا يتبادلون أداء الواجبات ، ولا يتزاورون إلا فى المناسبات.. وقد كانت تزور العائلة بمناسبة أنها عرفت أن ابنتهم قرأت الفاتحة لها كمقدمة لإعلان خطبتها على عريس.. وكانت العائلة كلها مجتمعة ومن بينهم ابن العائلة.. أى ابن عمها.. الدكتور محمود مرعى.. وهى تعلم أنه طبيب نفسانى.. ورغم أنه لا يزال شابا إلا أنه نجح نجاحاكبيرا كطبيب والتف حوله زحام من مرضى النفوس وخصوصا من النساء والمراهقات.. ما هو المرض النفسى ؟ إنه كبقية الأمراض.. نتيجة تسلل ميكروب إلى شخص المريض.. ولكن ميكروب المرض النفسى هو ميكروب اجتماعى.. يتسلل من المجتمع الذى يحيط بالشخص.. ولا ينهش فى جسده مباشرة، ولكنه ينهش فى كيانه المعنوى.. أى فى قدرته على تحمل معانى وظروف الحياة من حوله.. مما يؤثر على قدرته على تحكيم عقله فى هذه المعانى والظروف.. وتتفتت حالته النفسية.. وقد ينتهى إلى أن يعجز جسده عن مقاومة أى ميكروب مرضى ، ويعيش

مريضا بجسده كما أنه مريض بعجزه عن تحمل حياته.. وقد عرف الدكتور محمود مرعى بقدرته على اكتشاف الميكروب من داخل المجتمع الذى يعيشه الفرد..

وكان كل المجتمعين فى هذه الزيارة ملتفين حول الدكتور محمود مرعى يسألونه ، ويشدونه إلى أن يروى لهم تفسيرا لحالات سمعوا بها أو خطرت على بالهم.. بعضهم يسعى إلى أن يسمع حكايات يتسلى بها.. وبعضهم يعانى فعلا من ضياع نفسى.. وهو يتكلم ويروى تفسيرا لكل حالة.. يتكلم هادئا وبصوت له رنة جذابة محترمة.. وأم فريدة تستمع إليه صامتة وهى تسائل نفسها ، وتكاد تصرخ بتساؤلها.. لماذا لا تلجأ إليه ليكتشف الميكروب الذى يعيش فى شخصية ابنتها فريدة، ويجعل منها فتاة شاذة فى عزلتها وانطوائها.. لقد كان يجب أن تلجأ إليه منذ البداية.. ولكنها كانت أغبى من أن تلجأ إليه.. ربما لأنها لم تكن تريد أن تفضح حالة ابنتها أمام فرد من أفراد العائلة حتى لو كان الدكتور محمود مرعى..

وظلت أم فريدة ضيفة على العائلة وعيناها لا تستريحان من البحلقة فى وجه الدكتور محمود.. حتى بدأ بقية الزائرين ينصرفون وخف زحامهم.. فاقتربت منه وقالت هامسة وهمساتها تتساقط كدموع تكتم صراخا :

– إنى فى حاجة إليك يا دكتور محمود.. إن ابنتى فريدة فى حالة شاذة.. ليست حالة مرضية وأعتقد أنها حالة نفسية..

وقال الدكتور محمود وهو يهمس هو الآخر مراعاة لأنه لا يزال حولهم بعض أفراد العائلة :

– منذ متى وهى تعانى هذه الحالة ؟

وقالت الأم كأنها تبكى :

– لا أدرى منذ متى.. ربما منذ ولدت وتفتح وعيها ، وهى فى هذه الحالة.. ولكنى لم أكتشف حالتها إلا بعد أن كبرت..

وقال الدكتور محمود فى هدوء :

– ربما لم تكن حالة.. ولكنها من معالم شخصيتها الطبيعية..

وارتفعت همسات الأم قائلة :

– لا يمكن أن تكون هذه من طبيعة أى فتاة.. إنها منعزلة دائما منطوية على نفسها صامتة.. لا تسعى إلى شىء إلا إلى النجاح فى امتحانات المدرسة.. تصور أنها الآن فى السادسة والعشرين من عمرها ولم تتزوج.. ولا يبدو عليها أن الزواج يهمها أوأنها تسعى إليه ولو فى أحلامها.. رغم أنك رأيتها وتعلم أنها جميلة.. وهى ذكية ولا ينقصها أى شىء يشد إليها الزواج..

وقال الدكتور محمود مبتسما :

– إن رفض الزواج قد يكون من معالم الرقى الذهنى.. والاعتزاز الأمثل للاحتفاظ بشخصية مستقلة قائمة بذاتها.. أنا شخصيا فى الخامسة والثلاثين من عمرى ولا أفكر فى الزواج ، ولا أقدم على أى محاولة رغم إلحاح أمى..

وقالت الأم كأنها تستجديه :

– إنى أتمنى أن تراها شخصيا لتكتشف هل هى حالة يمكن علاجها.. أم أنى يجب أن استسلم للقدر الذى منحنى ابنة هذه هى طبيعتها.. متى تستطيع أن تراها..

وقال الدكتور محمود وكأنه بدأ وصف العلاج :

– لقد تعودت ألا أنجح فى اكتشاف شخصية الابنة إلا إذا بدأت باكتشاف شخصية الأم.. أى أنى يجب أن أبدأ بك أولا..

وقالت الأم متعجلة :

– ماذا تريد أن أحكى وأروى لك..

وقال مبتسما كأنه يربت عليها مطمئنا :

– ليس الآن يا طنط.. ولا هنا.. سأحددلك موعدا فى العيادة.. وحدد لها الموعد بسرعة ثم التفت إلى باقى من حوله وترك الأم

وهى لا تزال مبحلقة فيه كأنها متعلقة بكل ما تركه لها الله من أمل..



وتعمد الدكتور مرعى ألا يستقبل الأم فى العيادة كما يستقبل المرضى.. استقبلها كأنه فى حاجة إليها أكثر من حاجتها إليه.. ولم يدخل بها إلى غرفة الكشف بل اكتفى بالجلوس معها فى مكتبه.. ويحادثها فى احترام كبير باعتبارها ابنة عم أبيه وإحدى شخصيات العائلة المحترمة.. تركها تتحدث عن حالة ابنتها فريدة.. وتطيل فى سرد التفاصيل.. وهو يقدر مايسمعه بأنها تغالى أحيانا فى السخط على ابنتها.. وتتلعثم أحيانا كأنها تخفى بعض التفاصيل.. ولاحظ أنها فى كل ما قالته لم تذكر شيئا عن الأب.. أبو فريدة.. كأنه ليس له حساب فى حالتها.. وقد تركها تتحدث طويلا إلى أن بدا عليها كأنها قالت كل شيء.. أو لعلها تعبت من كثرة ما قالته.. فسألها الدكتور مرعى فى رفق :

– والأب.. أى نوع من العلاقات قائم بين فريدة وأبيها.. هل هو يتمادى فى تدليلها.. أم يتعمد القسوة عليها وإخافتها منه..

وتجهم وجه الأم وقالت ساخطة :

– إنه لا يدللها ولا يقسو عليها.. إنه لا يحس بأن له ابنة.. ومنذ أن ولدت فريدة وهو يتجاهلها.. لم يحملها يوما بين ذراعيه.. ولم يقترب منها بقبلة أبوية حتى اليوم.. ويتركها كلهالى وحدى.. ويحملنى وحدى كل مسئولياتها..

وقال الدكتور محمود فى دهشة :

– لماذا.. ما الذى دفعه إلى تجاهل ابنته إلى هذا الحد..

وقالت الأم بمزيد من السخط :

– إنه كبقية الآباء الرجعيين المعقدين الذين لا يتمنون ولا يتحملون إنجاب بنات.. ومنذ كنت حاملا وهو يحذرنى من أن أنجب له بنتا.. وكان قضاء الله أن أنجبت له فريدة.. ومنذعرف أنها بنت

ابتعد عنى حتى أنه لم يحاول الاطمئنان على صحتى عقب الولادة ، كأنه كان يتمنى الموت لى ولها.. وقد عشت بعدها سنوات وأنا أبذل جهدا جبارا لأشد زوجى إلى أن حملت منه مرة أخرى.. وقضى معى شهور الحمل وهو فى منتهى النقمة والسخط خوفا من أن ألد له بنتا أخرى.. ولكنى أنجبت ابنى عادل.. وحدث العكس.. لقد فرح زوجى فرحة كبيرة ثم كأنه وهب كل حياته لابنه.. لقد غمره بالرعاية والتدليل والإفراط فى الاستجابة لكل ما يحتاج إليه.. بل إنه حمل مسئوليته وحده وكأنه اعتبرنى مجرد مرضعة ودادة لابنى وليس لى حق التصرف فى أى شىء يخص هذا الابن.. وهذا هو حاله حتى اليوم.. يعيش متجاهلا ابنته تجاهلا تاما ، ومفرطا إفراطا شاذا فى رعاية ابنه وتدليله حتى أفسده. وجعله شابا مستهينا بكل ما حوله.. أى أنى أعيش وأنا أعانى شذوذ البنت وشذوذ الولد..

وقال الدكتور محمود مرعى وقد اشتد تركيزه على هذه الحالة :

– كيف تزوجت ؟

وقالت الأم وهى ترخى عينيها كأنها خجلة :

– لن أخفى عليك.. فقد كان لزواجنا حكاية.. وهى حكاية حب طويلة انتهت إلى الزواج.. ولم يكن الأهل يعترفون بالحب ولكنهم اعترفوا بالزواج..

وسكتت.. وأحس الدكتور محمود أنها لا تريد أن تروى تفاصيل قصة هذا الحب الذى انتهى بالزواج.. ولم يلح عليها لتروى.. وقال :

– هل أستطيع أن التقى بالأب..

وقالت الأم بسرعة :

– لن تخرج منه بشىء يمكن أن يعاونك على علاج فريدة.. والأجدى أن تبدأ المحاولة بلقاء ابنتى فريدة..

وقال الدكتور محمود بسرعة :

– إن شخصية الأب تعتبر عنصرا أساسيا فى تكوين شخصية

الابنة..

وقالت الأم في مرارة :

– لا أعتقد أن زوجي سيقبل لقاءك كطبيب يتولى علاج ابنته.. إنه لا يعترف بأن ابنته مريضة ، وحى لو اعترف بأنها مريضة فلا يهمه أن يبذل أى مجهود لعلاجها.. ولو مجرد لقاء الطبيب..

وسرح الدكتور محمود مع أفكاره لحظة.. ثم قال :

– أريدك يا طنط أن تدعيني إلى بيتكم.. ولتكن الدعوة لأختى وخطيبها أيضا حتى تبدو دعوة عائلية تكريما لأختى بمناسبة قراءة الفاتحة لها.. وحتى لا أكون أنا مدعوا كطبيب.. إنما كمجرد فرد من أفراد العائلة.. وطبعا سأجتمع في هذه الدعوة بفريدة.. وسيكون والدها في استقبالنا بما أنها دعوة تشمل الرجال وليست مقصورة على النساء.. وقد أستطيع في هذه الجلسة أن أخطط لما يحتاج إليه علاج فريدة..

وقالت الأم في تردد :

– إني لم أتعود دعوة أفراد عائلات أولاد عمي.. وأخشى أن يندهش زوجي لهذه الدعوة إلى حد أن يرفض السماح لي بها..

وقال الدكتور محمود في إلحاح :

– حاولي.. قولي له إنك أحرجت بدعوتنا عندما كنت في زيارتنا.. حاولي قبل أن اضطر إلى وضع تخطيط جديد لعلاج فريدة..

ومن قبل أن تصله الدعوة والدكتور محمود يخصص جانبا كبيرا من فكره في محاولة تفسير حالة فريدة.. إنها حالة مثيرة لفن العلاج النفسي كما سمعها من أمها.. وهو لم يلتق بفريدة كثيرا ولم يسبق أن اهتم بها أبدا.. ولكنه يذكر أنها فتاة على مستوى من الجمال.. كما أنها لا شك فتاة حادة في ذكائها وقد سمع أفراد العائلة يشيدون بنجاحها في الامتحانات وتقدمها في حمل مسئولياتها.. فلماذا لم تتزوج حتى الآن رغم أنها وصلت إلى

السادسة والعشرين من عمرها.. أو لماذا لا تريد ولا تسعى إلى الزواج.. لا شك أن هناك قصة تختفى وراء فريدة لم يسمعها من أمها..

ودفعه البحث عن هذه القصة إلى أن جلس مع أمه يسألها :

– هل تذكرين كيف تزوجت ابنة عمك أم فريدة ؟

وقالت الأم ضاحكة :

– لقد كانت أم فريدة بين بنات العائلة كأنها أعجوبة من الأعاجيب.. كانت فى منتهى الشقاوة ومنتهى الجرأة لا تحسب أى حساب لأمها أو أبيها أو للعائلة كلها.. وكان اسمها يتردد بيننا فى كل جلساتنا.. سميحة تركب الدراجة.. سميحة تصاحب فلانا وتخرج معه.. سميحة عادت إلى بيتها الليلة الماضية فى الساعة العاشرة.. حكايات لا تنتهى.. حتى أن أهلنا كانوا يحذروننا من مصاحبتها.. ولم نكن نراها إلا فى المناسبات العائلية.. وكل بنات العائلة تزوجن قبل أن تتزوج سميحة ، فقد كانت سمعتها وما يقال عنها يبعد كل من يريد الزواج عن التقدم إليها.. ربما يتقدمون لمصاحبتها ولكن لا أحد يتقدم للزواج.. إلى أن بدأنا نسمع أنها صاحبت المهندس فريد شكرى.. وأنها تظهر معه علنا.. وتسهر معه وتراقصه علنا.. بل إننا سمعنا يوما أنها هربت معه وقضيا يومين فى الاسكندرية.. ثم عادت إلى بيتها وكان أبوها قد مات منذ كانت صبية فلم يقتلها أو يطردها من البيت.. وأمها تترك لها باب البيت مفتوحا ، وهى تكاد تموت خجلا منها ، وتشيع عنها أنها مجنونة ، وكل أخواتها عقلاء ، وقد حققوا فعلا النجاح فى تكوين أنفسهم ومستقبلهم.. وكنا كلنا لا ننتظر أن تنتهى سميحة بالزواج من المهندس فريد شكرى.. فقد تعودنا ألا تصل أبدا إلى الزواج.. ولذلك فوجئنا ودهشنا عندما انتهت إلى الزواج فعلا من المهندس فريد شكرى.. وحاولنا بعد زواجها أن ننسى ماضيها ، ولكن كما ترى

فإننا حتى لو كنا نسينا لا نستطيع أن نعتبر سميحة كواحدة مثلنا.. لا نزال نعتبرها خطيرة.. ولا نتبادل الزيارات معها إلا فى المناسبات العائلية.. هذه هى قصة ابنة عمى سميحة.. ولا شك أنها الآن زوجة مستقيمة تحب زوجها إلى حد أن اختارت لابنتها اسم أبيها.. فريدة وفريد..

واستمع الدكتور محمود مرعى إلى القصة التى روتها له أمه ، وقضى أياما وهو يحاول أن يفسرها ويحللها علميا بما يوحيه علم النفس ، ليكتشف احتمالات انعكاس هذه القصة على حالة الابنة فريدة. ولكنه لم يستطع أن يصل إلى تفسير واضح يحدد العلاج..

إلى أن اتصلت به الأم ووجهت إليه الدعوة وأكدت له أن زوجها رحب بها.. وكانت دعوة إلى الشاى تبدأ فى الساعة الرابعة ، حتى يتسع لها وقت الدكتور محمود قبل موعد عمله فى عيادته..

وذهب مع أخته وخطيبها.. وتعمدأن يجلس منذ البداية بجانب الابنة فريدة.. وحاول بكل مواهبه التى اكتسبها من ممارسة الطب النفسى أن يشدها إلى الكلام.. ولكنها تبدو عقب كل كلمة تقولها كأنها قددهمتها الحالة التى تعانيها فتعود إلى الإغراق فى الصمت.. كما أنها كانت تبدو مطمئنة فى جلستها معه.. ربما لأنها لا تحس بأنه واحد من أفراد العائلة وليس غريبا جاء لخطبتها.. كما أنها ترفع إليه عينيها وتنظر إليه فى فترات متقاربة ، وإن كانت تعودوترخيهما عنه.. وقد تجرأ الدكتور مرعى وسألها ضاحكة :

– لماذا لم تتزوجى حتى الآن.. متى نفرح بك كما فرحنا بأختى..

وأجابت بسرعة وهى تدير وجهها عنه كأنها ترفض هذا السؤال :

– اسأل ماما..

وقال ضاحكا :

– أنت التى تتزوجين لا ماما..

ولم ترد عليه..

ولم يكن أبو فريدة.. المهندس فريد شكرى قد ظهر بعد.. وعندما سأل الدكتور محمود عنه قالت له الأم إنه يتأخر دائما فى عمله.. إلى أن ظهر الأب.. وما كاد يدخل إلى المدعوين حتى قامت ابنته فريدة مباشرة من جلستها ، واختفت داخل البيت.. وقدلحقت بها أمها.. ربما حاولت أن تعيدها ، ولكنها عادت وحدها وقالت لأخت محمود ضاحكة فى افتعال :

– إن فريدة تريد أن تنفرد بك.. ربما تريد أن تتحدث معك عن أسرار البنات..

ثم صحبت أخت محمودودخلت بها وتركتها مع فريدة ، وعادت إلى جلسة الشاى التى لم تعد تجمع إلا الرجال.. وكان الدكتور محمود قد فوجىء بهروب فريدة من أمام أبيها وسيطرت عليه الدهشة.. لقد كانت كأنها تهرب من أمام وحش يهددها.. واختفت دون أ تحيي أباها بمناسبة وصوله أو حتى تلتفت إليه.. وقد بلغ من دهشته أنه كاد يهمل مصافحة الأب.. والأب هو نفسه الذى تقدم إليه مرحبا.. وكان يبدو عليه فعلا فرحه بأن يستقبل فى بيته شخصية ناجحة مشهورة كشخصية الدكتور محمود.. لا يهمه أنه من عائلة زوجته ، وكل ما يهمه أنه ناجح مشهور..

ولم يكن يبدو على الأب أى إحساس بأن ابنته قد اختفت بمجرد ظهوره.. كأن هذا هو من التقاليد العادية للعائلة.. وتعمد الدكتور محمود أن يدفعه إلى الكلام عن ابنته ، وقال حتى وهو غير صادق فى كلامه :

– لقد أعجبت جدا بفريدة.. إنها فى منتهى الثقافة..

وقال الأب فى برود وهو يدير عينيه عنه :

– الحمد لله..

وعاد الدكتور محمود يقول :

– إنى أصبحت أحس بأنى فى حاجة إلى الاستمرار فى

مناقشتها.. إن عقلها واسع وتفتح أمامى مواضيع كانت غائبة عنى..

وبحلق الأب فى وجه الدكتور محمود.. ماذا يقصد بهذا الكلام.. هل شدته فريدة بهذا اللقاء حتى بدأ يفكر فى أن يتزوجها ممهدا لنفسه بحاجته إلى مناقشتها.. وأحس فى داخل نفسه بأنه يتمنى لو أن الدكتور محمود يتزوج فريدة فعلا.. إنه زواج يشرفه.. وقال وهو حائر كأنه يهرب من اتخاذ أى قرار :

– انك من العائلة.. والمناقشات مباحة داخل العائلات.

واستمرت جلسته مع الأب فترة ليست طويلة ، ولكنه حاول خلالها أن يتقرب منه ويرفع الكلفة بينهما حتى أصبح يناديه قائلا « عمى فريد » ثم قام منصرفا واستدعى أخته التى كانت لا تزال بعيدة منفردة مع فريدة.. وقال للأب والأم وهو خارج :

– اسمحا لى أن أكرر زيارتى حتى أستكمل مناقشاتى مع فريدة..

وانطلقت الفرحة على وجه الأم وقال الأب فى برود :

– أهلا وسهلا.. إنك من العائلة وهو بيتك..

وخرج الدكتور محمود دون أن تظهر أمامه فريدة لتودعه..



وقد أقدم الدكتور مرعى على زيارة العائلة مرتين فى أسبوع واحد.. وكان يتعمد أن يتفق مع الأم على أن تبدأ الزيارة قبل وصول الأب إلى البيت حتى يخلو بفريدة.. وقد استطاع أن يكتسب اقترابها منه وثقتها فيه حتى أصبح يفاتحها فى حياتها الخاصة.. وقال لها مرة :

– إن عدم زواجك حتى اليوم يثير احتمالات أنك على علاقة برجل لا يستطيع الزواج.. وهذا واقع تعيشه الكثيرات.. فهل تعيشين هذا الواقع..

وقالت وهى تنهر أنفاسها فى ضيق :

– هل تسألنى بصفتك طبيبا نفسانيا..

وقال ضاحكا :

– إنى أسألك كصديق وقريب من أفراد العائلة.. ولكنى لا أستطيع أن أتخلص من صفتى وهوايتى كطبيب..

قالت كأنها تتحدى ما تعانيه من انطواء ، وتصرخ بما فى داخلها :

– ليس لى أى رجل.. ولا أعتقد أنى سأتزوج أى رجل.. فإن طبيعتى تفرض على النفور من الرجال وتفرض نفور الرجال منى.. حتى أبى.. لمجرد أنه رجل فقد ولدت نافرة منه ونافرا منى.. إن أبى كأنه لا يعترف بى وكأنى لا أعترف به..

واستمرت المناقشة فى منتهى الصراحة ، والدكتور محمود يجد نفسه قد وصل إلى العقدة التى ترسبت فى نفسيتها ، وتسبب حالة الاعتزال والانطواء التى تعيش فيها.. إن نفور أبيها منها وإهماله لها قد تسبب فى عقدة نفسية جعلتها تنفر من كل الرجال.. بل تنفر من الحياة نفسها..

وكان الدكتور محمود يتعمد خلال هذه الزيارات أن ينتظر الأب حتى يدخل البيت ، ويجلس معه باذلا كل جهده ليكتسب ثقته واطمئنانه إليه.. إلى أن أقدم يوما على الاتصال به بالتليفون ورجاه أن يمر عليه فى العيادة ليعرض عليه أمرا هاما..

وربما تخيل الأب أن الدكتور محمود يريد لقاءه ليطلب منه بصفة خاصة إبداء رأيه فى زواجه من ابنته فريدة.. فذهب فعلا إلى هذا اللقاء.. واستقبله الدكتور محمود بغاية الترحيب ، ولكنه دخل به إلى غرفة الكشف من العيادة.. وقال له بصراحة :

– اسمح لى بأن أقول لك بصراحة إنى أستقبلك كطبيب عرضت عليه حالة خطيرة أعتقد أنك أنت المسئول عنها.. فمن جلساتى مع

ابنتك فريدة اكتشفت أنها مصابة بعقدة نفسية هى التى عقدت كل حياتها.. فأصبحت تعيش منعزلة ومنطوية وتتعمد الاحتفاظ بعزلتها وانطوائها ، حتى أنها تتعمد إبعاد أى رجل عنها فلم تتزوج حتى الآن..

وقاطعه الأب قائلا فى سخط كأنه ينهره :

– وما هى مسئوليتى عن هذه الحالة التى تقول إن ابنتى تعيش فيها..

وقال الدكتور محمود :

– إنك منذ ولدت فريدة وأنت تتجاهلها وتنفر منها وتنكر وجودها.. وتتركها لأمها وحدها.. ولعلك تعرف أن أول حب فى حياة أى بنت هو حبها لأبيها.. فإذا صدمت أو حرمت من هذا الحب فقدت قدرتها على حب أى رجل.. وأصيبت بعقدة النفور من كل الرجال..

وقال الأب مقاطعا :

– إنى أترك مصير ابنتى للقضاء والقدر.. والله قد مَنَّ عليها بالنجاح فى دراستها وفى انتظار أن يمن عليها باستكمال حياتها بالزواج..

وقال الطبيب فى هدوء وهو لا يزال محتفظا بابتسامة يحيط بها الأب :

– إن القضاء والقدر قد يتسبب تحت ضغط عقدتها إلى أن تؤذى نفسها.. قد تهرب يوما من البيت ومن العائلة وتتشرد وحدها تبحث عن حياتها.. بل قد تنتحر حتى تهرب من ضيق حياتها.. وأنت وحدك الذى يستطيع إنقاذها..

وقال الأب كأنه بدأ يضعف أمام شخصية الطبيب حتى اختار أن يكون صريحا :

– إنى أعترف بأنى لم أكن أريد أن تنجب لى زوجتى سميحة بنتا

وعندما أنجبت لى فريدة أصبت بصدمة.. بل أصبت بالهلع.. وهو هلع لا أزال أعانيه حتى اليوم.. لا لأنى بعقلية رجعية تكره إنجاب البنات كما تقول عنى زوجتى سميحة.. بل لأنى كنت أخاف أن تلحقنى هذه الابنة بفضيحة ، كما كانت أمها قدألحقتنى بفضيحة.. والبنت دائما هى صورة من أمها.. إنك لا تعلم كيف تزوجت.. كنت أعرف سميحة وأصاحبها بل وأعاشرها ، ولكنى لم أكن أنوى أن أتزوجها.. كانت نوعا من النساء لا يشرف الرجل أن يتزوجه ولكن يغريه بمتعة مصاحبته.. ولكن سميحة انتهت بإحاطتنا بفضيحة شاعت فى المجتمع كله.. ولأنى شهم فقد اخترت أن أدارى هذه الفضيحة حتى لا أترك سميحة ضحية لها.. فتزوجتها فورا دون أن أهتم بجميع أهلى وأهلها.. وإن كان الأهل قد عادوا واعترفوا بهذا الزواج.. ومن يدرى ربما كانت ابنتنا فريدة يمكن أن تلقى بى فى فضيحة أخرى.. و..

وسكت الأب مبحلقا فى وجه الدكتور محمود ثم صرخ :

– ما الذى جعلنى أكشف لك أسرارى وأفضح نفسى أمامك ؟

وهمَّ أن يقف ليهرب.. ولكن الدكتور محمود أمسك به فى رفق.. وقال بصوته المقنع :

– إنك لم تعرض أكثر من حالة عادية يتعرض لها الكثيرون والكثيرات.. وأحب أن أقول لك إن الابنة ليست دائما صورة من أمها كما تردد الأقاويل العامة.. فالذى يكون شخصية كل منهما هى الظروف التى تحيط بهما منذ يولدان.. وظروف ابنتك فريدة تختلف اختلافا أساسيا عن ظروف أمها.. يكفى أنها تعيش منذ ولدت ومعها أبوها ، فى حين أن أمها سميحة عاشت بلا أب منذ صغرها.. ولعلك تؤمن بأن فريدة مختلفة عن أمها ، وقد عاشت كل هذا العمر دون أن تقدم على أى ما يمكن أن يثير عقدتك من أمها.. ولكنها ضحية لك

فقد تسببت لها فى عقدة نفسية تحرمها من الحياة الطبيعية..

وقال الأب وقد هدأ قليلا أمام الدكتور محمود :

– وماذا تريدنى أن أفعل..

وقال الدكتور محمود مبتسما فى رفق :

– أريدك أن تحمل مسئولية ابنتك.. وأن تكون مسئولية مباشرة.. أن تعودها على أن تجلس معك طويلا.. وتدللها.. وتقبلها.. وتسألها.. وتحاسبها أيضا.. وإذا عادت ابنتك إليك فقد عادت إلى الحب الذى حرمتها منه.. وإذا عرفت الحب تفتحت قدرتها على استكمال كل مطالب حياتها..

ونظر الأب إلى الدكتور كأنه فى انتظار مطلب آخر منه.. وقال الدكتور كأنه اكتشف خطأ آخر من العلاج :

– إنى أساعدك على استعادة ابنتك بأن أتشرف بدعوتك أنت وهى إلى العشاء فى النادى غدا.. أنت وهى وحدكما..

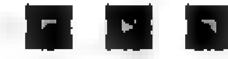
وقال الأب مقاطعا فى لهجة ساخرة :

– ولماذا لا تدعو أمها معنا..

وقال الدكتور محمود :

– أريدها أن تكون سهرة تنفرد فيها بابنتك حتى تصل إلى نتائج أسرع.. وأنا مجرد متفرج عليكما..

وابتسم الأب كأنه يتعلق بأمنية أن يتقدم هذا المتفرج بطلب الزواج من ابنته..



وعاد الأب يومها إلى البيت وصاح بمجرد أن دخل :

– أين فريدة..

وأصيبت العائلة بالذهول.. فهى أول مرة يسأل فيها الأب عن ابنته.. بل ربما كانت أول مرة ينطق فيها باسمها.. وجاءت إليه فريدة تزحف بقدميها فى خوف.. وشدها إليه لأول مرة يلقى بقبلة على

خدها.. وقال لها :

– إننا مدعوان غدا على العشاء مع الدكتور محمود..

ورفعت فريدة يدها تضغط على موضع قبلة أبيها كأنها تخاف أن تطير من على خدها.. وتردد الأب لحظة كـأنه لم يذق طعم قبلة ابنته فشدها بين ذراعيـه وقبلها قبلة ثانية.. وهى كأنها انتـهزت الفرصة فانهالت بـقبلاتها على أبيهـا.. قبلت وجهه ، ثم رفـعت يده وسجلت عليها قبلة كأنها توقع بإمضائها على عقد العودة إليه..

ومـرت الأيام وكل شىء يتغـير.. إن الأب يكاد يصـبح متـفرغـا لابنتـه بجانب تفـرغـه لابنه.. وفريدة الابنة تنـقلب إلى شخـصيـة أخرى.. لقد بدأت تتكلم كثـيرا.. وتنطلق كثيرا كأنهـا تكتشف الحياة التى كانت محرومة منها..

ولكن الدكتور محمود مـرعى لم يتقدم بطلب زواج فريدة.. وتباعد ظهوره بين أفراد العائلة بعد أن اطمأن إلى أنه وصل إلى العلاج..

وجاءت فريدة يوما إلى أمها قائلة :

– هل تذكرين الأستاذ منصور الذى يعمل معنا وسبق أن حدثتك عنه.. إن اسمه الكامل منصور عبدالمجيد فهـمى وقد عرفته شخصيا والتقيت به..

وقالت الأم فى فرحة ينقصها الاطمئنان :

– كيف عرفته ؟

وقالت فريدة وهى تتمايل كأنها تعرض قوامها الرشيق :

– لقد كان من بين أوراق مكتبى أوراق تهمـه فى مسئولياته عن عمله ولـكنه لم يكن يدرى شيـئا عن هذه الأوراق.. كمـا أنى لم أكن أهتم بعـرضـها عليـه.. ولكنى قررت أخـيرا أن أذهب بهـا إليه.. إنه فعلا شخصية رائعة.. وقالت الأم فى لهفة :

– وإلى ماذا وصلتما ؟

وقالت فريدة وكأنها تكاد تطير بسعادتها :

– لقداتفقنا أن نلتقى غدا بعد انتهاء العمل حتى نناقش مافى هذه الأوراق.. إنه رائع فعلا..

وقالت الأم وهى تحتضنها :

– على بركة الله يا ابنتى..

منتهى القوة

منتهى القــوة

كانت البـداية وهو صبى في السـابعة من عـمره.. وكانت أخـته الكبـيرة التـى تجاوزت الرابعـة عـشرة من عـمـرها قد تعـودت أن تصحبه كلما خرجت إلى الشارع ، فـإن تقاليد العائلة تحرم عليها أن تخرج وحدها.. فـتخرج فى حمـاية أخيها الصغـير.. ولم يكن يخطر على إحســاس محمـود أنه يحمل مسـئوليـة حماية أخـته.. ولم يكن يحس بأنه صغـير أو كبير أو قـوى أو ضعيف.. ليس فى حـياته ما يدفعه إلى تقدير أنه لا يزال صغيرا ولا إلى التطلع إلى يوم أن يكون كبيرا.. كما أنه ليس فيه مايجعله يحس بضعف أو بقوة.. إنما يفرح بصحـبة أخـته كوثر إلى الشـارع لأنه يحب أن يكون بصحـبتـها دائمـا.. ويحب الشـارع.. إلى أن صـحـبهـا يومـا إلى زيارة إحـدى صديقـاتها ، وفى عـودتهمـا كانا يسـيران فى حـارة ضيقـة هادئة تصدى لهـما شاب ، وبدأ يلقى بكلمات على كـوثر.. وكلما همت أن تبتعد عنه يلتصق بها أكثر.. حتى أخذت تشتمه وتصرخ فى وجهه.. ولكنه يصر على الاستيلاء عليهـا حتى أمسك بذراعها ، كأنه يهم أن يهرب بها... وصاح محمود فيه وهو لا يدرى ماذا يريد هذا الشاب ، ولكنه يكفى أن أخته بدأت تصرخ :

– دع أختي..

ولكن الشاب نظر إليه فى استهانة وقال ساخرا :

- اسكت أنت يا شاطر..

ولم يسكت محمود ، ولكنه أخذيصرخ ورفع قدمه وضرب بها الشاب على ساقه.. ورفع الشاب يده وصدم بها وجه محمود ، ودفعه بعيدا عنه وأسقطه على الأرض.. وأخذ محمود يبكى ويصرخ بأعلى الصراخ ، وهو راقد على الأرض.. والشاب لا يزال ممسكا بذراع أخته يحاول أن يشدها وراءه.. وبالصدفة مر بالحارة رجلان أسرعا ناحية صراخ محمود.. ولمحهما الشاب فترك كوثر وفر هاربا..

وانتهى الحادث بسلام.. ومحمود يسير بجانب أخته كوثر وهو لا يزل يبكى.. وهى تواسيه وتحاول أن تقنعه بأن كل فتاة معرضة لاعتداءات مثل هؤلاء الشبان.. والفضل له فى إنقاذها.. ثم بدأت تلح عليه ألا يروى شيئا مما حدث لأحد من العائلة بعد أن يصلا إلى البيت.. وربما كانت تخشى لو علم أبوها أو علمت أمها بما حدث لحرمت من الخروج إلى الشارع مع أخيها الصغير ، وفرضوا عليها ألا تخرج إلا فى صحبتهما أو فى صحبة أخيها الأكبر..

وفعلا.. تعمد محمود ألا يروى ما حدث لأحد.. ومرت عليه أيام وهو ساهم.. لقد واجهته لأول مرة مشكلة لم يكن يعرفها من قبل ، وهى مشكلة أنه لا يزال صغيرا.. وأى صغير يعتبر ضعيفا أمام من يكبره سنا.. حتى يكفى أن يدفعه الكبير بيده دفعة واحدة فيلقى به على الأرض كما حدث له.. وبدأ يحس بأمنية أن يصبح كبيرا.. والأهم أن يصبح قويا جدا.. وأن يزود جسده بعضلات تكفى ليضرب بها من يريد ضربه.. أو يضرب من يحاول الاعتداء عليه أو على أخته..

وبدأ العنصر الجديد يسيطر على كل حياته.. عنصر التزود بالقوة الذاتية.. قوة عضلاته.. قوة الضرب..

وقدبدأ وهو فى صباه يقف أمام المرآة طويلا ، ويحرك أطرافه

بالتمرينات الرياضية التى يعرفها أو يسمع عنها.. ثم وجد فى البيت قطعتين صغيرتين من الحديد المخصص لتمرينات رفع الأثقال الخفيفة مهملتين فى ركن من الأركان.. ربما كان أبوه يتمرن بهما وهو شاب.. فأخذهما وبدأ يتمرن بهما ويقوى عضلاته وهو واقف أمام المرآة.. وأصبحت إحدى متاعب أمه أن تأخذه من أمام المرآة ليتفرغ لمذاكرة دروس المدرسة..

واكتشف محمود بالصدفة مجلات للأطفال تنشر قصصا عن معارك البطولات.. وهى قصص مزودة بالصور المرسومة لحركات الضرب التى ينتصر بها البطل على غريمه.. وأخذ يدقق فى كل صورة ، ويكتشف كل حركة من حركات الضرب.. ويقوم يرددها بنفسه أمام المرآة.. يضرب بذراعه أو يرفع ساقه ويضرب بقدمه.. أو يلتف بذراعه حول ظهر الغريم.. أو.. أو.. ويمر عام أو عامان وتعدى التاسعة من عمره عندما عرف أفلام الفيديو.. ولم يعرف منها إلا الأفلام التى تصور البطولات.. بطولات الضرب.. ويتعلم من كل فيلم ضربات جديدة وقد اتفق مع صبية الحى على المشاركة فى استئجارأفلام الفيديو لمشاهدتها.. فإيجار الفيلم يصل إلى جنيهين ونصف جنيه لمدة يومين.. وأصبح كل واحد منهم يدفع عشرة قروش ويستأجرون فيلما واحدا ، يشاهدونه معا أو يتنقلون به بين كل من يملك جهاز فيديو فى بيته.. والأهالى مستسلمون لنزوة أبنائهم فرحين بأنهم كونوا شركة أو بنكا من بينهم لاستئجار أفلام الفيديو ، مما يخفف عن كل واحد قيمة الإيجار.. ومن يدرى.. ربما لو لم يتشاركوا فى استئجار أفلام الفيديو لاضطر الواحد منهم إلى أن يسرق أو يرتكب جريمة للحصول على الفيلم.. فقد أصبح الفيديو شهوة عارمة لا يمكن أن يقاومها الصبية..

وكان فى بدايته لا يقبل على اللعب مع أطفال الحى.. ولكنه بدأ يفرض نفسه على كل لعبة.. سواء كانوا يلعبون كرة القدم.. أو

« استغماية ».. أو لى الأذرع.. وكان فى كل لعبة يحاول أن يثبت أنه قوى.. حتى وإن لم يكسب اللعبة فإنه يفرض قوته على من يلعب معه.. وأصبح يدخل فى معارك مع كل الأطفال.. يصارع ويضرب.. وكان أحيانا يهزم.. فلا ينسى هزيمته بل يستمر فى التزود بالقوة حتى ينتصر على الصبى الذى غلبه..

وبدأ يعرف بين الصبية بأنه قوى العضلات.. وأصبح بقية الصبية يخافونه ، ولو أنهم يحبونه لأنه يجد لهم دائما ما يلعبونه وما يزحم أيامهم بالحركة والتهليل والصراخ.. وهو مستمر فى التزود بالقوة.. وقد التحق بالنادى الرياضى القريب.. وأقحم نفسه على كل الألعاب.. وكانت قمة ما تجذبه هى لعبة المصارعة.. وقد تفوق فيها إلى حد أن أصبح مرشحا للتقدم للبطولات.. ولكنه اكتشف أن المصارعة أصبحت لعبة قديمة لا تنفع فى مواجهة المعارك المودرن.. إن اللعبة الحديثة هى لعبة الكاراتيه.. وتفرغ كله للتدريب على الكاراتيه.. واستوعب كل تفاصيلها.. وأصبح حتى وهو وحده واقف أمام المرآة يتحرك تحركات الكاراتيه ، كأنه يرقص على موسيقى تنطق بها أحاسيسه..

وكبر عشر سنوات.. أصبح فى السابعة عشرة من عمره.. وأصبح معروفا فى الحى والنادى والمدرسة بأنه مخيف رهيب كأنه فتوة من بين الفتوات الذين يفرضون قوتهم على كل من حولهم.. حتى أنه استطاع أن يشترى مطواة قرن غزال بعد أن سمع عنها ، وعن إمكانية الانتصار بها فى كل معركة.. وأصبح يحتفظ بها دائما فى جيبه.. وأحيانا يعلقها خارج جيبه كأنه يهدد بها كل من يتجرأ عليه.. ورغم كل ذلك فلم يكن أبدا مكروها لأنه دائما عنده ما يبرر فرض قوته.. وكل ذلك وهو لا ينسى حادث محاولة الاعتداء على أخته وعليه ، عندما كان صغيرا فى السابعة من عمره.. حتى أنه كان يجد نفسه أحيانا يسير فى الشارع وكأنه يبحث عن هذا الشاب

الذى اعتدى عليه.. إنه لا يمكن أن ينساه أو ينسى شكله أبدا.. إلى أن رآه فعلا بعد هذا العمر الطويل وفى نفس الحارة التى سبق أن اعتدى عليه فيها.. وأخذ يبحلق فيه من بعيد إنه كبر عما كان عليه.. ربما كان أيامها فى التاسعة عشرة وهو الآن فى التاسعة والعشرين.. وهو يبدو ضعيفا أو على الأقل فى قوة عادية ، وليس كما كان يتصوره فى منتهى القوة.. ولكنه لا شك أنه هو نفسه فإنه لم ينس أبدا تفاصيل ملامح وجهه.. وفاجأه بالهجوم عليه.. وفى حركة من حركات الكاراتيه أمسك بكتفيه ولصق ظهره على الجدار القريب وقاله له وهو يكاد يعصره على الحائط :

هل تذكرنى ؟

وقال الرجل وهو يحاول التخلص من بين يدى محمود :

أنا لا أعرفك... من أنت.. وماذا تريد منى ؟!

وقال محمود وهو يبتسم ساخرا :

– أنا من اعتديت عليه وأنا صغير ، وحاولت أن تعتدى على أختى.. ولم أنس.. وسأرد عليك الاعتداء.. ولكنى لن أعطيك أكثر مما أعطيتنى..

ورفع يده بسرعة ولكم الرجل فى وجهه لكمة قوية وقال :

– هذا نظير تبجحك على أختى..

ثم حرك ساقه وذراعيه فى حركة من حركات الكاراتيه وألقى بالرجل على الأرض قائلا :

– وهذا ردا على ما فعلته بى.. وتستطيع الآن أن تبكى وتصرخ لتجمع الناس حولنا كما فعلت أنا أيام زمان..

ولكن الرجل لم يبك ولم يصرخ ورفع ذراعيه متوسلا إليه :

– اعمل معروف.. أنا فى عرضك.. دعنى فى حالى وحياة النبى..

وترك محمود الرجل ملقى على الأرض وابتعد عنه سائرا فى طريقه ، وهو يحس براحة تدفعه إلى الإحساس بمنتهى الغرور.. لقد أخذ

ثأره من العدو الوحيد الذى ظهر فى حياته.. واستطاع أن ينتصر على شاب أكبر منه سنا دون أن يشهر مطواة قرن غزال.. بل دون أن يحتاج إلى أكثر من ضربة واحدة.. إنه لم يستكمل الإحساس بمنتهى القوة إلا يومها..

وعاش حياته كلها مركزة على تنمية وتربية عضلات جسده.. حتى يصبح أقوى.. وأقوى.. وأقوى.. أصبح كأنه فنان موهوب بفن الوصول إلى منتهى القوة العضلية.. كفنان تربطه موهبة بالتمثيل أو الغناء أو لعب الطاولة أو الكوتشينة ، فهو تربطه مواهبه بقوة عضلاته.. وهو يعيش الفن للفن.. أى لا يحاول أن يستغل قوته فى تحقيق مكاسب شخصية.. ولا يبدأ بالاعتداء على أحد.. إنما كل ما يهمه هو التباهى بفنه فى مباريات رياضية.. سواء كانت مباريات عامة أو خاصة.. ولا تجمعه جلسة مع أصدقائه ومعارفه إلا ويمد ذراعه لكل منهم ليلاعبه « بلودى فير » أو لى الذراع.. أو يتحداهم بأن يتقدم واحد منهم ويلاعبه كاراتيه.. أو مصارعة حرة.. حتى لو لاعبه داخل المقهى أو البيت.. وبلغت به هوايته إلى حد أن أصبح متخصصا فى اختيار الأطعمة التى تساهم فى تقوية العضلات.. ويحفظ جداول كاملة عن كمية وأنواع الفيتامينات التى تتجمع فى كل شىء يؤكل.. وأصبح حريصا على إذابة كل نوع فى بطنه بكمية محسوبة تزيده من الاحتفاظ بالقوة.. فهو يأكل البصل بكمية محسوبة.. والفجل.. والجرجير.. ولا يأكل اللحم إلا بعد شوائه نصف شواء.. أى أقرب إلى أن يكون نيئا.. ثم اكتشف طبق « الكبة النيئة » الذى يعتبر من عناصر الشخصية اللبنانية.. إنه طبق من اللحم النيىء يوفرون له سهولة الهضم ومتعة الطعم.. وبدأ يتعمد الحصول على أطباق من الكبة النيئة.. هذا بجانب اهتمامه بأكل الكوارع والبطارخ والسمان والعصافير، وكل مايقتنع بأنه يحمل فيتامينات تقوى العضلات وتطلق حرارة الصحة.. إنه يزداد قوة..

إنه يحس بأنه أقوى رجل فى العالم.. وإن كان لا يخطر على باله أى شىء يستغل فيه هذه القوة العارمة.. فقط يعيش مزهوا بإحساسه أنه الأقوى..

ولم يكن يهتم كثيرا باستذكار دروسه.. ولكنه ينجح دائما.. وكان مقتنعا بأن قوة عضلاته تنعكس على قوة عقليته ، وتوفر له النجاح فى كل امتحان ، حتى لو لم ينجح متقدما على بقية الطلبة فيكفيه أنه ينجح.. لأنه قوى..

إلى أن تخرج فى الجامعة.. ولم يهتم بأن يكون خريجا.. بل لم يقدره أحد كخريج جامعي.. ولا يزال كل ما يعرفه عن نفسه وما يعرفه الناس عنه أنه قوى.. فى منتهى القوة.. مشهور بأنه فتوة.. رغم أنه لا يمارس شخصية الفتوة الذى يفرض رأيه.. إنما يكفى مظهره وتكفى سمعته لاستكمال الشخصية التى يهابها كل من يتعامل معه..

وكان عبد الباسط جدعون وهو من كبار رجال الحى قد أصبح وزيرا فى الوزارة.. وبمجرد أن حصل محمود على شهادته الجامعية سعى إلى أن عينه فى الحكومة ، وعهد إليه بأن يكون أحد أفراد موظفى مكتبه.. أى أحد أفراد السكرتارية..

ولم يعهد الوزير إلى محمود بأى عمل محدد ، ولكنه راعى بنفسه أن يجلسه على مكتب ملاصق لباب غرفة مكتبه.. مكتب الوزير.. ووضعه بجسده القوى وعضلاته المفتولة كأنه الأسد الجالس على مدخل كوبرى قصر النيل.. كما أن الوزير كان يصحبه فى كل تنقلاته وتحركاته خارج مكتبه.. ورغم تعدد رجال البوليس الذين يحيطون به دائما إلا أنه اختار محمود ليركب معه السيارة ويتقدمه دائما فى كل خطواته ، كأنه يعتمد على دبابة تتحرك أمامه لتطلق النارعلى كل من يحاول الاعتداء عليه..

وقد عرف محمود منذ عين فى الوزارة أن الوزير لا يريده إلا

لحمايته من أى محاولة للاعتداء عليه ، أو لصد مجرد التجرؤ عليه.. ورحب بهذه المهمة مزهوا باعتراف الوزير بقوته.. حتى لو كانت مجرد قوة عضلاته.. وهو يعرف أن كل وزير أصبح فى حاجة إلى فتوة يحميه.. وكثيرون منهم لا يكتفى الواحد منهم بالاعتماد على قوة البوليس.. بل يختار لنفسه حارسا خاصا يعتمد عليه أكثر.. ولا شك أن الوزير عبدالباسط جدعون أصبح أقوى الوزراء اطمئنانا على نفسه لأنه اختار محمود حارسا له.. رغم ذلك لم يكن محمود يتخذ لنفسه مظهر الحارس. ولم يكن يتعمد إثبات قوته فى مواجهة المترددين على مكتب الوزير.. أو يشوح بعضلاته ، وهو يسير أمامه مفسحا له الطريق مهددا كل من يعترضه.. إنما كان دائما هادئا بسيطا مهذبا ومبتسما فى تواضع ، كأنه مكتف بما يوحى به مظهر قوامه وعضلاته وملامح وجهه من قوة.. ولم يحدث إلا مرة واحدة عندما دخل عليه رجل اسمه خليل يريد مقابلة الوزير لأمر هام ، ومحمود كان قدأصبح قادرا على تقدير من يسمح لهم بمقابلة الوزير ومن لايسمح لهم بمقابلته.. وهذا الرجل لايستحق مقابلة الوزير.. فاعتذر له محمود فى أدب بأن الوزير مشغول.. ولكن خليل أصبح يتردد على محمود كل يوم ملحا فى مقابلة الوزير.. ثم جاء فى يوم ورفع صوته صارخا مطالبا بالمقابلة وصاح :

– يجب أن تعرف أن وزيرك يتشرف بمقابلتى.. وإنى لولا الظروف لما تنازلت بطلب مقابلته.. لقد كان خادما من خدمى وكنت سيده.. ولا يزال خادمى وأنا سيده.. حتى بعد أن أصبح وزيرا..

وكان خليل يصرخ هذا الصراخ وهو يشوح بيديه فى وجه محمود..

واكتفى محمود بأن مد يده وقبض على إحدى يدى خليل ، وضغط عليها بقوة كأنه ينوى أن يحطم كل عظامها ويعصرها.. وصرخ خليل مستغيثا من الألم.. وظل محمود يعصر فى يده حتى

سقط خليل على الأرض وهو يصرخ :

- لا أريد مقابلة الوزير.. خلاص.. حرمت..

وتركه محمود يفر خارج مكتبه.. ولم يظهر أمامه مرة ثانية..

ولم يحدث أى حادث آخر دفعه إلى الاستعانة بقواه كحارس أمين للوزير.. ومضت الشهور وشخصيته البسيطة الهادئة تجمع حوله كل موظفى الوزارة من الشباب ، حتى بدأ يلقى على كل من يجتمع بهم أحاديث طويلة عن التمرينات الرياضية ووسائل اكتساب قوة العضلات.. إلى أن بدأ فى تكوين فرقة لألعاب الكاراتيه داخل الوزارة.. بعد استئذان الوزير طبعا..

وكان على الوزير أن يسافر إلى روما لإجراء مفاوضات هناك مع الحكومة الإيطالية.. واختار محمود ليرافقه.. ولم يكن من حقه أن يأخذه كحارس فإن معه اثنين من ضباط البوليس يرافقانه بحكم اللائحة.. لذلك فقد أخذه معه كسكرتير خاص.. وإن كانت مهمة هذا السكرتير لم تتغير.. ولا تزال محصورة فى حماية جناب الوزير من أى اعتداء عليه.

وفرح محمود فرحة كبرى بأنه سيرى روما ويعيش فيها بضعة أيام ، إنه مقتنع بأن الشعب الإيطالى هو أقوى شعب رياضى فى العالم منذ فجر التاريخ.. إنه الشعب الذى انتصر بقوته على الشعب المصرى أيام كليوباترا.. ولم تكن الحرب أيام كليوباترا تعتمد على قوة السلاح. ولكنها كانت تعتمد على قوة عضلات المتحاربين.. وهو يريد أن يرى هذه العضلات.. ربما كانت العضلات فى إيطاليا لا تزال تستطيع أن تهزم عضلاته.. وهو يتمنى أن يثبت العكس.. يريد أن ينتصر بعضلاته على عضلات أى إيطالى..

وفى اليوم الأول من وصوله إيطاليا استطاع أن يكتسب صداقة يوسف كمال.. وهو شاب موظف فى السفارة المصرية بروما ، وقد ولد وعاش فى إيطاليا حتى أنه يعتبر إيطاليا مصريا.. وهو يعرف

كل شىء عن الحياة الإيطالية.. ومحمود يسأله كثيرا عن كل ما يهمه أن يعرفه عن مظاهر قوة العضلات فى إيطاليا.. ويوسف يروى له حكايات مثيرة تبهر خياله.. وكان الوزير يقوم بالاتصالات وتنقلاته حتى الساعة الثالثة بعد الظهر ثم ينام حتى الساعة السابعة.. وكان محمود فى هذه الفترة يصحب يوسف ليأخذه إلى مشاهدة مباريات هذا النوع من الألعاب الرياضية الذى يعتبر نفسه متخصصا فيه.. مباريات فى رفع الاثقال.. أو فى المصارعة الحرة.. أو الكاراتيه.. ويذهل من تفوق الإيطاليين فى هذه الألعاب.. ولكنه استطاع أن يتغلب على ذهوله وطلب من يوسف أن يقدمه لمنازلة أحد الإيطاليين فى مباراة خاصة ، وبصفة شخصية وليست مباراة عامة ، واختار أن يبدأ بمباراة فى المصارعة الحرة.. واستطاع يوسف أن يجمعه بأحد المصارعين فى أحد النوادى.. وبدأ محمود يلعب المصارعة ، وهو مصمم على أن تنتصر العضلات المصرية على العضلات الإيطالية.. ولكن لم تمض دقيقة أو دقيقتان على المباراة.. حتى كان محمود قد هزم هزيمة نكراء.. وقد تحمل الهزيمة دون أن يفقد عناده.. وأقنع نفسه بأنه أخطأ بأن اختار المصارعة الحرة فقد مضى عليه وقت طويل لم يمارس فيه المصارعة.. إنما كان متفرغا لمصارعة الكاراتيه.. وطلب من صديقه يوسف أن يعد له مباراة حبية فى الكاراتيه.. ولم تمض دقائق حتى كان قد هزم أيضا فى الكاراتيه..

وقال له يوسف وهما فى خلوة هادئة :

– هل تدرى ما سر قوة أفراد الشعب الإيطالى..

وقال محمود ساخرا :

– لعلهم يستمدون قوة أجسادهم من أكل المكرونة الاسباجيتى..

وقال يوسف فى لهجة جدية كأنه يعرض موضوعا علميا :

– لا.. إنهم يستمدون قوتهم من شرب النبيذ.. إنه عصير العنب.. والإيطاليون متفوقون فى إعداء مشروب النبيذ.. بحيث يزودونه

بنوع من الفيتامينات خاص بهم يهبهم كل هذه القوة.. وأكثر من ذلك.. إن كل طفل إيطالى يولد يحمله أبوه بعد اليوم السابع من مولده ويغطسه فى برميل من هذا النبيذ.. غطسة سريعة ينتشله بعدها بسرعة.. إن هذه الغطسة تكفى لتمتص كل خلايا الطفل فيتامينات تكفى لإمداده بالقوة طوال حياته.. تماما كما نلجأ فى الزراعة إلى صب المقويات والمبيدات على الحبوب لتنبت فى أعواد سليمة قوية وتعطى ثمارا سليمة قوية..

وقال محمود ضاحكا :

– أى إنى لن أهزم أى لاعب إيطالى إلا إذا شربت من هذا النبيذ..

وقال يوسف كأنه يحرضه :

– جرب.. ولنبدأ التجربة حالا..

ولم يكن محمود قد شرب أى قطرة من الخمر طوال عمره.. والنبيذ خمر ، وهو يرفض أن يعرض نفسه لأن تسكره الخمر.. ولكن يوسف أقنعه بأنه لن يشرب هذا النبيذ ليسكر.. إنه يشربه كمجرد فيتامين يستكمل به قوته.. ولن يسكر.. ثم نادى الجرسون وطلب زجاجة من النبيذصب منها كأسا لمحمود ، وهو يحدد له الكمية التى يمكن أن يشربها دون أن يسكر..

ولم يحس محمود بأنه سكران بعد أن شرب كئوس النبيذ التى حددها له يوسف.. ولكنه فى الوقت نفسه أحس كأنه أصبح أقوى.. يحس بنبضات قوية تسرى فى كل عضلاته.. بل أحس كأنه يريد أن يلعب حالا ماتش كاراتيه حتى لو لاعب يوسف..

وفى اليوم التالى عاد وشرب كئوس النبيذ دون أن يسكر.. وكان يوسف قد حدد له موعدا لمباراة خاصة فى أحد النوادى للعب الكاراتيه مع شاب إيطالى.. وانتصر محمود.. تغلبت العضلات المصرية على العضلات الإيطالية.. وإن كان قد استغرق مدة أطول حتى حقق هذا النصر..

ولم يخطر على بال محمود أن يقدر أن هذا اللاعب الإيطالى الذى انتصر عليه قد يكون لاعبا ضعيفا أو أخف منه وزنا.. أو أصغر منه سنا.. أو قد يكون يوسف قد استأجره واتفق معه على أن يدعى الهزيمة أمام محمود نظير الثمن الذى يأخذه.. كل ما تمكن من اقتناع محمود هو أن مشروب النبيذ الإيطالى يحمل فيتامينات خاصة بهذه القوة التى يستطيع أن ينتصر بها على من يلاعبه..

وفى اليوم التالى كان محمود يتناول غداءه مع يوسف وأمامه طبق يحمل جبالا عالية من المكرونة الاسباجيتى.. وقبل أن يرفع المكرونة إلى فمه عاجله يوسف قائلا :

انتظر..

ثم صب على طبق المكرونة من زجاجة النبيذ قائلا :

– هكذا يأكل الشعب الإيطالى المكرونة..

والتهم محمود طبق المكرونة المغمورة فى النبيذ.. ولم يحس بأنه يتعاطى خمرا.. إنه يتعاطى القوة..

وفى نفس اليوم قال له يوسف إن أحد أصدقائه الإيطاليين قد أنجب ابنا ويحتفل باليوم السابع.. كما نحتفل نحن بأطفالنا فى يوم السبوع.. وسيأخذه معه إلى هذا الحفل ليرى بنفسه كيف يروى الأب الإيطالى ابنه بفيتامينات القوة كما تروى الحبوب بالفيتامينات الزراعية..

وقضى محمود ليلة فى منتهى الصخب والمرح تفوق ليالى الاحتفال بسبوع الولادة فى مصر.. فهى حفلات ليست مقصورة على الأطفال بل يدعى إليها كل رجال ونساء العائلة والحى.. والجميع يشربون النبيذ وينطلقون بأغنيات مرحة ويتراقصون.. وقد شارك محمود فى شرب النبيذ.. ولعله تعدى الحدود التى كان يفرضها عليه صديقه يوسف كمال.. وبدأ يتطوح كأنه سكران ، ويرفع صوته بالصياح كأنه يغنى معهم رغم أنه لا يعرف كيف

يغنى أى أغنية إيطالية.. ويمد ذراعيه إلى أى امرأة بجانبه ويهتز بها كأنه يراقصها.. وهو لا يعرف كيف يتحرك بهذه الرقصات.. إلى أن توقف كل ما فى الحفل مرة واحدة عن الحركة.. وانطلقت همهمات هادئة كأنها أناشيد دينية.. ووضع فى منتصف القاعة برميل كبير من براميل النبيذ.. ثم تقدم الأب وحمل ابنه الوليد ووقف به على حافة البرميل.. وأخذ يقول كلاما لم يفهم منه محمود شيئا.. ثم رفع ابنه وهو ممسك به من قدميه.. ورأسه مدلى إلى أسفل.. وجسده كله عار.. ثم بسرعة أغطسه داخل برميل النبيذ ورفعه فورا.. والمولود يخرج من البرميل وهو يصيح كأنه يهلل ، وكل المدعوين يهللون ويصفقون كأنهم فرحون يباركون إتمام عملية تدشين الطفل..

ومحمود مذهول بما يجرى أمامه حتى أنه أفاق من إحساسه بمتعة النبيذ الذى كان قد شربه.. ووقف متسمرا فى ذهوله.. وقال له صديقه يوسف مستطردا :

– هكذا يدشنون أولادهم. ويسمدون خلاياهم بفيتامين القوة.. ليكبر ويصبح رجلا قويا..

وأضاف يوسف قائلا له :

– حتى عندما يفطمونه.. تبدأ الأم بمسح ثديها بقطرات من النبيذ ، حتى يتعود عليه الطفل وهو يرضع.. حرصا على تسميد خلاياه بالقوة حتى يشرب وهو مدمن تذوق النبيذ..

ومحمود يتطور ذهوله إلى فرحته باكتشاف عالم جديد لم يكن يعرف عنه شيئا..

وقد انتهت مهمة الوزير وعاد إلى مصر ومعه محمود.. ولو أن محمود كان يتمنى لو تركه الوزير يعيش فى روما.. عاصمة الأقوياء..

ولم يحاول محمود وهو فى القاهرة أن يستمر فى شرب النبيذ كما تعود فى روما.. فهو لن يجد فى القاهرة نفس النوع الذى كان

يشربه فى روما.. وهو يعلم أنهم فى روما يعدون نوعا خاصا من النبيذ قد لا يكون نفس النوع الذى يصدرونه إلى الخارج.. هكذا قال له صديقه يوسف كمال.. وقد جاء يوسف نفسه مرة إلى القاهرة وحمل لمحمود زجاجة من نبيذ روما كهدية.. وعندما بدأ محمود يشرب أحس بأنه نبيذ أقوى فى طعمه وتأثيره مما كان يشربه فى روما.. وقال له يوسف أنه ليس خلافا فى نوع النبيذ.. ولكنه خلاف فى الجو الذى يشربه فيه بين جو القاهرة وجو روما.. فطعم النبيذ يختلف باختلاف الجو الذى يحيط بشاربه.. أى فى درجة حرارة الجو.. عندما يكون حارا أو باردا..

ورغم ذلك فعندما شرب محمود زجاجة النبيذ أحس كما كان يحس فى روما بأنه ازداد قوة.. ويومها لم يكتف بابتسامته وهوفى مكتبه فى الوزارة بل كان يطلق ضحكاته عالية صاخبة.. كما لم يكن يكتفى بهز رأسه تحية لمن يقبل عليه بل كان يمد يده الثقيلة مصافحا كأنه يصيح.. أنا القوى.. ويومها ذهب إلى النادى ولعب مباراتين مع من وجدهم من أبطال.. مباراة فى المصارعة الحرة.. ومباراة كاراتيه.. وتحفز ليلعب مباراة ثالثة فى الملاكمة.. ولكن الوقت كان قد تأخر والملاعب تغلق أبوابها.. وهو معترف بأن كل مايهبه انطلاقه فى هذا اليوم هوماشربه من نبيذ روما..

وقد ظلت الأيام التى قضاها محمود فى روما مسيطرة عليه وكأنه لا يزال يعيش فيها.. وكثير من مظاهر الحياة الإيطالية بدأت تظهر فى حياته.. فهو لم يعديسمع إلا الموسيقى والأغانى الإيطالية من خلال الأشرطة التى عاد بها.. وهو يأكل كل يوم طبقا من المكرونة ، وخصوصا المكرونة الاسباجيتى التى أصبح وكأنه أدمنها..وأصبح يردد بمناسبة أو بغيرى مناسبة مجموعة الكلمات الإيطالية التى حفظها ، ويتعمد أن يتعلم مزيدا من الكلمات.. بل إنه أصبح يتردد على مقهى كوبرى قصر النيل ويجلس فيه طويلا لأنه

يذكره بمقهى كان يرتاده فى روما.. كأنه يحاول أن يعيش روما وهو فى القاهرة..

وخلال هذا العام تزوج محمود.. ولم يكن يعلم شيئا عن تقاليد الزواج فى روما حتى يطبقها عل نفسه وهو يتزوج فى القاهرة.. لذلك استسلم للتقاليد العادية.. ولكن لا شك أنهم فى روما لا يتزوجون إلا بعد صداقة تجمع المرأة والرجل.. وهو قد تزوج حورية.. وهى موظفة معه فى الوزارة ، وقد مضت شهور وهما فى منتهى الصداقة وكانت حورية تجاريه فى كل نزعاته الإيطالية.. وتحييه كل صباح بونجورنو.. كما أصبحت رائعة فى إعداد كل أصناف المكرونة..

وأصبحت حورية حاملا.. وأصبح عقل محمود مركزا فى الاستعداد إذا أنجبت حورية ولدا أن يعده ليكون رجلا فى منتهى القوة بأن يسمده بالنبيذ.. ونبيذ روما بالذات..

وقبل موعد إنجاب الطفل بأسبوعين استطاع محمود أن يستأذن الوزير فى إجازة قصيرة.. كما استطاع أن يسافر على حساب الوزارة إلى روما.. وقد تردد الوزير كثيرا قبل أن يسمح له بالإجازة والسفر.. إنه لم يعد يطمئن على سلامته إلا ومحمود بجانبه.. ولكن محمود صمم على الإلحاح ، كما أقنع الوزير بأن يضع مكانه اثنين من الموظفين الشبان معروفين بالقوة ويكفيان لحمايته..

وفى روما استقبله صديقه يوسف كمال.. وانطلق يشرب النبيذ ، وأحس بعضلاته تكاد تتراقص بالقوة.. ولكنه لم يطلب من صديقه أن يعد له أى مباراة.. إنه لن يقضى فى روما أكثر من يومين.. وكل ما جاء من أجله هو شراء برميل من نبيذ روما مع مجموعة من الزجاجات.. ووضع ما اشتراه فى صندوق مغلق حتى يستطيع أن يمر به من الجمارك ويصل به إلى بيته فى القاهرة..

وعاد محمود فى انتظار أن تلده زوجته حورية ولدا يسمده

برحيق القوة..

وقد جاء ولدا فعلا أطلق عليه محمود بمجرد أن ولد اسم « عبدالقوى ».. إنه سيستمد قوته من قدرة الله بعد أن يسمده بقطرات النبيذ..

ثم كان الاحتفال بيوم السبوع..

ودعا محمود كل أطفال ورجال ونساء العائلة والحى.. وفتح زجاجات النبيذ.. والكل يشرب وينطلقون فى الغناء والصياح.. إنه حفل أكثر بهجة وضجة من الحفل الذى سبق أن حضره فى روما.. وكانوا يرقصون.. ولكنه رقص هز البطن وليس رقصا إيطاليا.. ورفع محمود يده ليسكت الجميع حتى يبدأ فى تدشين ابنه بعصير القوة.. ولكن زوجته حورية كانت مصممة على أن تبدأ الداية أولا بمراسم الاحتفال.. وقد دخلت تحمل المولود فى منخل عريض ووضعته على المائدة ، وأخذت تضرب فى الهون النحاس وهى تغنى.. حلقاتك برجالاتك..يا سلام سلم على شرباتك.. شوفوا الخفة.. شوفوا الرقة.. وكل المدعوين يغنون معها.. إلى أن انتهت تقاليد الاحتفال المصرى بالسبوع.. فأسرع محمود ونقل برميل النبيذ إلى منتصف الحجرة.. ثم رفع ابنه من المنخل العريض وحمله بين ذراعيه ، وأشار للمدعوين بالسكوت وقال... هل تعلمون لماذا تعتبر عضلات الشعب الإيطالى أقوى عضلات فى العالم.. إنها العضلات التى حارب بها إسكندر الأكبر كل العالم حتى وصل إلى الهند.. وقدكان يحارب بالسيف.. والسيف لا ينتصر إلا بقوة العضلات.. وهذه القوة لا يمكن أن تتوافر إلا إذا سمد الطفل بالنبيذ.. نبيذله إعداد خاص ينفرد به الشعب الإيطالى.. وأنا أريد أن يكون ابنى أقوى رجل فى العالم.. وقداستطعت أن آخذ من روما برميلا يحمل هذا السر.. سر القوة.. حتى أسمد به ابنى..

والطفل كان يصرخ كأنه غير مقتنع بما يقوله أبوه.. ولا يريد أن

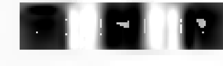
يسمد بهذه القوة.. ولكن أباه محمود لم يأبه بصراخه ، ورفعه عاريا وأمسكه من قدميه وترك رأسه مدلى إلى أسفل.. ثم أسقطه فى برميل النبيذوانتزعه فورا.. تماما كما رأى فى حفل سبوع الطفل الإيطالى فى روما.. ولكن الطفل انتشل من البرميل وهو صامت.. لا يصرخ.. بل لا يتنفس.. وأخذ أبوه يهزه ويدلك فيه.. ولكنه لا يصرخ ولا يتنفس..

واختطفت الأم طفلها من يد أبيه.. وأخذت تتحسسه فى هلع.. ثم صرخت :

– مات.. ابنى مات.. قتلت ابنك يا مجنون..

ثم هجمت على زوجها تضرب فيه بيدها صارخة.. قتلت ابنى.. قتلت ابنى..

وساد الذهول على كل المدعوين.. وكل منهم قال كلمة معزيا ومواسيا.. وانتهى الحفل كما تنتهى أى مناسبة وفاة



ولم يعدم الحادث من يتطوع من المدعوين بإبلاغ السلطات أن الأب قتل ابنه بأن أغطسه فى برميل النبيذ.. وبدأ التحقيق فعلا ، ولكن الوزير تدخل واستطاع أن يوقف استمرار التحقيق.. إن الحادث وقع قضاء وقدرا نتيجة محاولة الأب تسميد ابنه بالقوة بالطريقة التى تعلمها فى إيطاليا.. وكان الوزير سعيدا فعلا بمحمود الذى وصل من اعتزازه بقوته إلى حد أن يحاول أن يكون ابنه أقوى منه.. ولكن محمود لم يعد يحس بأنه قوى.. لم يخطرعلى باله أبدا قيمة القوة.. إنه يحس بأنه قتل ابنه فعلا.. قتله باسم توفير القوة. إنه لم يعد يريد أى قوة.. وأصبح يبدو دائما مذهولا منطوياعلى نفسه ، يسير كأنه يزحف بقدميه ، ويتكلم نادرا كأنه يتنهد.. إنه يجلس على مكتبه منهارا.. ويسير بصحبة الوزير وهو ساهم لا يدرى أين تقوده قدماه ، ولا يرى أحداممن يلتفون حول الوزير..

والوزير نفســه يلاحظ ذلك ويعذره منتظرا أن يفيق من صـدمة قتل ابنه..

وكان الرجل الذى يسمى خليل يتردد بين يوم وآخر على الوزارة مصرا عـلى مقابلة الوزير.. وكان ينتظر يومـا لا يكون فيه مـحمود موجودا على مكتـبه حتى يحاول مع غيره.. ولكنه كـان يرى محمود دائما على مكتبه.. ولكنه بدأ يلاحظ أن محمود قد تغير.. إنه ليس فى عنفوانه.. ولا فى مظاهر جبروته الذى عرف به.. فـتجرأ وأقدم عليه ووقف أمامه يطلب مـقابلة الوزير.. وأجابه محمـود فى تخاذل كأنه يرجوه ويستعطفه :

– صدقنى.. كنت أتمنى لك أن تقابل الوزير ولكن مستحيل..

وصرخ خليل فى وجهه بعد أن تأكد من انتهاره :

– المستـحيل هو أن يحرم الشعب من لقـاء وزرائه.. إنى صاحب مطلب شعبى..

وقال محمود فى تخاذل :

– آسف.. لا أستطيع..

ومد خليل ذراعه وأمسك بعنق محمود صائحا :

ولكنى أستطيع أن أنزعك من على مكتبك لتفتح لى باب الوزير..

وقال محمود وهو مستسلم له كأنه يترك عنقه له ليخنقه :

– الله يسامحك.. حاضر كما تريد..

وقام محمود وصحب خليل ودخل به غرفة الوزير قائلا :

– هذا الرجل يلح منذ عام فى لقاء جنابك..

ونظر الوزير نظرة هلع إلى خليل.. وهمّ محـمود أن يترك الرجل معه ويخرج من الغرفة.. فصاح به الوزير :

– لن تخرج.. كن معنا..

ثم قال الوزير لخليل :

– إنى لم أنس ما تريد.. وسأحققه لك حالا وفورا..

وكتب الوزير ورقة أعطاها لخليل وخرج مع محمود..

وفى نفس اليوم طرد الوزير من مكتبه محمود ونقله إلى بدروم الأرشيف.. ومحمود لايحس بما يجرى له.. لا يحس بنفسه سواء كان فى مكتب الوزير أو فى بدروم الأرشيف.. إنه يعيش مذهولا كأنه فاقد الوعى.. إلى أن بدأت خواطره تعصف به.. لقد قتل ابنه كيف قتله ؟ لقد قتله بإغراقه فى النبيذ.. ولن يستطيع أن يثأر لابنه إلا إذا قتل نفسه كما قتله.. وقتل نفسه أيضا غارقا فى النبيذ.. وجاء ببرميل النبيذ.. وخلع ثيابه وألقى برأسه داخل البرميل.. ولكن طبيعته تقاوم الموت.. ورفع رأسه وهو يصيح بكلمات مترنحة سكرانة :

– يارب.. ارحمنى.. واقتلنى..

واستجمع كل ما تبقى له من قوة وعاد وألقى برأسه فى البرميل ولكنه لم يغطسها فى النبيذ بل أخذ يشرب منه.. حتى أصبح مخمورا وفى منتهى السكر..

ومن يومها ومحمود لا يكف عن شرب الخمر منذ يصحو إلى أن تخمده الخمر.. ولم يعد يشترط ألا يشرب إلا نبيذ روما.. إنه يشرب أى خمر.. وزملاؤه لا يرونه إلا وهو يتطوح.. وينهالون عليه بالمشاغبات والصفعات.. ويصفعون البطل القوى.. والضحكات البلهاء تتساقط من شفتيه..

أحلامه تأخذه منى

أحلامه تأخذه منى

كل من حوله من زملائه حائرون فيه.. بعضهم يعتبرونه مغفلا كبيرا.. وبعضهم يشفقون عليه ، ويعتبرونه أطيب وأنظف من أن يدخل فى أى معركة من معارك الحياة ، حتى لو كانت معركة تفرض عليه نفسها ليحصل على حقوقه.. والبعض الآخر يعتبره كأنه فى غنى عن المطالبة بأى حق ، وبالتالى فهو يترفع عن بذل أى جهد للوصول إلى أى حق..

إنه شاب مكتمل الرشاقة والوسامة لايظهر منه أى شىء غريب إلا هذه النظارة السميكة التى تعجز عيناه فى الرؤية إلا من خلالها.. ومنذ ظهر بين زملائه موظفا فى هذه الشركة الخاصة ، وهو لا يبدأ أبدا بالكلام.. وإن كانت ابتسامته الهادئة الضيقة لا تفارق شفتيه أبدا.. وقد حاولوا كثيرا أن يبدأوه بالكلام ، ولكنه دائما لا يحرك لسانه إلا بكلمات مختصرة.. وإذا طالت كلماته فهى تحدد أى معنى، ولا تعبر عن أى موضوع.. إنما تنطلق كأنها مجرد نوبة شاذة طرأت على لسانه.. وخصوصا أنه لا يتكلم أبدا عن نفسه.. ولا يروى أى ملامح عن أصله وفصله وتاريخ حياته.. ولا يشكو أبدا من شىء يتعبه.. كما لا يعبر أبدا عن فرحة تسعده.. إنه يعيش بينهم كأنه ليس معهم.. ويتعجبون وهم يلاحظون أنه يتتبعهم دائما من وراء نظارته السميكة.. يتابع كل تحركاتهم وكل أعمالهم ، ويمد عينيه

أحيانا إلى أوراقهم.. وقد يكون متتبعا بأذنيه لكل كلامهم.. وكل ذلك دون أن يسأل سؤالا.. أو يعلق برأى.. أو ينطق بكلمة.. وهم حائرون فى اكتشاف ما يهمه من حرصه على تتبعهم.. لعله جاسوس عليهم.. أو لعله لا شيء سوى حيوان أليف.. كأنه حمار أو كلب وضع بينهم.. والحمار أو الكلب لا يكف عن التطلع حوله بحكم طبيعته.. وهى طبيعة لا يمكن أن تحقق أى صداقة بينه وبين أى زميل.. كلهم يعرفونه وهو يعرفهم كلهم.. ولكنها معرفة لا تتيح أى صورة من صور الصداقة.. قد يربت أحدهم على كتفه ، كما يربت على كتف الحيوان الأليف.. أو يقول له كلمة يدلله بها.. وقد ينظر إليه آخر فى قرف.. أو يقذفه بكلمة احتقار جارحة.. وهو كما هو.. لايتأثر ولا يتغير..

وكان زملاؤه من حيرتهم فيه يحاولون أن يتقصوا عنه ويسألوا عنه من بعيد ليعرفوه أكثر.. وربما كان أول ما قدروه عنه هو أنه من عائلة ميسورة لا تعانى الفقر.. فإنه يظهر بينهم دائما فى ملابس محترمة.. لا يمكن أن يكفى مرتبه فى الشركة لشرائها.. ثم إنهم عرفوا منذ اليوم الأول أنه يأتى إليهم وهو فى سيارة يقودها.. إنها سيارة صغيرة وقديمة.. ولكنه يملك سيارة.. ثم تقصوا عن مستوى تعليمه وعرفوا انه لم يدخل الجامعة.. بل لم يحصل على شهادة الثانوية العامة.. رغم أنه قضى سنوات عديدة كطالب فى المدارس.. ولم يكتشفوا كيف عين موظفا فى الشركة ليكون زميلا لهم رغم أنه لم يتم تعليمه ، كما أن ليس فى شخصيته أى بارقة تدل على قدرته على العمل.. لم يستطيعوا أن يكتشفوا أى علاقة له بأصحاب الشركة أو برؤساء أقسامها تبرر تعيينه.. وهو نفسه منذ عين فى الشركة وهو ملقى على المقعد الذى خصص له. لا يسأل عنه أحد من المسئولين عن العمل ، ولا هو يسأل عن أحد.. لم يعهد إليه منذ عين بأى عمل له أى قيمة.. كأنه مجرد آنية فارغة وضعت على مكتب..

وإن كان زملاؤه يستغلون فراغه أحيانا ويكلفونه ببعض الأعمال التافهة تخفيفا عن أنفسهم.. وهو يستجيب صاغرا ، وإن كان لا يهتم أبدا بأى عمل يعهد إليه ، وفى الغالب لا يطمئن أحد على أدائه..

ولا أحد يعرف شيئا عن دخيلة شخصية أشرف عسيران ، أو عن طبيعته التى تقوم عليها هذه الشخصية..

إنه منذ وعى الحياة وهو يجد نفسه مكتفيا بالفرجة على كل ما حوله.. ويستوعب كل ما يتفرج عليه بالنظر بعينيه والاستماع بأذنيه.. دون أن يدفعه شىء مما يتفرج عليه إلى أى حركة.. أو إلى أى فكرة.. أو إلى أى عمل.. إنه مجرد مخلوق يعيش على رصيف الحياة ، ويتفرج على ما يمر أمامه دون أن يحاول أن يقوم ويمشى ليجتاز شارع الحياة.. ولكنه يجمع ما تفرج عليه فى طيات عقله ، كأنه يحتفظ به فى مخزن واسع يكفى لتخزين كل ما يمر عليه من مشاهد الحياة.. حتى إذا قام من على الرصيف وألقى بنفسه على فراشه وأغمض عينيه ونام.. بدأ هذا الحزين ينطلق فى أحلام.. ويجد نفسه يعيش شخصية كاملة فى أحلامه.. إنه ليس مجرد متفرج وهو يحلم.. ولكنه يعيش أحلامه وهو يتحرك ويعمل ويجاهد ويغامر فى معارك عنيفة هائلة ، حتى ينتصر ويجتاز الطرق حتى يصل إلى القمة..

وقد كان فى صباه يجلس على الرصيف ويتفرج على أطفال الحى وهم يلعبون الكرة.. وعيناه تتبعان الكرة فى كل تحركاتها.. وتتبعان كل قدم تشوطها.. ولكنه لا يتحرك أبداً من جلسته فوق الرصيف للاشتراك فى اللعب.. ولا يستجيب أبداً إذا دعاه اللاعبون إلى اللعب.. وهم يائسون منه إلى حد ألا يدعونه إلا اضطرارا إذا نقصهم واحد.. وإذا جاءته الكرة وهو جالس على الرصيف بعد أن تخرج عن أرض الملعب فلا يتحرك للإمساك بها وإعادتها إلى اللاعبين ، كأنه يخاف أن يلمسها.. حتى إذا انتهى اللعب ، وعاد إلى

البيت ونام ، قضى يومه كله وهو يحلم بأنه يلعب الكرة.. وتصور له أحلامه أنه بطل من أبطال اللعبة.. جول.. اثنين.. ثلاثة.. أربعة.. لقد حقق انتصارا رائعا فى مباراة الكرة التى حلم بها..

وقد استمرت معه هواية الفرجة على مباريات كرة القدم ، وأصبح يواظف على الجلوس بين المتفرجين فى كل المباريات العامة.. دون أن يحاول أن يلعب أبدا.. وتأخذه الفرجة إلى أحلامه.. وقد تبهره الفرجة على إحدى المباريات إلى الانبهار بلاعبى النادى الأهلى ، فيحلم ليلتها بأنه رئيس فريق الأهلى.. ويعيش حلمه فى مباراة عنيفة يفوز فيها بكل الأحوال.. ولكن فى مباراة أخرى يبهره لاعبو الزمالك.. فيحلم بأنه رئيس فريق الزمالك ، وينتصر انتصارا كاسحا على الأهلى.. أو قد يأخذه حلم إلى رئاسة فريق القناة.. أو فريق الترسانة.. أو.. أو..

وكان أشرف منذ دخل المدارس وهو متفرج أيضا على الطلبة ، وعلى كل ما يجرى فى المدرسة دون أن يتعمد أن يكون له صديق بين الطلبة أو يساهم فيما يجرى من النشاط المدرسى.. ويتفرج بعينيه على المدرس ، ويتفرج بأذنيه على ما يقوله.. ويحتفظ بما يتفرج عليه فى مخازن طيات عقله دون أن يستطيع أن يعبر عنه ردا على أى سؤال يوجهه إليه الأستاذ.. أو لينجح فى أى امتحان.. ولذلك كان معتزلا دائما بين الطلبة ، وكان يرسب فى كل امتحان ، ولا ينجح إلا بعد سنوات من الإلحاح عليه.. ولكنه كان ينجح دائما فى أحلامه.. وقد يعيش فى حلم بأنه هو الأستاذ المدرس.. والأستاذ هو الطالب.. ويقضى حلمه وهو يلقى الدرس على الأستاذ.. أو قد يحلم بأنه هو أقوى طالب فى المدرسة وأقدرهم على فرض إرادته على باقى الطلبة ويعيش حلمه فى معركة ، تنتصر فيها مدرسته على كل المدارس..

وحتى فى طبيعته العاطفية بعد أن وصل إلى مرحلة الشباب.. لقد

أسـرته الفرجـة إلى ابنة الجيـران.. نادية.. ولكنه لا يحـاول أبدا أن يسعى لـتلتقى عينـاه بعينيهـا.. ولم يحاول أبدا أن يصل بكـلمة إلى أذنيهـا.. ولكنه يكتفى بالفـرجة ويعيش مـعها فى حلم من أحـلامه.. حلم يعيش فيه كل متعة الحـياة.. وقد أخذته الفرجة بعد سنوات إلى فتـاة أخرى كان يراها كل صـباح ، وهى فى طريقهـا إلى المدرسة.. وهو لا يعرف اسـمهـا ، ولم يحاول أن يعـرفه.. إن هواة الفـرجة لا يهتمون بمعرفة الأسماء.. ثم إن الأحلام لا تحتاج إلى اسم.. إنه يحلم لها باسم يختاره.. وقد عاش سنوات أخرى فى حب هذه الفتاة.. إلى أن شدته الفنانة شريهان ، وهو يتفرج عليها فى التليفزيون إلى حب جديد يحلم به..

وهكذا كان أشرف عسيران..

حياته مقصورة على الفرجة يعيش ما تفرج عليه فى أحلامه..

وكان قـادرا دائما على أن يجـذب النوم حتى يعـيش الحلم.. كان يستطيع أن ينام بمـجرد أن يدعو إليه النـوم.. بل إنه كان يحس بأنه يبـدأ فى الحلم بمجـرد أن يرقد على فـراشـه حتى قـبل أن يغـمض عينيه.. كأنه أصبح قادرا على اختيار الحلم الذى يحلم به..

وكان أشرف يعيش مع أمـه وحدها.. فقد توفى أبوه وهو لا يزال طفلا وقبل أن يعرفه.. وأمه وهبته كل حياتها.. وكان أبوه قد ترك له ولها مـا يكفى ليعيـشا فى يسر.. لـيسا أغنيـاء ولكنهما ليـسا فى حاجة إلى أى غريب.. وقد عرفت الأم كل مـا فى شخصية ابنها وهو يكبـر عرفت أنه يكتـفى بالفرجـة دون أن يتحـرك.. وغالـبا دون أن يتكلم.. كما عـرفت أنه ينام كثيرا وطويلا.. بل عـرفت أنه يقرر النوم فينام.. كما عرفت أنه كثير الأحلام.. فهو كثيرا ما يروى لها أحلامه.. لا يرويها كلهـا دائما ولكنه يروى بعـضها أحـيانا.. وقـد تعودت أن تربط الحالة التى يصـحو بها من النوم بنـوع الحلم الذى كان يحلم به وهو نائم.. فإذا صـحا ووجهه يفـيض بمعالم البشر والسـعادة..

وتناول إفطاره بشهية ، ويذهب إلى المدرسة دون تمحك وسخط فهو قد قضى نومه فى حلم سعيد.. أما إذا صحا من النوم وهو مكفهر الوجه معقد القسمات مزمت الشفتين ، وتبذل جهدا فى دفعه إلى تناول إفطاره ، ثم فى غضبه على التوجه إلى المدرسة فكل ذلك لأنه عاش خلال نومه فى حلم مفزع عذبه وتركه مصدوما منهارا..

ورغم ذلك لم يطرأ على بال الأم أبدا أن ابنها قديكون فى حالة غير طبيعية يجب أن تخرجه منها.. إنها تعتبر أن قدرته الفائقة على النوم هى دليل على أنه فى صحة رائعة.. ودليل على راحة أعصابه فلا تتعرض لأى مما يمكن أن يقلقه ويحرمه من النوم.. ولا شك أن النوم متعة.. ثم إنه لا ينام رغما عنه حتى تشك فى أنه قد يكون مريضا.. فهو الذى يختار النوم ويفرضه على نفسه.. ثم أنه يستيقظ بمجرد دعوته إلى اليقظة بكلمة تطلقها فى أذنه أو هزة تهزه بها.. أما إذا كان يحلم دائما فكل الناس يحلمون وهم نيام.. جريا وراء أمانيهم التى تراودهم فى اليقظة.. أى ليس فى طبيعة أشرف أى بادرة شاذة.. أما ما كان يتعب الأم ويقلل سعادتها فهو كثرة رسوبه فى امتحانات المدرسة.. وهى تبذل الكثير فى دفعه إلى النجاح.. إنها تجلس بجانبه كل مساء تفرض عليه أن يفتح الكتب والكراسات ويذاكر.. وإن كانت لا تدرى هى أنه يذاكر أم يفتح عينيه بين الصفحات كأنه يتفرج على السطور المرصوصة.. أو يخط بقلمه كلمات فارغة.. فهى ليست متعلمة حتى تشترك معه فى المذاكرة.. وكانت تذهب بنفسها إلى المدرسة لتقابل الناظر والمدرسين لتطمئن على حالة ابنها ، وتسترشد منهم على وسائل سبل النجاح له.. وكانت لا تبخل عليه أبدا بالدروس الخصوصية ودفع ما يفرض عليها مهما كلفها من التقتير على نفسها وعليه.. وكانت تختم كل صلاة بالدعوة له بالنجاح.. وتزور أضرحة الأولياء داعية أن يتوسطوا لابنها لدى الله حتى يهبه النجاح فى الامتحان.. وكانت تصحبه كثيرا فى هذه

الزيارات حتى تشمله البركة ويتحقق الدعاء.. وتفرض عليه فرضا أن يؤدى الصلاة خصوصا كلما اقتربت أيام الامتحانات.. وإن كان هو شخصيا لا يستوعب صلاته ، ويحس بنفسه بين يدى الله إلا إذا أدى هذه الصلاة فى حلم من أحلامه.. إنه كثيرا مايحلم فى نومه بأنه يصلى.. بل قد يأخذه الحلم إلى الصلاة فى رحاب الكعبة..

ورغم ذلك فهو يوالى الرسوب.. يرسب كل عام إلى أن ينجح صدفة.. ولعله تمنى أن يمتحن وهو نائم فكثيرا ما كان يعيش أحلاما بالنجاح فى الامتحانات.. وقد ظل يعيش الرسوب المستمر ونجاح الصدفة حتى وصل إلى امتحان شهادة الثانوية العامة.. ورسب فى أول امتحان.. والثانى.. والثالث.. قضى ثلاث سنوات وهو راسب.. ونقلته أمه إلى مدرسة أخرى.. ولكنه رسب لرابع مرة.. وقد أصبح الآن فى الثالثة والعشرين من عمره ولم يحصل على شهادة الثانوية العامة.. ولا شىء يتغير فيه.. يعيش متفرغا للفرجة.. وكلما أحس بأن أمه تتعذب.. أو أحس وهو يتفرج أن من يعرفونه ينظرون إليه فى لوم أو فى غرابة ، كأنه مخلوق شاذ استدعى النوم إلى عينيه واستغرق فى حلم يستوحيه قبل أن يغلق عينيه ، حتى إذا أغلقها رأى نفسه شابا ناجحا فى كل الامتحانات ورأى نفسه طالبا فى الجامعة ثم أستاذا وتصل به أحلامه إلى أن يرى نفسه وزيرا للتعليم..

أنه كلما كبر فى العمر يحتاج إلى أن ينام أكثر لأنه يصبح فى حاجة أكثر إلى أحلامه..

ووصلت أمه إلى منتهى اليأس من أن تصل بابنها إلى أن يحمل شهادة عالية تؤهله لمركز محترم كما تتمنى كل أم لابنها.. وبدأت تقتنع بأن تدفع ابنها إلى أى عمل يحمله أى نوع من المسئولية.. ويجعل منه إنسانا يعمل ، ويكسب حتى لا تتركه العمر كله مجرد طالب راسب.. مجرد عاطل.. يأكل لينام.. وينام ليحلم.. وكان ابن

عمها مراد خير الله يملك شركة واسعة للأعمال حققت منتهى النجاح وأرباحا ضخمة.. وكان ابن العم يعتبر كبير العائلة.. وإن كان ضنينا فى حمل مسئوليتها.. وقد ذهبت إليه الأم تذرف دموعها وتتوسل إليه أن يعين ابنها أشرف فى أى وظيفة فى شركته.. حتى وإن لم يدفع له أجرا.. فقط يحمله مسئولية أى عمل حتى ينتشله من فراغ الفشل الذى يعيش فيه.. وكان ابن العم مراد خير الله على علم بأن أشرف يعيش بطبيعة شاذة لا تؤهله لأى عمل.. لم يكن يعرفه شخصيا ولم يره أبدا ، رغم أنه أحد أفراد العائلة فلم يكن مراد خير الله يهتم بمعرفة ولقاء أى فرد من أفراد العائلة إلا من يحتاج إليه منهم.. ولكن الحديث عن شذوذ أشرف كان يتردد داخل العائلة وكان يسمعه.. لذلك حاول أن يرفض استجداء الأم ، ويتجاهل دموعها ولكنه أخيرا استجاب لها شفقة بها..

وقبل أشرف فورا ماعادت به أمه من تعيينه موظفا فى شركة خيرالله.. ولم يحاول أن يسأل نفسه عن العمل الذى يمكن أن يعهد إليه به فى هذه الشركة.. أنه لا يحاول أبدا أن يعرف نفسه ويحدد ما يريد ومالا يريد.. أو ما يستطيع ومالا يستطيع.. إن حياته كلها استسلام.. واستسلام لم يخرجه أبدا إلى محاولة الاختيار.. وكل ما يحس به بعد أن تلقى خبر تعيينه هو الفرحة بأنه مقبل على فرجة جديدة.. سيرى فى هذه الشركة عالما جديدا لم يتفرج عليه من قبل ولا شك أنها فرجة ستمتعه بأحلام لم يسبق أن رآها فى نومه.

وذهب إلى الشركة.. ولم ير ابن عم والدته صاحب الشركة مراد خير الله.. ولكن السكرتير صحبه من يده بمجرد أن عرفه ، ودخل به إلى هذه الحجرة المزدحمة بالموظفين وأجلسه إلى مكتبه.. ثم تركه دون أن يقول له شيئا يخص ما هو مطلوب منه..

وجلس أشرف إلى المكتب والأيام تمر دون أن يكلف بأى عمل.. وهو نفسه لا يطرأ على باله أن يفكر فى أى عمل.. إن كل وقته

يقضيه فى الفرجة على زملائه.. ثم يحمل ما تفرج عليه فى طيات عقله لينفثه فى أحلامه وهو نائم.. وقد أصبحت فعلا من نوع آخر جديد.. إنه يحلم بأنه حقق مشروعا كبيرا من مشروعات الشركة.. ويحلم مرة بأنه صاحب الشركة ، ويأمر وينهى كل من فيها من موظفين.. ولم يخطر على بال أشرف أبدا أنه مهمل كموظف ، لأن صاحب الشركة يعتبره مخلوقا فاشلا ولايستطيع أن يقوم بأى عمل ولم يعينه إلا لأنه من أفراد العائلة.. إن أشرف لا يتصور الفشل أبدا.. بل إنه سعيد بنجاحه حتى لو كان نجاحا لا يعيشه إلا فى أحلامه.. بل إنه بلغ من استسلامه أنه وجد زملاءه فى أول الشهر يقبضون رواتبهم.. فلم يبحث عن مرتبه لأن لا أمه ولا أحد قال له إن له مرتبا.. وظل يعيش استسلامه إلى أن مر نصف الشهر وفوجىء بأحد السعاة يستدعيه لمقابلة مدير الخزانة.. ومدير الخزانة يسأله فى دهشة لماذا لم تأت لقبض مرتبك.. له مرتب قدره ثلاثون جنيها فى الشهر.. ولم يعرف أشرف أن ابن عم والدته صاحب الشركة خصص له هذا المرتب كمجرد احتفاظ بالروتين الذى تقوم عليه الشركة.. ورغم أن أمه كانت قد طلبت تعيينه فى الشركة دون أن يكلفها أى مليم.. وقد فرح أشرف بهذا المرتب فرحة كبيرة لا لأنه كان يحس بحاجته إليه ، ولكن لأنها أول مرة فى حياته تقبض يده على جنيهات لا تعطيها له أمه.. وهو ما أطلق أحلامه إلى عالم جديد.

هذا هو أشرف عسيران الذى حير زملاءه لأنهم لا يعرفون طبيعته الشاذة.. إلى أن تناسوا حيرتهم واستسلموا لوجوده بينهم كأنه آنية فارغة موضوعة على مكتبه..



ومضت شهور والآنية الفارغة موضوعة على المكتب دون أن يتغير منها شىء أو يضاف إليها شىء.. إلى فوجىء أشرف ذات يوم بفتاة لم يرها من قبل تدخل إلى قاعة الموظفين.. وجحظت عيناه

تبحلقان فيها بانبهار عنيف.. إنها رائعة.. ولم تكن عيناه تتنقلان بين خطوط روعتها.. ولم يحاول أن يلتقط قوامها الطويل الرشيق.. ولا وجهها الذى يبرق بالحيوية وكل ما فيه يشع بابتسامة.. شفتاها تبتسمان.. وأنفها يبتسم.. وعيناها تبتسمان.. وعنقها يبتسم.. إنه يراها كلها كابتسامة كان يتمنى طوال حياته أن يراها فى أحلامه..

وهب أحد زملائه يرحب بها.. وقدمها إلى الزميل الجالس بجانبه.. وسمع أن اسمها وفاء.. وأنها عينت أخيرا موظفة فى الشركة.. وإن كان مكتبها ليس فى هذه القاعة ، ولكن فى القاعة المجاورة.. وقد وقفت وفاء بين الزميلين بضع دقائق ، وهى تنقل عينيها بين باقى الموظفين وتبتسم لكل منهم ابتسامة.. ولكن أشرف تعمد أن يحنى رأسه عنها مقدما حتى لا تلتقى عيناها بعينيه ، ولا ابتسامتها بابتسامته.. إلى أن خرجت من القاعة..

وفى نفس الليلة بعد أن نام أشرف لم تنطلق أحلامه إلى الفنانة شريهان كما كان قد تعود فى الليالى الأخيرة.. ولكن انحصر حلمه كله فى وفاء.. وقد حلم بها كأنها كانت تعيش حياته كلها.. ويده دائما فى يدها.. وحديث بينهما لا ينتهى.. ولكنه كان حلما مهذبا لم يجمع بينهما كرجل وامرأة.. كأنهما ليسا رجلا وامرأة ولكنهما ملاك وملاك..

وأصبح هذا هو حلم كل ليلة.. ولكن الحلم بدأ يتطور وبدأ يحس فى حلمه بأنه رجل وبأنها امرأة.. ويحس بها فى أحضانه.. ثم وجد نفسه فى حلمه وشفتاه بين شفتيها.. إنها أمتع قبلة ذاقها فى أى حلم من أحلامه..

وكانت وفاء تتردد على قاعة الزملاء الموظفين بين كل يوم وآخر.. وأشرف لايكاد يراها حتى يبعد عينيه عنها.. إنه لا يريد أن يلتقى بها إلا فى أحلامه إلى أن فوجىء بها ، وهى تقف أمامه وتمد له يدها مصافحة وهى تقول ضاحكة :

- إننا إلى اليوم لم نتعرف ولم نتبادل أى تحية رغم أنى تعرفت بكل الزملاء.. أنا اسمى وفاء.. لابد أنك على الأقل سمعت اسمى..

وهب واقفا ويده فى يدها وقال فى كلمات مرتعشة :

- إنى.. إنى.. إنى أتشرف..

وارتفع صوت زميل ضاحكا :

- ارحميه.. ده دلوعتنا..

وتوالت التعليقات الساخرة التى يطلقها الزملاء وهم يشاهدونها واقفة مع أشرف.. وقالت له وفاء فى صوت هامس وسط هذا الضجيج :

- سمعت أنك تملك سيارة.. انتظرنى بعد انتهاء العمل وسأركب معك.. هل توافق..

وهز أشرف رأسه موافقا دون أن ينطق بكلمة.. كأنه يستسلم لكل مايفرض عليه.. وتركته لينفرد به زملاؤه ويمطرونه بوابل من النكات الساخرة، وهو مكتف بابتسامة بلهاء تغطى شفتيه..

وعندما خرج من الشركة وجدها جالسة فى سيارته الصغيرة القديمة الجديدة.. وجلس بجانبها أمام عجلة القيادة دون أن يتحرك كأنه لا يدرى إلى أين يتحرك إلى أن أمرته وهى دهشة بأن يتحرك بالسيارة وحددت له الطريق الذى تريده..

وقالت فى رقة وهويقود بها السيارة :

- لقد أردت أن أعرفك لأنك الوحيد الذى لم تحاول أن تعرفنى..

ثم بدأت تفيض بالكلام.. وتروى تاريخ حياتها إلى أن تخرجت فى الجامعة ، والتحقت موظفة بالشركة.. وهو يسمع ويلتقط كل كلمة ، ويحتفظ بها فى طيات مخازن عقله دون أن يحرك لسانه بكلمة إلى أن كفت هى عن الكلام وهو لا يزال صامتا.. إلى أن صاحت فيه :

- لماذا لا تتكلم..

قال وعيناه ترتعشان :

- صحيح.. يجب أن أتكلم..

وسرح برهة كأنه يبحث عما يتكلم فيه.. ثم قال مندفعا كأنه اندفاع طفل.

- هل تعلمين أن العراق سينتصر على إيران في الحرب.. فقد قررت القيادة أن تقوم المدفعية بالضرب في نفس الوقت الذي تضرب فيه الطائرات وعلى نفس الأهداف.. وهي خطة جديدة.. فقد كانت المدفعية لا تضرب إلا بعد أن تنتهي غارات الطائرات.. حتى لا يحدث خطأ وتصيب المدفعية الطائرات.. ولكنهم وجدوا أن الطائرات يمكن أن ترتفع إلى أعلى من قذائف المدفعية.. و..

ووفاء تستمع إليه في دهشة وتكاد تضحك ساخرة.. إنها تعطي فرصة الاختلاء بنفسها مع شاب فلا يحدثها إلا عن الحرب بين العراق وإيران.. وهو نفسه لم يجد ما يحدثها عنه إلا أن يروي لها حلما من أحلامه.. وقد حلم فعلا ليلة أمس بأنه تولى قيادة الجيش العراقي.. وهو الذي قرر في حلمه أن تشترك المدفعية مع الطيران في الضرب..

وأحست وفاء بسخريتها منه تنقلب إلى إحساس بالإشفاق، وكانت قد وصلت إلى المكان الذي تريد أن تنزل فيه من السيارة.. فقالت وقد عادت إليها ابتسامتها المغرية :

- قف هنا.. سأنزل.. إن بيتنا هناك.. وسأركب معك غدا.. ولكن لا تترك سيارتك مركونة أمام باب الشركة.. أوقفها بعيدا عن الباب.. هذا أفضل لنا.. مع السلامة..

وتركها تنزل دون كلمة.. كأنه لا يستطيع شيئا إلا الاستسلام.. وليلتها قضى حلما أكثر متعة من كل أحلامه التي عاش فيها مع وفاء..

وعندما ركبت بجانبه في اليوم التالي قالت وهي تغريه أكثر بابتسامتها :

- حدثنى عن نفسك.. وقد عرفت عنك أنك من عائلة السيد مراد خير الله صاحب الشركة.. واسمح لى أن أقول لك إنى عرفت أيضا أنك لم تتخرج فى الجامعة.. ولكنى أريد أن أعرف بقية التفاصيل..

وارتعش أشرف كأنه صدم بهدم كل أحلامه ، وقال فى توتر كأنه يدافع عن نفسه أو كأنه يدافع عن أحلامه :

- إنى لا أعرف ولا أرى مراد خير الله رغم أنه كبير عائلتنا.. ثم إنى لم أشعر بحاجتى إلى الالتحاق بالجامعة.. لقد درست كل علوم كلية التجارة ونجحت فيها دون أن التحق بها..

وكان فعلا قد راوده حلم رأى فيه أنه درس كل العلوم ونجح فى كل امتحان..

وقالت وفاء وهى تكذب على نفسها :

- هذا ممكن..

ثم قالت له كأنها تأمر طفلها :

- قف أمام هذا المحل.. سأشترى لك بسكويت بالأيس كريم..

ونزلت من السيارة فعلا واشترت له البسكويت دون أن يفكر فى النزول معها.. على الأقل لدفع الثمن من جيبه..

ووفاء مستمرة فى لقائه والتعلق به.. ربما لأنها تحس نحوه بالأمومة.. وتحس بأنها وحدها المسئولة عنه ولا يحس هو بأى مسئولية عنها.. وإحساسها بالأمومة والمسئولية يغلب كل أحاسيسها كامرأة.. أو ربما كان قد أغراها بأنه من عائلة صاحب الشركة ، وتستطيع أن تستغله للوصول به إلى السيطرة على عملها.. أو ربما كانت قد تعلقت بوسامته ورشاقته رغم النظارة السميكة التى تغطى عينيه ، وأدمنت تعلقه به.. وكثيرا ما تغلب أحاسيس المرأة رجاحة فكرها..

وكانت أحاديثهما قد أصبحت أسهل خلال لقاءاتهما المتعددة إلى أن قال لها يوما :

– إنى حائر.. مشروعات كثيرة تخطر على بالى ، ولكنى أجدها متعارضة ولا أدرى ما أسعى إليه من بينها..

وربما كان يقصد المشروعات التى لا تتوقف من شغل أحلامه وهو نائم.. ولكن وفاء ردت عليه قائلة :

– ليست هناك إلا وسيلة واحدة لإخراجك من حيرتك.. وقال فى لهفة من يعد نفسه للحلم الذى سيحلم به عندما ينام :

– أى وسيلة ؟

وقالت فى بساطة :

– أن نتزوج..

وقال كأنه يصرخ بعد أن أفاق من حلمه ويحاول مقاومة الاستسلام :

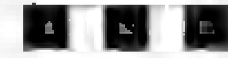
– أن نتزوج ! كيف ؟!

وقالت وفاء فى هدوء وهى تربت على كتفه كأنها تواسيه :

– تذهب إلى أخى الأكبر وتعلنه أننا سنتزوج..

وبدا كأنه انهار مستسلما وقال كأنه ينقذ نفسه :

– لا.. من الأفضل أن تذهبى أنت إلى أمى..



وأخذها إلى أمه.. وجلست وفاء تروى لها كل الحكاية التى انتهت بالتفكير فى الزواج ، بينما أشرف جالس بينهما وبين شفتيه ابتسامة بلهاء مستسلمة.. وفرحت الأم فرحة كبيرة بأن يتزوج ابنها.. أى زواج.. كأنها فرحة بإيقاظه من النوم وانتشاله من أحلامه ليعيش يقظة الواقع.. وفى أيام جهزت الأم غرفة نوم جديدة للعروسين اللذين سيقيمان معها.. وتم كل شىء فى بساطة وهدوء.. وكانت وفاء نفسها هى التى تعد كل شىء.. إلى أن تم كتب الكتاب وانتقلت لتقيم مع زوجها.. وابن عم الأم مراد خير الله صاحب الشركة بارك هذا الزواج.. فهو يعرف وفاء كموظفة نشيطة ويعرف

أن لها شخصية كاملة قوية ذكية ، وقد تستطيع أن تؤثر على أشرف لتخرجه من الحالة البليدة الشاذة التى يعيشها لذلك رفع مرتبها بمناسبة زواجهما.. كما رفع مرتب أشرف إلى خمسين جنيها أملا فى أن يبدأ القيام بأى مهمة..

وفى ليلة الزواج الأولى.. ليلة الدخلة.. جلس أشرف على الفراش والعروس ممددة بجانبه.. وهو لا يدرى ماذا يفعل.. كيف يتحرك والحيرة تستبد به حتى بدأ يلهث بأنفاسه.. وابتسمت وفاء بينها وبين نفسها وكأنها تعذره.. إنها الليلة الأولى التى يجمعه فراش مع امرأة ولا بد أنه لا يعرف كيف يصل إليها وكيف يتعامل مع الجسد الممدد بجانبه.. لابد أن تبدأ هى.. أن تلقى عليه الدرس الأول.. ومدت ذراعيها واحتضنته وشدت شفتيه إلى شفتيها وبدأت تقبله قبلة عنيفة.. ولكن لا شىء يتحرك فيه.. وهو مستسلم لها بلا أى إحساس بها.. لقد تعود أن يعيش القبلات فى أحلامه.. وقد قضى ليالى طويلة يحلم بها وشفتاه بين شفتيها.. ولكنه لم يعش أبدا أى قبلة وهو يقظان.. وإحساسه لم يتعود أبدا أن يتحرك وهو يقظ.. وأخذت وفاء تحاول وهو مستسلم وكل شىء فيه بارد.. إلى أن أصبح متمردا على محاولاتها وكأنه ضاق بها.. فنزع نفسه منها وأدار ظهره لها وحاول أن ينام.. وزوجته صامتة تفكر كأنها طبيب يحاول أن يكتشف علاجا لهذا المريض..

ولكن أشرف لأول مرة فى حياته لم يستطع النوم رغم أنه عاش العمر كله يستدعى النوم كلما أراده.. وقد ترك الفراش وقام خارجا من الغرفة متسللاعلى أصابع أقدامه معتقدا أن وفاء قد نامت.. ولكنها لم تكن نائمة.. وصاحت فيه مذهولة :

– إلى أين ؟

قال وهو يخرج دون أن يلتفت إليها :

– سأشرب كوب ماء..

ولكن مرت دقائق طويلة دون أن يعود إليها.. فتركت الفراش هى الأخرى باحثة عنه.. ووجدته راقدا على الأرض فى الغرفة المجاورة وبين ذراعيه وسادة.. وهو نائم.. فى منتهى عمق النوم.. وذراعاه تحضنان الوسادة وكفاه تتحركان فوقها كأنه يتحسسها ويربت عليها.. بل وجدت شفتيه تتحركان فى الفراغ كأنه يهمس بشىء أو كأنه يتبادل قبلة.. ثم وجدت جسده كله يهتز ويرتعش.. كل ذلك وهو نائم.. منتهى النوم..

وألقت وفاء بنفسها على مقعد مواجه وعيناها مبحلقتان تراقبه فى نومه.. إنه يحلم.. ولعله يحلم بها.. إن الحلم يأخذه منها.. وتستنزف الاحلام المتعة منه ولا تترك لها إلا بروده اليقظان.. إنها لن تستطيع أن تحس بأنه لها وتسيطر عليه إلا إذا أخذته من أحلامه..

ولكن كيف ؟ هل تعرضه على طبيب نفسانى لمعالجته.. وهل هناك علاج لتجربة إنسان فى الأحلام.. أو فرض حياة اليقظة الصاحية على حياة النوم الحالمة.. إنها لا تدرى..

وبدا أن أشرف انتهى من حلمه ولكنه ظل نائما فى منتهى الهدوء.. وهى لا تزال جالسة على المقعد المجاور لا يدفعها شىء إلى العودة إلى الفراش.. إلى أن استيقظ أشرف فى الساعات الأولى من الصباح.. وقد استيقظ ووجهه منطلق بالسعادة والحبور.. لاشك أنه سعيد بحلمه لا بها.. ونظر إليها فى دهشة وهى جالسة أمامه على المقعد.. وقال وإن كانت دهشته لم تسحب ابتسامته :

– ماذا جاء بك إلى هنا فى هذا الوقت المبكر ؟

قالت وهى تغتصب ابتسامة من شفتيها :

– لقد استيقظت قبلك..

وقال دون أن تسمع فى لهجته أى لوم لنفسه :

– آسف إذا كنت انتقلت إلى النوم هنا.. ولكنى كنت أعانى حالة قلق لا تتركنى أنام..

قالت فى بساطة وهى تقوم خارجة من الغرفة :

– هذا طبيعى.. فإننا لم نتعود بعد أن ننام معا على فراش واحد.. وسأعد لك الإفطار..

وخرجت لتجد أمه قد سبقتها فى إعداد الإفطار لهم هم الثلاثة..

وقضت يومها وتفكيرها لا يتوقف عن البحث عن الوسيلة التى تستطيع بها أن تستأثر بأشرف وتسيطر عليه بأن تأخذه من أحلامه.. وعندما جاء الليل وجمعهما الفراش.. جلس أشرف حائرا باردا بجانب جسدها المدد له.. ولم تبذل مجهودا كبيرا فى محاولة جذبه إليها.. وادعت أنها نامت وتركته يدير لها ظهره ويحاول هو الآخر أن ينام.. ثم قام بعد فترة وتسلل على أصابعه وخرج من الغرفة كما حدث فى الليلة السابقة.. ثم انتظرت مدة إلى أن قدرت أنه لا شك قد نام فى الغرفة المجاورة وبدأ يحلم.. فقامت وتسللت خلفه.. ووجدته راقدا على الأرض وهو يحتضن الوسادة بين ذراعيه.. ويبدو أنه لم يصل بعدفى حلمه إلى ذروته.. وتسللت على أطراف أصابعها فى حرص وشدت الوسادة فى رفق من بين ذراعيه ثم وضعت نفسها ملتصقة به مكان هذه الوسادة.. ولم يستيقظ أشرف.. وبدأت تحس بيديه تتحسسانها وتضغطانها على صدره.. ثم أحست بشفتيه فوق شفتيها تلتهمانها.. وهو نائم إنه يحلم..

وبمجرد أن انتهى من الحلم بعد أن وصل إلى ذروته.. فتح أشرف عينيه فجأة.. ورآها فى أحضانه.. لعله لم يحس بها إلا بعد أن انتهى من حلمه.. وهب مذعورا وقذف بها بعيدا عنه.. ولم تعترض على قذفه لها وقالت مبتسمة :

– لولا أننى متأكدة أنك تحلم بى لما شاركتك فى حلمك.. وهدأ أشرف فورا وابتسم لها شاكرا أنها شاركته حلمه.. أحس لأول مرة أنه يمكن أن يحقق أحلامه..

■ ■ ■

ووفاء مستمرة فى محاولتها إلى أن جعلت منه زوجا كاملا لا يمكن أن تأخذه منها أى قوة حتى ولا قوة أحلامه.. لقد حققت ما تريده كما هى عادتها.. وما تريده هو فرض سيطرتها وقد أصبحت مسيطرة على أشرف وأمه.. بل ووصلت سيطرتها إلى حد أن أخذت أشرف من أحلامه التى كانت تصور له نفسه ، وهو يقوم بكل أعمال الشركة ودفعته إلى أن يبدأ فى محاولة العمل فعلا.. حتى أخذ يكتسب ثقة مراد خيرالله ، ويعهد إليه بمهام ويرفع من مرتبه.. وقد طلبت من صاحب الشركة أن ينقل زوجها أشرف إلى مكتب فى القاعة التى تضمها حتى يكون بجانبها وتستطيع أن تدفعه إلى العمل.. وتفرض عليه سيطرتها.. ربما كان سر اختيارها لأشرف كزوج إحساسها بأنه يمكن أن يستسلم لسيطرتها عليه.... والمهم.. أن أشرف لم يعد يسرف فى النوم.. وينام إذا أراد النوم.. حتى يعيش أحلامه.. إنه لم يعد ينام إلا إذا أوحت إليه زوجته بالنوم.. ولم يعد يعيش أحلامه وهو نائم.. فإن زوجته لم تعد تتركه ينام إلا بعد أن يكون قد عاش يوما حافلا مزدحما بالعمل استنزف كل قواه ، ولم يترك له القدرة على أن يحلم وهو نائم..

« وعاشا فى التبات والنبات وخلفا صبيانا وبنات »..

كان يصطاد سمكة

كان يصطاد سمكة

كل منهما كان ملقيا بنفسه على الأرض خارج القرية... ورغم العمر الطويل الذى يجمعهما فقد كان كل منهما بعيدا عن الآخر كأنه لا يحس بوجوده..

وكان برهوم ممسكا بسنارة يدلى بها فى مياه مجرى النهر فى انتظار أن يصطاد سمكة..

وكان ميسور راقدا ممدا على الأرض ورأسه مرفوع إلى السماء وعيناه تبحلقان فى قطع السحاب ، وهو يترنم بموسيقى أغنية من أغانى عبد الحليم حافظ..

وفجأة ارتفع صوت برهوم مهللا وهو يشد السنارة وقد تعلقت بها سمكة صغيرة..

واعتدل ميسور من رقدته على الأرض ونظر شذرا إلى برهوم صائحا :

– ماذا جرى ؟ لماذا تدوشنا بهذا الصراخ ؟!

وعاد برهوم يصيح :

– إنى بطل من أبطال صيد السمك.. بل إنى قادر على اختيار السمكة التى اصطادها.. انظر إلى هذه السمكة.. إنها تحفة.. إنها ملتفة بثلاثة ألوان.. بل أربعة.. أحمر وأزرق وأبيض وأسود.. كأنها لوحة خصها الله بقدرته الفنية الإلهية..

ولوى ميسور شفتيه ازدراء ، وكأنه يهم أن يبصق فى وجه برهوم وقال :

– إنك لست بطلا.. ولم تدخل فى معركة مع السمكة حتى تصطادها أو تصطادك.. إنك مجرد محتال تغش السمك وتخدعه حتى تستولى عليه.. فتدلى إليه بطعم يثير شهيته للأكل.. وهو طعم يخفى فى داخله سلاحا مسموما يقبض على السمكة ، ويجبرها على الاستسلام لك.. تماما كالمجرمين المتخصصين فى اختطاف الأطفال.. المجرم الذى يغرى الطفل بقطعة شيكولاتة حتى يضطره إلى الاستسلام له.. وإذا كان هذا مجرما فى اختطاف الأطفال فأنت مجرم فى اختطاف السمك..

ومد ميسور يده والتقط السمكة من بين يدى برهوم وألقى بها فى مياه النهر.. وهو يصيح :

– دعها تعد إلى دنياها وأهلها..

وصاح برهوم :

– أيها المجنون.. لقد اصطدتها وأصبحت من حقى..

وقال ميسور :

– إن الاعتداء على مخلوقات الله ليس حقا لأحد..

وقال برهوم وهو يحلق فى مياه النهر كأنه يبحث عن السمكة :

– إن الله أحل صيد السمك..

وقال ميسور فى إصرار :

– إن الصيد لا يكون حلالا إلا وفقا لدوافعه.. كأن تصطاد دفاعا عن النفس.. وهذه السمكة لا تهددك حتى تصطادها.. ولن تأكلها حتى تصد عن نفسك الموت جوعا.. إنما تصطادها لمجرد إشباع غريزة الاعتداء التى تكمن فى طبيعتك.. مجرد متعة الاعتداء والتباهى بقوة رخيصة.. قوة القدرة على خداع الضعفاء.. وكل هذا حرام لا يحله الله..

وقال برهوم ثائرا :

- إذن لماذا خلق الله السمك إذا لم يكن قد خلقه لنصطاده..

وقال ميسور ناهرا :

- إن الله لم يخلق السمك لك ، ولكنه خلقه كصورة من صور الإحياء.. كما خلق الإنسان وكما خلق الحيوان.. ولم يحل الله اعتداء خلقه بعضهم على بعض إلا فى حالة الدفاع عن حق الحياة الذى وهبه للجميع..

وصاح برهوم :

- إن الله خلق السمك لنصطاده.. بدليل أنه رحم السمك وجعله مخلوقا لا يحس بالألم.. إن السمكة لا تحس بالألم عندما يشق لحمها السلاح الذى نصطادها به.. كل ما تحس به السمكة أنها فقدت حريتها بعد أن وقعت فى السنارة أو فى الشبكة ، وأصبحت مقبوضا عليها.. وكل ما تحاوله هو الفرار واستعادة حريتها.. فتتلوى وتنتفض ، وقد تستطيع فعلا قطع خيط السنارة أو الهرب من بين خيوط الشبكة ، وتعود حرة كما كانت.. دون أن تحس بأى ألم نتيجة محاولة الاستيلاء عليها.. حتى لو تركت هذه المحاولة جروحا فى جسدها.. وقد سبق أن اصطدت سمكة فوجدت فى فمها سلاح سنارة أخرى حاولت اصطيادها ، ولكنها استطاعت أن تقطع الخيط الذى يشدها إلى الصائد ، وهربت والسلاح لا يزال فى فمها دون أن تحس به إلى أن وقعت فى سلاح آخر لسنارة أخرى شدتها إلى الصائد ليستولى عليها.. لذلك فإنى لا أحس بأنى أعذب السمك وأنا أصطاده..

وقال ميسور ساخطا :

- هذا كلام يقوله الصيادون ليبرروا جريمتهم.. من أدراك أن السمك لا يتألم.. إن كل ما ضن به الله عليه هو حرمانه من القدرة على الصراخ.. ولأنه لا يصرخ فإنك تعتبر أنه لا يتألم.. وكل

المخلوقات التى ضن الله عليها بالقدرة على الصراخ ينهال عليها باقى المخلوقات بالاعتداء والقتل.. حتى الفراشة الجميلة المستكينة التى تطير كنسمة رائعة لا يكاد يصل إليها مخلوق حتى يغتصب حياتها ، لمجرد أنه لا يخاف صراخها.. وكأنها جاءت إليه ليقتلها لا ليتمتع بما من الله عليه من رؤية منتهى الجمال..

وقال برهوم وهو يبحلق فى ميسور كأنه شاذ عجيب :

– إنك تحرمنى من صيد سمكة ، وكأنك تعتقد أنك تنقذ خلق الله.. فما بالك بألوف الأساطيل التى تدور فى البحار وهى تغترف الأسماك بالملايين.. وتعال معى إلى سوق السمك لترى جثث السمك معروضة للبيع علنا.. فكيف تحرم الإنسان من صيد السمك وهو يعيش باصطياده.. إن الإنسان يستمد حياته بحياة السمك..

وقال ميسور فى هدوء :

– دعنى أروى لك تصورى لدنيا خلق الله.. فقد نثر الله مخلوقاته على أنواع.. وجعل لكل نوع لدنيا قائمة بذاتها.. كل دنيا كأنها دولة مستقلة استقلالا تاما عن الدولة الأخرى.. إحداها دولة تحت الماء وهى تجمع كل المخلوقات التى لا تعيش إلا فى الماء.. أى تحت سطح المحيطات والبحار والبحيرات والأنهار.. والدولة الثانية فى الهواء.. وهى دولة تجمع كل أنواع الطيور.. وقد تهبط على الأرض ولكنها لا تعيش إلا فى الهواء.. ثم كانت الدولة الثالثة هى دولة الأرض التى تجمع بين الإنسان والحيوان.. وكان المفروض أن تعيش كل دولة مكتفية بنفسها.. دون أن تحتاج أى منها إلى الاعتداء على الأخرى.. وقد فرض الله على كل مخلوقاته أن يعيشوا بحكم الغريزة حتى يستسلموا لما قدر لهم.. ولكن الله خص الإنسان وحده بالقدرة على فرض إرادته ومنحه العقل المدبر.. الذى يستطيع به التحكم فى غريزته.. ومنذ وجد الإنسان وهو مغرور بما منحه الله.. ويحس بأنه أقوى ما خلقه الله.. وهو السيد الحاكم للدول الثلاث التى تضم كل

المخلوقات.. فلم يترك للحيوان دنيا على الأرض بل أخذ فى الاعتداء عليه حتى أصبحت الدنيا له ويكاد الحيوان فى هذه الأيام يفنى من على الأرض.. حتى قامت جماعات من بنى الإنسان تطالب بحماية الحيوان من الانقراض.. وفى الوقت نفسه أى منذ وجد الإنسان بدأ الاعتداء على الدولة التى تحت الماء.. أى الاعتداء على السمك.. واستطاع الإنسان بما وهبه الله من القدرة على استغلال فكره أن يصل إلى ابتكار السلاح الذى يصطاد به السمك بالملايين بعد أن كان يصطاده سمكة بعد سمكة.. حتى أصبح هناك اليوم من يحذر من انقراض كل مخلوقات ما تحت الماء.. وهو نفس ما حدث فى دولة الهواء.. فكل ما يعيش طائرا قد انقرض بعضه فعلا والباقى فى سبيله إلى الانقراض.. إن الدول الثلاث التى خصصت لمخلوقات الله الثلاثة فى طريقها لأن تصبح دولة واحدة.. هى دولة الإنسان.. وكل ما أدعو إليه هو أن يترك الإنسان حق الحياة لباقى مخلوقات الله.. فإن الإنسان لو بقى وحده فى عالم المخلوقات لصب الله عليه إرادته ، وقامت القيامة وانتهت الدنيا بما فيها الإنسان..

وقال برهوم مقاطعا :

– إنك تتجاهل الهدف الرئيسى الذى يدفع الإنسان إلى الاعتداء على دولة الحيوان ودولة السمك ودولة الطيور.. إنه يعتدى ليأكل.. إذا لم يأكل لايعيش..

وقال ميسور :

– إنى لا آكل الحيوان ولا السمك ولا الطيور ورغم ذلك فإنى أعيش..

وقال برهوم ساخرا :

تقصد أنك نباتى.. لا تأكل إلا ما يعطيه لك طين الأرض.. ولكنك تنسى أن النبات أيضا من مخلوقات الله.. إنه مخلوق كامل تدب فيه الروح حتى تفنى.. فكأنك أيضا تعتدى على مخلوقات الله لتأكلها..

وقال ميسور كأنه يعترف بذنبه :

– إنى أعلم أن النبات أيضا من مخلوقات الله.. لذلك فإنى أحس بإثم الاعتداء حتى وأنا آكل المزروعات.. ولكنى أعلم أن النبات تنتهى حياته بمجرد أن يتم نضجه.. أى أن ثمار الكوسة أو البامية أو البطاطس التى أقطعها من على أغصانها وألقى بها فى النار لأعدها لطعامى هى ثمار فقدت الحياة.. أى أنى لا أعتدى على مخلوقات من الأحياء ولكنى آكلها بعد أن تفقد الحياة.. والمزروعات التى أحس بأنها لا تزال على قيد الحياة لا يمكن أن أعتدى عليها.. كالورود والزهور.. فأنا لا يمكن أن أبيح لنفسى أن أقطف وردة من على غصنها لأتزين بها وأعلقها فوق صدرى.. أو أجمع الورود فى إناء لأتزين بها البيت.. فالورود تظل على قيد الحياة وهى على غصنها وتموت وهى على الغصن واقتطافها يعتبر جريمة اعتداء على أحياء.. أى أنى برىء من تهمة الاعتداء على مخلوقات الله.. وأى إنسان يستطيع أن يعيش بريئا لو تخلص من شهوة الاعتداء..

وقال برهوم ساخرا :

– إنها ليست شهوة.. ولكن من طبيعة خلق الله أن يأكل بعضه بعضا.. القوى يأكل الضعيف.. الحيوان يأكل بعضه بعضا.. والسمك يأكل بعضه بعضا.. والطيور تأكل بعضها بعضا.. أو على الأقل يستولى القوى منها على الضعيف.. وفى بداية خلق الإنسان ، كان يأكل بعضه بعضا.. ثم لما استطاع الإنسان أن يشبع بطنه بالحيوان والأسماك والطيور والمزروعات استغنى عن أكل بعضه بعضا واكتفى القوى بأن يقتل الضعيف أو يستولى عليه ويفرض إرادته عليه.. لقد بدأ زحام الكون بالإنسان بأن أنجب سيدنا آدم ولديه هابيل وقابيل.. فقتل أحدهما الآخر بدافع طبيعته البشرية.. ومن يومها والإنسان يقتل بعضه البعض.. حتى أقام من نفسه مجموعات كل مجموعة تمثل دولة.. والدولة الأقوى تعتدى على الدولة

الأضعف.. مما أصبح يسمى بالحروب.. وما هى الحروب.. إنها لا أكثر من اعتداء القوى على الضعيف..

وقال ميسور مجادلا فى تصميم :

– إن لله حكمة فى فرض طبيعة مخلوقاته.. ربما كان من حكمته ما كان يقال فى القصائد القديمة من أن الله يسلط مخلوقاته بعضهم على بعض.. حتى لا يطغى أحدها إلى حد أن يتحداه سبحانه وتعالى.. ولكنه لم يحل من المعارك بين مخلوقاته إلا معارك الدفاع عن النفس.. وهو ما يشمل الدفاع عن الحق.. وصيد السمك هو اعتداء ليس فيه ما يدفع الإنسان إلى الدفاع عن نفسه أو الدفاع عن حقه..

وقهقه برهوم ضاحكا وقال :

– إنه دفاع عن حق إشباع البطن.. وحق التباهى بالقوة.. وحق ممارسة الذكاء الآدمى فى الوصول إلى الاستيلاء.. وصيد السمك هو أساسا هواية تقوم على التباهى بالقوة.. وكا ما هنالك أنك لست من الهواة ولذلك لا تصطاد.. وأهم ما يعتمد عليه صيد السمك هو القدرة على احتمال الصبر الطويل.. إنى ألقى بالسنارة وأصبر صبرا قد يمتد ساعة أو ساعتين أو عشرا حتى أصل إلى سمكة.. أما أنت فليست لك القدرة على الصبر.. إنك لا تحتمل إلا ما تمد يدك إليه ولا يفرض عليك الصبر.. ولذلك فلا يمكن أن تكون صيادا..

وصاح ميسور :

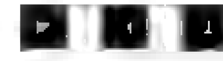
– إنى صياد.. وقد عشت عمرى كله وأنا أصطاد.. ولكنى أصطاد فى دنيا العالم الذى أنتهى إليه.. دنيا بنى الإنسان.. ولا أعتمد على سلاح ولا خديعة فى اجتذاب الإنسان الذى اصطاده.. بل أعتمد على قوة واحدة كأنها قوة مشتركة بين كل بنى الإنسان.. وهى قوة توظيف العقل والفكر.. وقوة الاجتذاب نحو المعاملات النظيفة الشريفة التى تعيش المبادىء العامة.. إن كل بنى الإنسان صيادون

يصطاد بعضهم بعضا.. التاجر يصطاد الزبون الذى يشترى منه.. والطبيب يصطاد ثقة المريض.. والمحامى يصطاد من يلجأ إليه. والموظف يصطاد من يحتاج إليه.. حتى من يحترف الكتابة ، ويعيش على التعبير بقلمه كل أهدافه هى اصطياد القراء.. وفى هذه الدنيا.. دنيا اصطياد بنى الإنسان بعضهم لبعض.. وضعت القوانين الصارمة التى تحمى شرف الصيد.. وتحمى كلا الطرفين من أن يقع عليه اعتداء بأن يسلط عليه سلاح أو تسلط عليه خديعة.. فأى قانون يحمى السمك من الصياد.. إنك مجرم لا يحد إجرامك أى قانون.. وأنا شريف أعيش القانون وكلانا صياد..

ولوى برهوم شفتيه كأنه أصيب بموجة قرف لايستطيع ابتلاعها.. وقال :

– كلام أوهام.. وفلسفة العجزة الضعفاء..

ثم أدار ظهره لميسور وعادوأدلى بالسنارة فى مياه النهر.. بينما عاد ميسور وألقى بظهره على الأرض وأخذيبحلق فى السماء إلى أن عاوده الترنيم بموسيقى لحن من أغانى عبد الحليم حافظ..



وفجأة ظهرت على الشاطئ القريب من النهر فتاة تسير كعود الزهر يتمايل مع النسيم.. وجلست تحت ظل شجرة ، وفتحت صفحات كتاب تقرأ فيه..

وشهق برهوم وهو يراها من بعيد، وقال وهو يمصمص شفتيه حسرة على بعده عنها :

– إنها منصورة.. أجمل بنات القرية وأمنية كل رجل فيها واعتدل ميسور من رقدته جالسا ، وأخذ يتطلع إلى منصورة وهى جالسة على الشاطىء القريب وقال :

– إنها ليست أجمل بنات القرية ، ولكنها أرقاهن فى شخصيتها وأشطرهن فى بناء نفس ذكية وعقل واع.. لقد حصلت على

البكالوريوس ، وأصبحت موظفة محترمة لا تتسع لها القرية فشملت مصر كلها بشخصيتها..

وسكت برهوم فترة وهو ينهش فى الفتاة منصورة بعينيه ثم انطلق قائلا لميسور :

– هل تدخل معى فى معركة تحدد من ينتصر منا على الآخر..

وقال ميسور فى دهشة :

– أى معركة ؟

وقال برهوم من خلال ابتسامة كأنه يتحدى بها ميسور :

– معركة صيد.. كل منا يحاول أن يصطاد منصورة.. وأنا صائد سمك.. وأنت كما تقول صائد بنى آدمين.. ورغم أن منصورة مخلوق آدمى إلا أن صائد السمك يتحدى صائد البنى آدمين..

وقال ميسور فى غيظ :

– أتحداك... فليس الفارق بينى وبينك فيما تصطاد ، ولكنه فارق فى نية كل منا التى تدفعه إلى الصيد.. أنت تحمل نية الاعتداء والقتل لمجرد إشباع طبيعة الإجرام فيك.. أما أنا فلا أحمل إلا نية السلام والرخاء لكل مخلوقات الله.. ومنصورة لها شخصية قوية تحميها من أن تستسلم لأى اعتداء.. إنها ليست مجرد سمكة بلا شخصية.. ولكنها قد تختار السلام.. لا استسلاما ولكن اقتناعا..

وبرهوم ينظر إلى ميسور فى استهانة ساخرة وقال :

– من يبدأ أولا فى الإقدام على الصيد ؟

وقال ميسور وهو يرفع رأسه متعاليا :

– لتبدأ أنت حتى أغسل عنها من بعدك ما قد تكون قدتركته فى أذنيها من كلمات كاذبة مغشوشة..

وأخذ برهوم يساوى فى نفسه كأنه يعد السنارة التى يصطاد بها ، ثم قام وسار حتى وصل إلى منصورة وهى جالسة تقرأ فى الكتاب.. وألقى بنفسه جالسا بجانبها بلا استئذان.. ثم قال وهو

يفتعل اللجلجة فى كلماته كأنه يترك السنارة تتأرجح بين تيارات أعماق النهر..

- آسف.. ولكنى عشت العمر كله وأنا أنتظر ساعة تجمعنا معا وحدنا حتى أسمعك الرنين الذى يملأ صدرى منذ أن التقت عيناى بك..

وقالت منصورة فى دهشة :

- أى رنين هذا ؟

قال وهو يفتعل التنهدات :

- أى رنين يمكن أن يكون إلا رنين الحب.. ولا أخفى عليك.. فقد حاولت أن أسكت هذا الرنين منذ أن شعرت بأول رنة.. حتى لا أعرض نفسى لاجتياز الصعب.. ولكن الرنة أصبحت رنات وتضخمت حتى أصبحت كأنفاس لا تتوقف سواء التقت بك عيناى أم لم تلتق..

وقالت منصورة وكأنها مزهوة بلقائها مع ضحية من ضحاياها :

- إنى تعودت أن أراك بين أولاد القرية كما تعودت أنت أن ترانى.. ولكنى لم أشعر بأى رنة لرؤياك..

وقال برهوم وأنفه يقترب من شفتيها كأنه طرف السنارة :

- ربما لأنى أعيش المستقبل وأنت تعيشين الواقع.. وليس لى مستقبل إلا مستقبلى معك.. وأت تعيشين واقعا لا يهمك الإحساس به..

وقالت منصورة فى دهشة :

- وما هو هذا المستقبل الذى تعيشه ؟

قال برهوم فى حماس :

- مستقبل أن نكون اثنين فى واحد.. يعيشان حياة واحدة.. بيتا واحدا.. وإنى واثق أنه بعد أن نتزوج سنتجاوب رنيناواحدا.. رنين الحب..

قالت مبتسمة كأنها ترأف به :

– إنى لا أعرف عنك ما يكفى لاقتناعى..

قال كأنه يلف الطعم على سلاح السنارة :

– اعرفى عنى أنى تخرجت فى الجامعة.. ولكن ما قيمة الشهادة الجامعية.. إنى لم أحاول أن أبحث لها عن قيمة مادية ويكفينى منها القيمة الثقافية.. لذلك لم أبحث عن وظيفة بعد تخرجى.. وكل مايشغلنى هو زراعة الخمسين فدانا التى تركها لى والدى والإشراف على إدارة العمارات الثلاث القائمة فى المركز.. والله يرزقنى بما يكفينا حياة رائعة يعلو فيها رنين الحب.. والحب يوفر الرخاء والنجاح..

قالت كأنها تلومه فى رفق دون أن تغضبه :

– إنك تردد كلمة الحب.. ولكنى لا أشعر بأنى أحب..

قال كأنه يحرك السنارة أمام عينيها :

– إن الحب لا يبدأ إلا بالمعاشرة.. أى بعد الزواج..

قالت وكأنها بدأت تتوه :

– وقد لا يتحقق الحب بعد الزواج..

قال كأنه يقترب بسنارته أكثر :

– إن الحب بعد الزواج ليس مجرد حب الزوج والزوجة.. ولكنه حب الحياة.. حب الواقع والمستقبل الناجح.. وأنا واثق أنى أستطيع أن أوفر لك حب الحياة..

وتاهت عيناها فى الفضاء وقالت كأنها تحادث نفسها :

– لا أدرى ماذا تعنى بما تقول.. ولا أدرى بما أرد عليك.. دعنى أفكر..

قال فى رجاء :

– أى أدعك إلى لقاء آخر.. ليكن غدا..

قالت وهى ساهمة :

– غدا..

وابتعد عنها وهو يحس كأنه ترك السنارة معلقة فيها ، وفى انتظار أن يشدها إليه.. إنه واثق من أنه زود السنارة بالطعم الذى يغريها ولا تستطيع أن تقاومه..

وعاد إلى ميسور الذى رفع عينيه سائلا فى لهفة :

– إلى ماذا وصلت معها ؟

قال برهوم كأنه ينهره :

– ليس من حقك أن تسأل.. إن الصياد لايكشف عن أسراره إلا بعد أن يصطاد.. وقد جاء دورك.. قم وحاول أنت الآخر أن تصطادها..

ولم يحاول ميسور أن يساوى نفسه ، وقام كما هو وشعره منكوش فوق رأسه وثوبه مبهدل فوق جسده.. واقترب من منصورة وقال وهو واقف أمامها دون أن يعطى لنفسه حق الجلوس بجانبها :

– سأقول لك بصراحة إنى وصديقى برهوم قد اتفقنا على أن يقدم كل منا نفسه إليك لتختارى بيننا.. وقد عشت معك والقرية تجمعنا منذ ولدنا.. ولم يكن يجمعنا سوى النظرات.. ولكن مجرد النظر بالعينين لا يربط أحد بآخر بأكثر من الإعجاب.. وقد كنت دائما معجبا بك وما زلت مجرد معجب.. وربما كان لى نصيب من إعجابك بى.. فإن عينيك لم تكونا ترفضان إعجابى أو تهربان منه.. ومجرد الإعجاب هو إحساس يوفر الحرية الكاملة للفرد.. لأنه احساس لا يتقيد بأى مسئولية.. وحتى يدخل الإعجاب فى نطاق المسئولية يجب أن يتطور إلى أن يصل إلى الحب.. والفرق كبير بين مجرد الإعجاب والحب.. إن الاعجاب يستمد من لقاء الشخصية والفكر والطبيعة البشرية لكل من الشخصيتين اللتين تصلان إليه.. وأنا أتمنى أن يتطور بنا الإعجاب إلى أن نتبادل الحب.. وهذا لا يتحقق إلا إذا تعايشنا حتى يصل كل منا للآخر بأكثر مما يمكن أن

تصل إليه عيناه..

قالت منصورة ساخرة فى رقة :

– كأنك تطلب منى أن نتعايش بالزواج..

وصاح ميسور فى عنف كأنه ينهرها :

– لا.. أبدا ماذا يضيف الزواج إلى الارتباط الشخصى بين رجل وامرأة.. إنه لا يضيف إلا تحليل اللقاء الجسدى.. ولقاء الجسد هو آخر ما يصل إليه الحب لا بدايته.. فلننتظر إلى أن نصل إلى قمة الحب..

قالت منصورة فى دهشة :

– إذن ماذا تريد منى ؟

قال وهو يصب عليها ابتسامة حنونة :

– أتمنى أن نعيش إعجاب أحدنا بالآخر فى صداقة تربطنا ببعض نلتقى كل يوم.. وأسمعك وتسمعيننى.. وأفرحك بأخبارى وتفرحيننى بأخبارك.. وتسمعى شكواى وأسمع شكواك.. وقد تتطور هذه الصداقة إلى حد ألا يستطيع أحدنا الاستغناء عن الآخر.. فنتزوج.. ونكون قد وصلنا إلى قمة الحب.. وقد لا تتطور وتبقى صداقة تجمعنا فى أنبل وأشرف ما يجمع رجل بامرأة..

قالت كأنها تقاوم منطقه :

– ولكن كيف نستطيع أن نعيش هذه الصداقة..

قال فى هدوء :

– نعيشها بحكم تطور المجتمع إلى حد أن أصبح يبيح الصداقة بين الرجل والمرأة.. مجرد صداقة..

قالت ساخرة :

– إن المجتمع مع تطوره لا يبيح للصداقة بين الجنسين سوى تبادل التحية من بعيد.. إلا إذا اختبأ تحت عمل مشترك أو علاقة عائلية..

قال وهو يبتسم كأنه يخفف عنها :

– لنتحد المجتمع.. ما دام كل منا واثق فى نفسه وفى الآخر..

قالت وهى تائهة :

– إنى لا أعرف عنك ما يكفى حتى لبدء هذه الصداقة..

قال كأنه يقدم نفسه :

– إنى أصطاد حياتى فى حدود الشرف.. وأفرح بالنجاح وأصدم بالفشل ولكنى راض عن نفسى فى كل حالة.. ولو كنت إنسانا عاديا كبقية بنى الإنسان لعرضت عليك الآن الزواج ، وقدمت آلاف الجنيهات مهرا وشبكة.. فإنى أملك الآن الآلاف ، ولكن هذه الآلاف قد تضيع فى أى عملية أخرى أقوم بها ولا أنجح فيها.. لذلك فإن من أتزوجها يجب أن تكون قد عرفتنى حتى أحبتنى وأحببتها ، وأصبحنا نتحمل أحدنا الآخر فى كل حالة نعيشها..

قالت وهى حائرة :

– إنى لا أدرى بما أرد عليك. فدعنى أفكر قبل أن أعدك بالصداقة سعيا إلى الحب الذى ينتهى بالزواج..

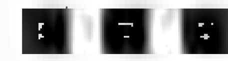
قال فى رجاء :

– ومتى نلتقى..

قالت فورا :

– غدا..

وعاد إلى صديقه برهوم الذى لم يسأله أى سؤال عما جرى بينه وبين منصورة ، ولكنه كان يتطلع إليه بغيظ وهو يراه هادئا كأنه راض عن نفسه.. سعيدا بما وصل إليه..



وفى اليوم التالى التقيا فى نفس المكان خارج القرية.. ولم يكن أى منهما يعلم أن الآخر على موعد مع منصورة.. ورغم ذلك فقد كانا جالسين فى انتظارها.. إلى أن ظهرت أمامهما على الضفة

القريبة.. وقفز برهوم قائلا :

– إن من حقى أن أبدأ.. وهو حق تنازلت لى عنه بالأمس..

وشد برهوم نفسه وخطا إليها.. وقالت له منصورة قبل أن يلقى نفسه بجانبها :

– لقد فكرت فيما كنت تقوله واقتنعت.. وحددت لك موعدا مع بابا هذا المساء..

وفرح برهوم وصرخ بفرحته كأنه يشد السنارة ، وقد تعلقت بها السمكة الجميلة.. وصاح :

– ألف مبروك.. مبروك لى..

ثم شد يدها يقبلها كأنه يتذوق لحمها.. وجرى إلى صديقه ميسور..

ولم ينتظر ميسور أن يصل إليه.. ولعله ظن أن سرعة عودة برهوم إليه دليل على أنه فشل فى اصطياد السمكة.. وقام يجرى إلى منصورة واستقبلته وهى تدير عينيها عنه قائلة فى خفر :

– آسفة.. لم يعد من حقى أن أنفرد بأى صداقة لأى رجل.. فقد أصبحت مرتبطة..

ولم يقل ميسور أى كلمة.. واستنتج فورا أنها ربما كانت تعنى أنها ارتبطت ببرهوم.. ونظر إليها كأنه يشفق عليها أو يرثيها.. وعاد فى خطوات بطيئة كأنه يزحف بقدميه.. واستقبله برهوم مهللا فى شماتة :

لقد انتصرت عليك.. واصطدت حتى فى دنياك.. دنيا البنى آدمين..

قال ميسور فى صوت حزين :

– لابد أنك خدعتها وكذبت عليها حتى استجابت لك..

وارتفع صوت برهوم دفاعا عن نفسه :

– لم اخدعها ولم أكذب عليها.. إنما أغريتها بالواقع.. فأنا فعلا

أملك خمسين فدانا وثلاث عمارات وأستطيع أن أوفر لها حياة تحبها.. حياة الرخاء والنجاح.. ويجب أن تقتنع بأن كل المعاملات بين خلق الله تقوم على تقديم الإغراءات التى تنتهى بالاقتناع.. حتى عندما أتعامل مع السمك وأنا أصطاده. فإنى أغرى السمكة بطعم أقدمه لها ويفتح شهيتها.. ولم يهبها الله ذكاء تستطيع أن تقدر به أن هذا الطعم قد يكون معلقا فى سلاح يقتلها.. أى معلقا فى سنارة.. ورغم ذلك فقد وهب الله بعض أنواع من السمك ذكاء يعينه على الهروب من السلاح.. فيأكل الطعم من حول السنارة دون أن يصل إليه السلاح.. كثيرون من الصيادين يلقون بالسنارة ثم يشدونها.. وقد فقدت ما كانت تحمله من إغراء دون أن يستولى على سمكة.. وقد ألقيت بالطعم إلى منصورة فتعلقت بالسنارة..

قال ميسور فى غيظ ساخر :

– إنك تصطاد السمكة لتأكلها.. ولكن منصورة بعد أن اصطدتها قد تكون هى التى تأكلك..

قال برهوم فى بساطة :

– إنها معركة الحياة.. من يأكل الآخر..

قال ميسور وهو لا يزال مغتاظا :

– إن السمكة قد تنتقم منك بأن تحتفظ بأشواكها حتى تدخل بطنك.. ثم تغرزها فى أحشائك وتتركك تعيش معذبا.. والبنى آدم أيضا له أشواك.. وقد تغرز منصورة أشواكها فى لحمك لتعيش معذبا..

قال برهوم ساخرا فى شماتة :

– إنك كنت تتمنى أن تنتصر على وتصطاد منصورة حتى لو عشت معذبا بها..

وصاح ميسور :

– أبدا.. إن الفرق بينى وبينك هو أنى لم أحاول أن أصطاد

منصورة.. لقد حاولت أن أقنعهـا بأن نبدأ نحن الاثنين فى بناء كيان واحد يجمعنا.. دون أن يكون أحد منا قد اصطاد الآخر.. أو نكون أنا وهى قد التقطتنا وجمعتنا سنارة واحدة.. سنارة الحب..

وسار ميسور مبتعدا فى خطوات تضرب الأرض فى عنف..

وصاح وراءه برهوم وهو يتتبعه مشفقا :

– إن الحـيـاة اصطيـاد.. والسنارة لا يمـكن أن تصطاد كـلا من الصائد والسمكة.. إن حق الصيد لصاحب السنارة وحده.. ومن حقه أن يستولى على ما يصطاده.. فدرب نفـسك على الصيد حتى تعيش واقع الحياة..

الأعمال الكاملة للكاتب إحسان عبد القدوس

١	التجربة الأولى	٣٤	لا تتركونى هنا وحدى
٢	منتهى الحب	٣٥	اللون الآخر
٣	شفتاه	٣٦	يا عزيزى كلنا لصوص
٤	آسف لم أعد أستطيع	٣٧	البنات والصيف
٥	يا ابنتى لا تحيرينى معك	٣٨	لا أنام
٦	لا أستطيع أن أفكر وأنا أرقص	٣٩	أنا حرة
٧	حتى لا يطير الدخان	٤٠	شىء فى صدرى
٨	زوجات ضائعات	٤١	أنف وثلاث عيون ج.١
٩	الرصاصة لا تزال فى جيبى	٤٢	أنف وثلاث عيون ج.٢
١٠	البحث عن ثورة	٤٣	لن أعيش فى جلباب أبى
١١	ومضت أيام اللؤلؤ	٤٤	سيدة فى خدمتك
١٢	فى وادى الغلابة	٤٥	النساء لهن أسنان بيضاء
١٣	خواطر سياسية	٤٦	دمى ودموعى وابتسامتى
١٤	بعيداً عن الأرض	٤٧	الحياة فوق الضباب
١٥	علبة من صفيح	٤٨	وعاشت بين أصابعه
١٦	الطريق المسدود	٤٩	وغابت الشمس ولم يظهر القمر
١٧	زوجة أحمد	٥٠	قلبى ليس فى جيبى
١٨	لا ليس جسدك	٥١	كانت صعبة ومغرورة
١٩	لا شىء يهم	٥٢	فوق الحلال والحرام
٢٠	لا تطفىء الشمس ج.١	٥٣	وكر الوطاويط
٢١	لا تطفىء الشمس ج.٢	٥٤	لن أترك كل هذا
٢٢	فى بيتنا رجل	٥٥	ونسيت أنى امرأة
٢٣	النظارة السوداء	٥٦	بنت السلطان
٢٤	صانع الحب	٥٧	وتاهت بعد العمر الطويل
٢٥	بائع الحب	٥٨	الهزيمة كان اسمها فاطمة
٢٦	أين عمرى	٥٩	الراقصة والسياسى
٢٧	بئر الحرمان	٦٠	الحب في رحاب الله
٢٨	الخيط الرفيع	٦١	الوسادة الخالية
٢٩	عقلى وقلبى	٦٢	العذراء والشعر الأبيض
٣٠	على مقهى فى الشارع السياسى	٦٣	رائحة الورد وأنوف لا تشم
٣١	السعادة ليس لها تاريخ	٦٤	أيام شبابي
٣٢	حالة الدكتور حسن	٦٥	ثقوب فى الثوب الأسود
٣٣	لم يكن أبداً لها	٦٦	تاريخ أحد اللصوص

الفهرست